

زعماء .. على فراش المرض
أسرار لم تنشر من قبل ؟!
تأليف
الدكتور / باسم عادل عبد الصادق
المستشار الإعلامي
بالمركز المصري للدراسات والبحوث الإعلامية

زعماء على فراش المرض

أسرار لم تنشر من قبل

دكتور

باسم عادل عبد الصادق



هذا الكتاب

اسم الكتاب: زعماء على فراش المرض
المؤلف: د. باسم عادل عبدالصادق
طبيب متخصص فى أمراض القلب والأوعية الدموية والعناية المركزة
المراجعة والتقديم: أ. د. عادل إمام
الطبعة الأولى: ٢٠٠١م
الناشر: المركز المصرى للدراسات والبحوث الإعلامية
١٦ شارع الفتح - منيل الروضة - القاهرة - ت ٥٣١١٣١٣

إدارة النشر

مستشار عام النشر: المنجى سرحان
الغلاف والاشراف الفنى: طه عبدالجواد
المراجعة والتصحيح: أحمد محمد عبدالرحيم
الاخراج الفنى: عزت اسماعيل
الاشراف الطباعى: عماد إبراهيم
عبدالوهاب حسين

رقم الايداع: ٢٠٠٠/١٨٤٠٦
الترقيم الدولى: 977 - 5963 - 15 - X

الإهــداء

إليك .... يا أمى

يــا كــل مــن تــبــــقـى مـــن شــــجـــــرتــى ....

يا ســيــدة النوات العطرية .. .. علي شـواطئ روحى

دمــوعك .. .. .. قطرات ندى .. .. تصادق دمــوعى

ودعــواتك .. .. .. كــرقــرقــة الماء .. .. تحيى ذبولى

أكـــتـــفـــيت بقلبك .. .. عـن كـل نسـاء ذكـريـاتـى

ولو لم يتبقى سوى عمرى .. .. أهديته لك ....

واعــتــبــرت ذلك .. ..أعظم إنجازات حـيـاتـى ....

باسم عادل عبد الصادق

المقدمة

كاتب المقدمة هو الأستاذ الدكتور عادل إمام الذى يعتبر بحق واحداً من رواد علم القلب فى مصر والعالم، وهو يعمل أستاذاً ورئيساً لأقسام قسطرة القلب بالمعهد القومى للقلب بالقاهرة، حيث يرأس فريق عمل مكون من أكثر من ستين طبيباً، ويطبق الدكتورعادل إمام أحدث التقنيات الطبية مستعيناً بخبرته الدولية، وقد تخرج من كلية الطب جامعة عين شمس عام ١٩٦٣، ثم عمل كمحاضر بالجامعة ثم إلتحق بالجيش عام ١٩٦٥وحتى عام ١٩٧٠، وخلال تلك الفترة حصل على درجة الماجستير فى الطب الداخلى وطب القلب، ثم عمل بعد ذلك كطبيب بمعهد القلب، وحصل على درجة الدكتوراة فى علم القلب، وفى عام ١٩٧٥ سافر إلى فرنسا لدراسة علم الأوعية التاجية ثم عاد إلى مصر عام ١٩٧٦، وأنشأ أول معمل فى مصر والشرق الأوسط للأوعية التاجية، ثم عين رئيساً لمعمل قسطرة القلب فى معهد القلب وظل شاغراً لهذا المنصب حتى الآن، وقد شارك الدكتور عادل إمام بأساليب فريدة فى علاج الأوعية التاجية، وصمامات القلب بالقسطرة، وفى باريس أجرى عملية أذيعت على الهواء مباشرة أمام وفود المؤتمر البالغ عددهم ٨٠٠٠ شخص، وهو رئيس جمعية كل العرب لطب القلب التداخلى، وعضواً بالكليتين الأمريكية والأوربية لأمراض القلب، وعضواً بمجلس إدارة الجمعية المصرية لأمراض القلب، وقد قام بنشر العديد من المقالات فى المجلات المصرية والعربية والأوروبية والأمريكية، وكتبت عنه مجلة إيجيبشن ميديكال التى تصدر من لندن «أنه واحد من الآباء الروحيين لطب القلب».

المقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور/ عادل إمام

القلم الرَشيق.. متعة.. خاصة عندما يتناول موضوعاً هاماً مثل موضوع هذا الكتاب الذى يحلل أمراض الزعماء والرؤساء، وتأثيرها على صناعة قراراتهم الهامة والخطيرة، وهنا تجد رشاقة القلم تخترق وجدانك أو تنفذ إلى عقلك أو تتملكك بالدرجة التى تشعر معها أنك أصبحت أسير هذا الكتاب حتى تنتهى من قراءة آخر كلماته، والطبيب الشاب باسم عبدالصادق يمتلك هذه النوعية من الأقلام الرشيقة التى ترصد الممتنع بالأسلوب السهل، وتجعلك مصمماً على الدخول فى أغواره لتتعرف على ما يملكه هذا الطبيب الأديب خلف جدران العقل.. وقد عرفت هذا الشاب عندما تسلم عمله فى قسم القسطرة القلبية الذى أتولى رئاسته بمعهد القلب القومى، ومنذ اللحظة الأولى شعرت أنه يحمل تفكيراً خاصاً أو قدرة هائلة على إنجاز مهام العمل التى يكلف بها، ولذلك أوليته رعاية خاصة فى تعلم فنون التشخيص والعلاج عن طريق قسطرة القلب، وأعتقد أنه كان جديراً بهذه الرعاية.. وعرفت بعد ذلك أنه أديب، يؤلف الروايات والمسرحيات، ويكتب القصص الأدبية ودواوين الأشعار، وله إبداعاته فى مجال الدراما التليفزيونية، وأشفقت عليه من الصراع القاتل داخله بين واجبات عمله كطبيب فى تخصص دقيق، وحتمية إطلاعه المستمر على الجديد فى مجال تخصصه، وبين إلحاح موهبته التى تلح عليه من حين لآخر، مثل المعشوقة التى لايرحل حبها عن قلب العاشق مهما باعدت بينهما الأسوار.. ولا غرابة فى ذلك فكثير منَ الأطباء نبغوا فى الآداب والفنون، وأسهموا إسهامات فعالة فى تطور الحركة الأدبية والثقافية فى مصر، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الدكتور مصطفى محمود، والدكتور يوسف إدريس، والشاعر الدكتور إبراهيم ناجى، بل إن من أروع المفاجآت ذلك الخبر الذى ذكره لى الدكتور باسم عبدالصادق بخصوص جراح القلب المصرى العالمى ذهنى فراج الذى حكى للمؤلف أثناء زيارته له فى منزله قبل سفره بساعات إلى لندن عائداً من القاهرة فى ديسمبر الماضى، أنه يمتلك مجموعة قصصية قام بتأليفها فى لندن، ويعتزم إصدارها فى مصر قريباً، وهذا يدلل أن النبوغ الأدبى لايمكن أن يطغى على النبوغ العلمى، بل ربما يكون الاثنان دافعاً وراء كمال الشخصية الإنسانية.

ومادة هذا الكتاب هامة جداً، لأنها تتعلق بتأثير المرض على إتخاذ الحاكم لقراره، وفى اعتقادى أن هذا الموضوع سيحدث دوياً فى الأوساط المهتمة بمثل هذه التحليلات السياسية والطبية التى تتبنى وجهات نظر قيمة، وتنبع أهمية هذا الكتاب من أن كل الكُتاب السابقين فى مصر والعالم تناولوا مرض الزعماء فى مؤلفاتهم من ناحية السرد الخبرى أو التوثيقى فقط، وقليل منهم هو الذى حاول أن يقتحم فكرة تأثير المرض على قرارات الزعماء، ولكن محاولاتهم تقريباً كانت تبوء بالفشل رغم كونهم كتاباً كباراً، إلا أنهم لم يكونوا من الأطباء، وبالتالى فإن ضعف خلفيتهم الطبية لم يسمح لهم بالنجاح فى تناول هذا الأمر، أما فى هذا الكتاب فإن المؤلف يسعى لإرساء وجهة نظر جديدة يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عند تقييم قرارات الزعماء، إذ يجب العودة إلى تاريخهم المرضى أثناء فترة حكمهم، والاستناد على التفسير الطبى فى توضيح سلوك الزعماء والرؤساء وقادة الدول، وبعض الناس أحياناً ينسبون قرارات الزعماء التى قد تعصف بمصالح الشعوب إلى نوع من فساد الحاكم وبطانته، ولكن الأمراض التى قد يصاب بها مثل هؤلاء الزعماء قد تتدخل بقوة لتؤثر على قدرتهم العقلية بأسلوب مباشر إذا كانت هذه الأمراض تؤثر على ميزان الهرمونات والموصلات الكيميائية فى جسم الإنسان، والتى تتحكم فى ردود أفعاله، أو بأسلوب غير مباشر عن طريق تغيير المرض للحالة النفسية والمزاج الشخصى للزعماء والقادة، وأحياناً قد يُعدل المرض أشياء كثيرة فى سياسة الزعيم أو يُقوّمها أو يجعله يعقد مصالحة مع شعبه خاصة إذا كان يمر بآخر محطاته فى الحياة.

وهناك كثير من الزعماء المرضى الذين أوقعوا البشرية فى شراك الهول والدمار كنتيجة لتصرفاتهم الناتجة عن أمراضهم العضوية أو النفسية، ولدينا المثل فى الزعيم الألمانى أدولف هتلر الذى كان مصاباً بالبارانويا والتعصب الأعمى، فحول العالم كله إلى جحيم بعد أن أوقع به فى براثن الحرب العالمية الثانية التى راح فيها عشرات الملايين من الضحايا والأبرياء، وقد سألت المؤلف عن سبب اختياره لهؤلاء الزعماء الثمانية دون غيرهم ليتناولهم فى موضوع كتابه؟ فكان رده مؤكداً على أن هؤلاء الزعماء أكثر من أثروا فى حياة شعوبهم وتاريخ أوطانهم، فالرئيس جمال عبدالناصر لم يكن رئيساً عادياً، بل كان زعيماً قومياً وتاريخياً، وله تأثير إلى حد كبير على أبناء وطنه، والملك حسين العاهل الأردنى الراحل، تولى الحكم قبل أن يولد ٩٥٪ من سكان الأردن الذين يعيشون على أرضه الآن، أما محمد رضا بهلوى وفيدل كاسترو فإن المؤلف يرى أن لهما تركيبة نفسية خاصة تستحق إلقاء الضوء والتحليل، بالإضافة إلى أمراضهم المستعصية التى أصيبوا بها، وفرانكلين روزوفلت كان إسطورة الزعماء والرؤساء فى القرن العشرين وهو الرجل الذى انطلق نحو قلوب ملايين الأمريكيين على ساقين كسيحتين، فمنحوه شرف الرئاسة الأمريكية أربعة مرات متتالية على غير العادة

والقانون والدستور لأن إرادة الأمة قد انتصرت فى النهاية..

أما بوريس يلتسين فكان أول رئيس يحكم روسيا بعد إنهيار الشيوعية فى العالم وتفكك الإتحاد السوفييتى، وكان العالم كله ينظر إلى يلتسين نظرة ترقب وإستعداد حتى سقط به المرض في حفرة الأخطاء، ورونالد ريجان كان الرئيس الأمريكى الذى قاد أمريكا فى حرب النجوم والكواكب وفى عهده عقدت أكبر صفقات لبيع السلاح الأمريكى فى تاريخ أمريكا كلها كما أنه تعرض لمحاولة إغتيال فاشلة بعد أيام قليلة من توليه حكم الولايات المتحدة عام ١٩٨١، وبالنسبة للرئيس الفرنسى الراحل فرانسوا ميتران فقد إختلف عليه شعبه ما بين مؤيد ومعارض، خاصة بعد أن ظهرت الحقيقة التى أخفاها عن شعبه لمدة إحدى عشر عاماً، وعرف الشعب أن رئيسهم كان مريضاً بمرض خبيث منذ بداية فترة حكمه وأن أطباءه كانوا يصدرون تقاريراً طبية غير صحيحة عن حالته الصحية، هذا بالإضافة إلى أن إحساس فرانسوا ميتران بأنه مشرف على الموت الأكيد بعد أن وصل إلى مرحلة متدهورة من المرض قد دفعه لأن يصلح كل أخطاءه البشرية وخاصة فى حق إبنته الغير شرعية، كما سنقرأ ونعرف على صفحات الكتاب.

لذلك فإن إختيار هؤلاء الزعماء الثمانية كان موفقاً إلى حد كبير لأنهم يمثلون تيارات تاريخية وسياسية مختلفة فى تاريخ شعوبهم، ويعتبر كل منهم رائداً لمدرسة سياسية وشعبية منذ بداية كفاحه السياسى وحتى الوصول إلى آخر محطات مشواره السياسى.

ومن الأمراض التى تأثر بها الزعماء كثيراً فى قراراتهم أمراض تصلب الشرايين والأوعية التاجية وشرايين المخ، التى تغذى عضلة القلب والمخ بالغذاء والدماء، وهى تصيب غالباً الإنسان إذا ما تقدم به السن حيث تفقد الشرايين والأوعية الدموية مرونتها، وتحدث تغيرات باثولوجية بجدرانها وهذا بالطبع يؤدى إلى اصابتها بالضيق الشديد الذى يعوق بدوره سريان الدورة الدموية فى جسم الإنسان بصورة طبيعية فلا يصل الدم المحمل بالغذاء والأكسجين إلى الأعضاء والمراكز الحساسة بالجسم وبخاصة المخ، الذى تتأثر وظائفه بصورة واضحة، وكثيراً ما نقابل هذه النوعية من المرضى الذين يصيبهم فقد القدرة على التركيز، وضعف الذاكرة وتغير المزاج النفسى بالصورة التى تؤثر على توازنهم بصفة عامة وتجعلهم غير قادرين على القيام بأعبائهم الحياتية بصورة طبيعية، وقد يصبح الأمر عادياً إذا كان المريض إنسانا مثل عامة الناس أما إذا كان المرض يتعلق برئيس دولة يصدر القرارات ويرسم السياسات فإن الأمر يصبح فى غاية الخطورة، وبالطبع فإن كثيراً من الزعماء موضع هذا الكتاب قد أصيبوا بتصلب شديد فى الشرايين حيث كانت أعمارهم تتخطى دائماً الستين عاماً.. وهناك أيضاً أمراض أخرى عانى منها قادة الدول وغيرت من مجرى قراراتهم

السياسية مثل الاصابة بالأورام الخبيثة والسرطانات وتضخم الغدة الدرقية وزيادة إفراز هرموناتها بصورة غير طبيعية مما يجعل الزعيم يخرج فى سلوكه العام عن التصرفات الطبيعية والعادية.

وفى النهاية أجدنى متفقاً مع مؤلف الكتاب فى رؤيته حول تأثير الأمراض على القدرات العقلية للزعماء والقادة بما يعوقهم عن أداء دورهم القيادى بالصورة التى يأملها مواطنوهم، وأن الأمانة تقتضى على الحاكم، الذى يقع فى شراك الأمراض المستعصية أن يتنازل عن الحكم أما إذا كان قادراً على القيام ببعض الأعباء الرئاسية ويستلزم وجوده لدواعى تاريخية وسياسية هامة فإنه يجب أن يستعين بهيئة واعية ومخلصة من المستشارين والمعاونيين لمساعدته فى أعباء الحكم، ومراجعته فى كل قراراته التى قد تصدر متأثرة بمرضه حتى لايلقى بمصير شعب كامل فى جحافل الجحيم بسبب فرد واحد خاصة إذا أصر على الإنفراد بقراراته رغم بعدها عن الصواب والصالح العام.

وأترككم مع صفحات الكتاب فى رحلة تحمل كثيراً من الأسرار المثيرة والجديدة.

الأستاذ الدكتور

عادل إمام

٢٠٠٠/١٢/١٠

مقدمة
الطبعة الأولى

الغزاة.. شوكة فى قلب الوطن..
والفشل.. دمعة على خد الأمل
والقلب.. كبش فداء للحب
والموت.. ضريبة الحياة
والخرافات.. الوجه الآخر للأوهام

والمرض.. محطة على طريق الزعماء والقادة والرؤساء الذين رسم لهم القدر أن يلعبوا دور البطولة على مسرح الحياة، ويحملون فى رقابهم مصائر الشعوب وأحلامها وطموحها فى حاضر ومستقبل يضمن العزة والكرامة والتفوق.. ولا جدال أن كل الحكام على اختلاف أوطانهم وهويتهم وسياستهم يحملون أكفانهم فوق أيديهم فى انتظار حتفهم.. لأن الحاكم دائماً لا يصل إلى درجة الكمال فى إرضاء شعبه، ولا يتفق عليه جموع المواطنين، ولا تشير نحوه أصابع الجماهير كلها فى اتجاه واحد.. بل إن لكل حاكم كبوته وخطأه ونقطة ضعفه التى يتربص خلفها أعداؤه، وهم يصوبون نحوه البنادق على أمل فى النيل منه حين تضعف همته أو يكل عزمه.

وكثير من القادة والرؤساء لم يخذلوا أحلام الجماهير، ولم يخيبوا ظن شعوبهم فيهم، واستطاعوا أن ينتشلوا الرعية من ضياع الفقر إلى أمان الرخاء ومن ضعف الذل إلى هيبة القوة، ومن ظلام الجهل والتخبط إلى نور العلم والمدنية، ومن البقاء بلا حراك على الأرض إلى التحليق فى الفضاء وغزو الكواكب والتخطيط لإقامة مجتمعات جديدة عليها،... نعم.. إن هناك زعماء لن ينساهم التاريخ.. رفضوا أن يهبطوا إلى الأرض قبل أن يلمسوا السماء.. علموا شعوبهم معنى الحرية، وأن الكلمة المنطلقة من قلوب الأحرار أقوى ألف مرة فى صداها من دانات المدافع ودوى القنابل.. وهناك زعماء كانوا وبالاً على شعوبهم.. رفضوا أن يخرجوا بآمال الجماهير من بوابة الأحلام إلى حيز الحقيقة لتصبح واقعاً ملموساً ومحسوساً.. فكانوا مثل الغزاة كالشوكة فى قلب الوطن.. وتحولت على أيديهم الأحلام إلى أوهام ثم خرافات ثم قيود تكبل المعاصم والسواعد.. وتزرع الشواهد فوق القبور.. وهؤلاء الطغاة لا يتنفسوا الهواء النظيف ولا تستنشق أنوفهم إلا رائحة الطغيان،... والديمقراطية فى قواميس بلادهم معناها زوار الفجر والبطش والقهر والفساد، ولا تنطلق من إذاعاتهم سوى أخبار الحاكم وبطانته وبيانات التضليل والتلفيق ولا تبث تليفزيوناتهم إلاصوراً لمدارس ومصانع ومعامل ومستشفيات وجامعات غير التى يذهب إليها الناس كل نهار فى أعمالهم.. حيث الواقع المؤلم والمرير.

وسواء كان الحكام من هذا الفريق أو ذاك.. فإن نسبة كبيرة منهم وقعوا فى شراك المرض.. وهجم عليهم فجأة مثل الوحش الكاسر، وحاولوا بكل إمكانات النفوذ والسلطة والسيطرة أن يفعلوا أى شىء ليطيلوا أعمارهم فترة من الزمن فلم يستطيعوا أن يمدوا الأجل ولو لدقيقة واحدة.. وماتوا مثلما يموت كل الناس، وكان مثواهم الأخير أيضاً حفرة كالتى يدفن فيها العامة.. وواراهم التراب.. وفى النهاية فإنها حفرة مهما علت فوقها البنايات، ومهما أقيمت عليها قلاع المساجد أو الكنائس، ومهما ازدانت الجدران حولها بالرخام والجرانيت.. فالعبرة فى النهاية بما يحدث داخل القبر وهل هو مضىء أم مظلم؟!.

والكثير من الناس رغم اختلافهم فى الدين والوطن والثقافة، والظروف الاجتماعية والاقتصادية، ينظرون إلى الحكم على أنه زهوة وأمل يحاكى الأذهان ويداعبها، وما أكثر ما تملكت الزعامة والعظمة من نفوس البعض من العامة، فيتقمصون أدوار الرؤساء، ويرتدوا عباءات القادة وهم يجلسون على المقاهى، وفى الحانات والأوكار، أو يقفون على النواصى ليقول الواحد منهم: لو كنت مكان الرئيس لفعلت كذا وكذا!! وكأن السلطة والقيادة تكريماً للسلطان وتعظيما للقائد وليست معجونا من الخبرات، وحملاً تنوء عن حمله الجبال.. ويسود هذا الاعتقاد لاشك فى البلاد والدول التى تتعاظم فيها صورة الحاكم مثل دول العالم الثالث التى تؤله الحكام، وتعتبرهم كيانات خيالية بالنسبة للأمم والأوطان.. فهم يعيشون فى خزانة من الحواجز التى تفصلهم عن شعوبهم. ولا يتحركون بين الناس إلا فى المواكب التى تحرسها المصفحات والرشاشات ومئات من الجنود المدججين بالسلاح.

ولكن تبقى الحقيقة فى النهاية.. والتى لا جدال ولا مراء أو شك فيها أن عظمة الحاكم تتهاوى، وتسقط وتذبل عندما يواجه محنة المرض، وخاصة إذا كان مرض الموت.. وأن سياسات الدول داخلياً وخارجياً ترتبط بالحالة الصحية والمرضية للزعماء إلى الحد الذى تتلاعب معه أسعار العملات فى الدول التى يصاب حكامها بأمراض خطيرة.. مثلما حدث من انخفاض كبير فى سعر الدينار الأردنى أثناء مرض العاهل الأردنى الراحل الملك حسين، وإصابته بسرطان الغدد الليمفاوية «الليمفوما» والذى أودى بحياته.. حيث عم جو من القلق فى الأوساط العالمية خوفاً على مستقبل الأردن بعد وفاة الملك حسين خاصة إذا وقعت المملكة الأردنية فى براثن الخلاف على الحكم وتولى السلطة فى البلاد.

وعادة لا يتوقف الأمر على تأثر سوق النقد الدولى بالظروف الصحية للرؤساء والملوك ولكن تصاب السلع الأساسية أيضاً بنوع من تلاعب الأسعار فنجد مثلاً أن سعر برميل البترول والغاز الطبيعى قد يتأثر بالأحداث السياسية العالمية الهامة، ومنها مرض ووفاة الزعماء ورؤساء الدول والحكومات.

وحينما اشتد المرض على الزعيم جمال عبدالناصر قام الاتحاد السوفييتى ولم يقعد إلى الحد الذى جعل بريجينيف يأمر وزير الصحة وكبير أطباء الكرملين البروفيسور يفجينى

تشازوف بأن يفعل أى شىء وكل شىء من أجل إستعادة صحة عبد الناصر ، لأنه كان يرى أنه لا توجد فى الشرق الأوسط شخصية أخرى قادرة على أن توحد العرب فى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل . . وأن عبد الناصر إذا مات وغادر المسرح السياسى فستلقى المصالح الروسية مواجهة وخطراً كبيراً . . وعندما ذهب الملك حسين إلى مستشفى مايو كلينيك فى ولاية مينسوتا الأمريكية طلب الرئيس الأمريكى بيل كلينتون من أطبائه الخصوصيين أن يبقوا فى خدمة الملك ورهن إشارته حيث كان يخشى على مستقبل الأردن إذا ما انتقلت السلطة إلى يد شقيقه وولى عهده الأمير الحسن وهو ما يضر بالمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط ، وعندما واجه بوريس يلتسين الموت . .حين صارحه أطباؤه بضرورة إجراء جراحة عاجلة وخطيرة فى القلب لاستبدال الشرايين التاجية المصابة بالتصلب ، سلم الحقيبة النووية إلى رئيس حكومته ، وتداولت كل وكالات الأنباء العالمية هذه الأخبار الهامة ، وفردت لها مساحات كبيرة للبحث والنقاش حول مدى أهمية هذه الحقيبة النووية . . وهل كان يمكن للرئيس بوريس يلتسين أن يحتفظ بالحقيبة أثناء رحلة العلاج أم لا . ؟ .

والرئيس السورى حافظ الأسد كان يتكتم بشدة أخبار مرضه حتى لا يؤثر ذلك على الحالة المعنوية لشعبه الذى يرى فيه الشخصية الصامدة التى تهابها إسرائيل وتحسب لها المقادير والحسابات . . ورغم كل ذلك فإن أخبارا عن حالته الصحية كانت تتفشى بين الحين والآخر ، وكان تدهور حالته المرضية يقلق الأوساط السياسية فى الشرق الأوسط ، والعالم كله . . وهذا ما دفع الموساد الإسرائيلى أن يتابع حالته الصحية عن قرب حتى يتم تقييم مؤشرات مفاوضات السلام مع سوريا بصورة تخدم مصالح إسرائيل . . هذا إذا بدأت هذه المفاوضات . . ! !

ونتيجة لهذه المحاولات المتكررة للتقصى عن حالة الرئيس الأسد الصحية ، استطاع الموساد الإسرائيلى أن يحصل على عينة من «بول» الرئيس حافظ الأسد أثناء زيارته للأردن فى شهر فبراير ١٩٩٩ لتشييع جثمان العاهل الأردنى الملك حسين ، وتمكن الموساد من تحليل هذه العينة والتى كشفت نتائجها عن حالة صحية حرجة للرئيس حافظ الأسد وخشيت إسرائيل أن تدخل فى أى مفاوضات للسلام مع الرئيس حافظ الأسد ، قد تتعثر أو لاتستمر بعد تولى شخص آخر الحكم خلفه خاصة وأن الرئيس حافظ الأسد قد بدأ يدرك أهمية السلام العادل بعد سنوات طويلة من المواجهة مع إسرائيل .

وهناك عشرات من الرؤساء والملوك والرموز الوطنية وقعوا أسرى للمرض لفترات طويلة ، منهم على سبيل المثال الملك عبد العزيز آل سعود والحبيب بورقيبه ومحمد رضاه بهلوى وتيتو ورونالد ريجان وغيرهم كثيرين . . كما أن هناك العديد من الحكام فى أنظمة الحكم الزائلة ، قد راحوا ضحية أمراضهم ، مثل الزعيم الصينى ماوتسى تونج ، والخديوى توفيق الذى مات متأثراً بتسمم بولينا ونيكولاى شاوشيسكو ديكتاتور رومانيا الذى أصيب

بالبارانويا، وراح فى نهاية مأساوية، ولكن يبقى السؤال الهام الذى يراود الأذهان.. ويشغل تفكير المحللين السياسيين والخبراء فى دوائر صنع القرار وهو هل يتأثر قرار الحاكم بحالته المرضية.. وهل يصبح قادراً من الناحية الذهنية والعقلية على إدارة شئون البلاد وهو يعانى من أعراض مرض خطير؟!.

الإجابة قد تبدو سهلة فى بداية الأمر، وللكثير من الناس الذين سيستشهدون بكثير من الزعماء المرضى الذين مارسوا مقاليد الحكم، وصارعوا مع شعوبهم فى مراحل البناء والتقدم.. بل منهم من قاد شعبه فى حروب التحرير ضد قوى الاستعمار الغاشمة... وحقق انتصارات ساحقة تراجعت أمامها جيوش الاحتلال.. والإجابة على هذا التساؤل ليس أمراً سهلاً مثلما يتصور البعض، فتلك القضية تحتاج إلى تحليلات كثيرة، وإلمام كامل بملابسات الظروف الصحية للزعماء، وتصرفاتهم الشخصية فى حياتهم العادية أثناء رحلة العلاج وهو ما سنتعرض له على صفحات هذا الكتاب بالعرض والتحليل الدقيق...

وقبل الخوض فى هذا التحليل يجب أن ألقى الضوء على بعض النقاط الهامة التى وقفت عليها أثناء رحلتى فى تأليف وإعداد المادة الخاصة بهذا الكتاب،... وأولى هذه النقاط أن هناك عدداً لا بأس به من الحكام قد أصيب بأمراض نفسية مباشرة مثل «البارانويا» أو جنون العظمة كما يطلق عليه البعض، أو بترسبات نفسية غير مباشرة مثل «الإكتئاب» نتيجة إصابتهم بأمراض عضوية خطيرة أو لتعرض بلادهم لأحداث سياسية هامة، ونكبات ونكسات لم يستطيعوا معها مواجهة شعوبهم، فانعكس ذلك على حالتهم النفسية، واندفعت قراراتهم من خلفية نفسية غير سليمة شجعتها بطانة السوء والطامعين فى الحكم فيعيش الحاكم أسوأ فترات حكمه، والتى غالباً ما تنتهى إما باعتياله أو الإطاحة به فى انقلاب عسكرى، أو بثورة شعبية ضده، أو بموته مقهوراً، ومتأثراً بحالته النفسية والعضوية.

ونقطة ثانية.. أن كثيراً من القادة والزعماء قد توحشوا فى مواجهاتهم مع الأعداء إلى الحد الذى لا يتحمله عقل ولا يقبله منطق ولا تقره أى شريعة سماوية مثلما فعل هتلر الذى أعد محارق جماعية لليهود، وكان يلقى فيها بآلاف الأشخاص وقوداً للنار، وقائده روميل «ثعلب الصحراء» الذى زرع صحراء العلمين فى مصر بأكثر من ١٧,٥ مليون لغم حتى لا تتبعه فلول الجيش البريطانى، ومازال إلى يومنا هذا يذهب العشرات ضحايا لألغام هذا الثعلب روميل.. وسلوبودان ميلوفتش، وحش الصرب الذى كان يلعب الكرة برؤوس مسلمى البوسنة والهرسك بعد بترها من فوق الأعناق.. ويبقر بطون الحوامل ويغتصب النساء والفتيات، ويطلق جنوده المسعورين نحوهن.. وإريل شارون مجرم الحرب الإسرائيلى الذى دك المدارس فوق رؤوس الأطفال الأبرياء، وحفر المقابر الجماعية لأسرى الحرب خلافاً للأعراف والتقاليد الدولية، وذبح الآلاف فى لبنان والأراضى المحتلة، ومازال إلى اليوم يواجه العالم بوقاحته وبوجهه الذى نضبت فيه الدماء.. وهذا لا شك دليل على اختلال الميزان

النفسى لهؤلاء القادة حتى أنهم أصبحوا يعيشون بنفسية الوحوش لا بنفسية البشر.

ونقطة ثالثة.. أن معظم الزعماء الذين تفحلت حالتهم الصحية، وشعروا بدنو أجلهم، كانوا يصرون على اتخاذ قرارات فورية وسريعة، وخاصة هؤلاء الزعماء الذين حملوا على عاتقهم قضايا التحرر من الاستعمار، وأن رغبتهم فى الانتصار والفور واستنشاق رحيق الحرية قد جعلهم فى حالة توتر وانفلات عصبى مستمر، خشية أن يلقوا مصيرهم المحتوم قبل تحقيق آمال شعوبهم.. على عكس الجبابرة من الزعماء الذين تميزوا بالديكتاتورية طوال فترة حكمهم، فهم يصابون بحالات أشبه بالجنون كلما شعروا بدنو أجلهم..

ونقطة رابعة.. أن كل الحكام يخفون أخبارهم الصحية ويرفضون أن تتداول وسائل الإعلام تقاريراً عن حالاتهم الصحية، خاصة إذا كانت بلادهم فى مواجهة سياسية أو عسكرية مع أى دولة أخرى بالعالم، ويخشى أن يتسرب خبر مرض الحاكم فيرفع من الروح المعنوية للأعداء، ومن الناحية الأخرى يثبط من همم شعوبهم وجنودهم، ونسبة نادرة من الحكام يواجهون شعوبهم بحقيقة حالتهم الصحية ولكن نعود لنؤكد، كما سيتبين لنا فى صفحات الكتاب، أن وراء ذلك أحياناً أغراضاً سياسية أخرى أو لاستجلاب تعاطف الشعب خاصة مع مقدم الانتخابات الرئاسية.

ونقطة خامسة.. أن حكام دول العالم الثالث عادة ما يقطعون آلاف الأميال للعلاج فى المستشفيات الأمريكية والأوروبية.. ويشغلهم طوال فترة العلاج مسألة الخلافة وانتقال السلطة وهذا ما سنتوقف أمامه كثيراً فى فصول هذا الكتاب..

وأجدنى فى النهاية أقف مبهوراً أمام عظمة وصفاء «عمرو بن العاص» القائد العربى المسلم الذى فتح مصر وحررها من احتلال الرومان.. حين وهنت صحته فى السنة الثالثة والأربعين من الهجرة، وشعر بقرب وفاته بمصر، حيث كان والياً عليها وراح يستعرض حياته فى لحظات الرحيل، فقال «كنت أول أمرى كافراً.. وكنت أشد الناس على رسول الله.. فلو مت يومئذ لوجبت لى النار.. ثم بايعت رسول الله، فما كان فى الناس أحد أحب إلى منه، ولا أجل فى عينى منه، ولو سئلت أن أنعته ما استطعت، لأنى لم أكن أقدر أن أملأ عينى إجلالاً له.. فلو مت يومئذ لرجوت أن أكون من أهل الجنة.. ثم بليت بعد ذلك بالسلطان، وبأشياء لا أدرى أهى لى أم على» ثم رفع بصره إلى السماء فى ضراعة، مناجياً ربه قائلاً: «اللهم لا برئ فاعتذر، ولا عزيز فانتصر، وإلا تدركنى رحمتك أكن من الهالكين» وظل فى ضراعاته وابتهالاته حتى فاضت روحه وكانت آخر كلماته لا إله إلا الله.

رحم الله عمرو بن العاص.. القائد والزعيم والرئيس الذى اعتبر السلطان بلاء.. والسلطة اختبار.. والنفوذ حقا.. فاستحق أن يموت واسم ربه آخر كلمة ينطقها لسانه.

المؤلف

كيف يؤثر المرض على حياة الإنسان وقراره؟!

اختلفت الآراء كثيراً حول المغزى من إصابة الإنسان بالأمراض، ولماذا لم يجعل الله سبحانه وتعالى الإنسان معافاً شافياً من بداية رحلته فى الحياة، وحتى نهايتها.. والبعض يقول أن المرض نتاج طبيعي للصراع البيولوجي الموجود بين الكائنات الحية، خاصة وأنه من المعروف علمياً أن هذا الصراع يخدم فكرة البقاء للأقوى، وإلا كانت الدنيا قد ازدحمت بمليارات الكائنات منذ بداية الحياة على الأرض وحتى يومنا، وما كنا استعطنا أن نجد متنفساً للهواء فيما بيننا من زحام الكائنات التى تلد ولا تموت، وتنتظر أن تموت مرة واحدة ومجتمعة عندما يأذن الله بنهاية الحياة.. إذن فالأمراض يمكن أن تكون سبباً للموت.. ولا شك أن العلم قد أكد ذلك فى بعض الأحيان، فكل الناس يموتون بقدر الله وسلطانه العظيم وإرادته القوية، ولكن الله عز وجل يسبب الأسباب التى يمنطقها عقل الإنسان، فيكون الموت ناتجاً عن مرض أو لتوقف فجائى للوظائف الفسيولوجية التى يقوم بها أحد الأعضاء الهامة فى جسم الإنسان، فيختل ميزان الصحة، وتتوقف التروس الدائرة، فى حركة مدروسة ومنسحمة ومرتبة واحداً تلو الآخر.. وسبحان الله فإنه يقدر أن يقبض الأرواح بلا سبب وبلا برهان وبلا منطق يفهمه الإنسان.. فهو القادر على كل شيء.

والبعض الآخر قال إن المرض وسيلة عقاب إلاهية، وأنه المردود الطبيعي لأفعال الإنسان الغاشمة التى ينسى فيها ذكر ربه، فيبصق فى وجه الرحمة ويقهر الضعيف، ولا يحض على طعام المسكين، ويسير فى الأرض فساداً وفسقاً وفجوراً.

وآراء أخرى أكدت أن المرض ابتلاء واختبار لقدرة الإنسان المؤمن، وتحمله الأقدار الإلهية دون نقمة أو عصيان، أو الخروج من بوابة الإيمان إلى بوابة الكفر، وأنه وسيلة لزيادة ميزان الحسنات، وتطهير للنفوس قبل أن تلقى وجه ربها، وإستندت هذه الأراء إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام فى حديثه الذى رواه أبو هريرة «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه».

وأياً كان الدافع وراء المرض فإنه لا شك أن يكون مجالاً لإثبات إيمان الفرد وقدرته على تحمل الإبتلاء، وقياساً لدرجة الصدق فى عبوديته لله سبحانه وتعالى والذى قدر هذا

البلاء لحكمة يعلمها.. وبالتأكيد فإن المرض مهما اختلفت شدته ودرجته، فإنه يؤثر على حياة الإنسان، ويعبث فى طبيعتها، ويعد خرقاً للميزان الطبيعى، والانسجام المعتاد بين أجهزة الجسم المختلفة فى أداء عملها.. والمرض ببساطة معناه اختلال فى الوظائف الفسيولوجية فى جسم الإنسان بدون النظر إلى الأسباب التى قد تكون خارجية مثل هجوم الفيروسات والبكتريا والطفيليات على الجسم، أو داخلية كفشل الأعضاء فى أداء وظائفها الحيوية الهامة، أو تحول تركيب الخلية البشرية إلى تركيب آخر لخلية ضارة مثل الخلايا المسرطنة على سبيل المثال.

وإذا تناولنا مرضاً مثل تضخم الغدة الدرقية، وزيادة نسبة الإفراز فى هرموناتها عن المعدلات الطبيعية، لعرفنا كيف يؤثر المرض بالفعل على سلوك وتصرفات الإنسان فى حياته العامة، فالمعروف أن الغدة الدرقية موجودة فى الجزء السفلى من الرقبة وهى تفرز هرمون الثيروكسين (T4) وكميات بسيطة من هرمون التراى أيودوثيرونين (T3) ويتم صناعة ٨٥٪ من هرمون (T3) عن طريق عملية النزع الأحادى للأيودين الموجود فى هرمون الثيروكسين(T4) وذلك فى خلايا أعضاء أخرى مثل الكبد والكلى والعضلات.. وعادة فإن هرمون الثيروكسين يكون غير نشط قبل تحوله إلى هرمون (T3) ثم يدفع بالهرمونين (T3 & T4) إلى الدورة الدموية للإرتباط الكيميائى ببعض مكونات الدم والقيام بأداء وظائفها المتعددة، فى الحث على تصنيع البروتين بطريقة الاستنساخ، وفى تخضير جميع الوظائف الحيوية وإنتاج الطاقة ونمو الجسم والعظام، كما تقوم هرمونات الغدة الدرقية بدور هام فى عملية التمثيل الغذائى للمواد الكربوهيدراتية والبروتينات والفيتامينات، وأيضاً تزيد من كفاءة عضلة القلب وترفع من قوة انقباضاته، وكذلك الجهاز التنفسى والهضمى والعصبى، كما تلعب هذه الهرمونات دوراً أساسياً فى الكفاءة الجنسية عند الرجال والسيدات على حد سواء..

وأى اختلال فى نسبة هرمونات الغدة الدرقية فى الدم يصيب الإنسان بأعراض مختلفة، منها الفقدان الشديد فى الوزن وتكرار المرات التى يحتاج فيها الشخص إلى التبرز بصورة غير طبيعية، والقئ المستمر على فترات متباعدة والتلاحق السريع والمقلق فى ضربات القلب وتورم الأقدام، وضيق التنفس بما يؤدى فى النهاية إلى الشعور بعلامات قصور الشرايين التاجية، وفشل عضلة القلب فى أداء وظائفها، هذا بالإضافة إلى الآثار السلبية لهذا المرض على الجهاز العصبى والحركى، فنجد مثلاً أن مريض تضخم الغدة يكون قلقاً ومتوتراً، وكثير الانفعال وذو عاطفة متغيرة، من وقت لآخر، ويشعر بارتعاشات ملحوظة فى يده.. فلا يستطيع مثلاً أن يكتب بالقلم بثبات ودون أن تهتز يده، ونجده سريعاً فى رد فعله، ضعيفاً فى قوته العضلية، وهذا ما يحدث جنباً إلى جنب مع سلسلة أخرى من المضاعفات المؤثرة فى الجلد والعيون والجهاز التناسلى وفروة الرأس، وأظافر اليدين والقدمين وقد يؤدى أيضاً إلى حدوث بعض الأورام السرطانية.

إذن فالإنسان المصاب بزيادة فى إفراز هرمونات الغدة الدرقية، وفى حالة متأخرة يعتبر غير مؤهل لاتخاذ قرارات ذات حيثية هامة وهو يعانى من كل هذه الأثار الصحية السلبية وما ينتج عنها من إصرار نفسية بالغة.

والإنسان الذى يعانى من أمراض فى القلب، مثل قصور وانسداد الشرايين التاجية أو الاختلال فى ضربات القلب أو الضيق والارتجاع فى الصمامات الرابطة بين حجرات القلب أو فى شرايين القلب الرئيسية.. فإنه يعانى من مضاعفات جسيمة خاصة إذا تسبب المرض الأصلى مع طول الوقت وتكرار الأزمات فى حدوث فشل فى عضلة القلب (HEART FALIURE) ولا يخفى أن أمراض القلب تؤثر على كل أجهزة الجسم فى أداء وظائفها الحيوية، فلو تصورنا مثلاً أن مريضاً يعانى من تضخم شديد فى عضلة القلب مصحوب بفشل وهبوط فى وظائف القلب، فإن عضلة القلب لن تقوى على دفع الدماء إلى الشريان الأورطى ليقوم بتوزيعه على كافة أعضاء الجسم، محملاً بالأكسجين والغذاء اللازم لحياة هذه الأعضاء وقيامها بأعبائها الفسيولوجية، فنجد مثلاً أن الكليتين قد يصابا بقصور فى الدورة الدموية، ومن ثم يصبح المريض فى مواجهة جديدة مع الفشل الكلوى، و نقد تتوقف الكلى عن إفراز البول فيندفع نحو الدورة الدموية فى صورة بولينا سامة، قد تؤثر على تركيز المريض وحالة إدراكه، وقد يعقب الأمر دخوله فى غيبوبة تامة تهدد حياته.

ومريض فشل القلب المزمن تصبح كل همومه وكل مسئولياته فى الحياة منحصرة فى كيفية الحصول على جرعة الهواء، والتى تخرجه من حالة الاختناق الشديد التى يشعر بها دائماً، ويتسبب فيها عدم قدرة القلب على أداء وظائفه والاحتقان فى الأوعية الدموية والرئتين والذى يجعل التنفس أمراً بالغاً فى الصعوبة، خاصة إذا فكر هذا المريض أن ينام ويلقى بجسده مفروداً على فراشه.. فلن يستطيع أن يأخذ نفسه مطلقاً.. ومريض القلب الذى يتعرض لأزمات قلبية متكررة مثل الذبحة الصدرية، أو جلطة القلب، يعيش فى حالة من الخوف والهلع خشية حدوث هذه الأزمات التى يعرف مدى قسوة آلامها التى تشبه طعنات السكين فى قلب المريض.. بالإضافة إلى إحساسه فى كل مرة تعاوده الأزمة بأنه بين الحياة والموت.. وأن القلب عضو واحد فى جسم الإنسان لا بديل له.. ولا مثيل.. وزراعته من جديد فى الجسم امرا فى غاية الصعوبة والتعقيد.

فالإنسان لا يستطيع أن يفكر أو يدرك أو يقرر وهو يعيش فى حالة حرب دائمة مع المرض الذى يحاول فى كل لحظة أن يغتاله إذا غفل عنه لحظة واحدة.

وهناك أمراض أخرى كثيرة تلقى بانعكاساتها على إدراك الإنسان، وحسن قراراته، خاصة إذا كانت هذه الأمراض تتعلق بالمخ ووظائفه.. مثل قصور الدورة الدموية بالمخ، والذى يتسبب فى عدمّ وصول الدم المحمل بالأكسجيس إلى خلايا المخ بالصورة الطبيعية وهو الأمر الذى يؤثر بالفعل على الوظائف الفسيولوجية لمراكز المخ المتعددة فتتأثر بالتبعية أعضاء

الجسم المختلفة.

وقد يصاب الإنسان بمرض مثل «الزهايمر»، وهو مرض يفقد فيه الشخص ذاكرته، ولا يستطيع أن يعرف حتى أفراد أسرته.. أو أصدقائه أو أقرب المقربين إليه، وينسى تماماً تركيبتهم الإنسانية وحوائجهم، ونفسياتهم، وإذا ما اتخذ قراراً بشأنهم فقد يشوبه الكثير من الخلل وتعيبه الدقة وتحيد عنه المسئولية.

والمرضى النفسيون.. هم أبعد ما يكونوا عن الصواب فى اتخاذ قراراتهم والسبب فى ذلك، أنهم يصيروا فى حالة عقلية غير سوية، تتدرج شدتها من مرض نفسى إلى آخر.. ومن حالة مرضية إلى حالة أخرى.. ومن تركيبة الشخصية إلى تركيبة أخرى.. ولكن الملفت للنظر أن المرضى النفسيين لايلقوا الرعاية والعلاج السليم.. وليسوا كلهم نزلاء فى المصحات ومستشفيات الأمراض العقلية.. بل إن نسبة قليلة جداً منهم هى التى تعيش خلف أسوار هذه المستشفيات.، ونسبة كبيرة من المرضى النفسيين تعيش بين الناس، ونراهم كل يوم فى مجتمعاتنا بشخصياتهم الغير سوية، وللأسف فإن بعضاً منهم يكون مسئولاً ومتحكماً فى مصائر العشرات والمئات.

نعم.. فهناك الكثير من المرضى النفسيين.. يتخذون القرارات ويوقعون على الأوامر.. وبالطبع تتحكم فى دوافعهم خلفيتهم النفسية المريضة وشخصيتهم البعيدة عن السواء الطبيعى.

وكثير من الناس الذين يعيشون معنا فى بيئة واحدة، ويزاملوننا فى العمل ويسيرون بجوارنا فى الطرق، مصابين بالإكتئاب الشديد.. ولكنهم يمارسون أعمالهم من خلف قضبان المرض النفسى حفاظاً على لقمة العيش وهم يعانون من آثار الإكتئاب البالغة فى تعقيدها وتركيبها.. فهم يشعرون بالإرهاق والصداع المستمر وألام بالصدر والبطن ونقص شديد فى الوزن، ويشكون من الإمساك وقلة التركيز وفقدان الشهوة الجنسية والعجز الجنسى، وقلة النوم والإحباط العام طول اليوم.. وقد يصل بهم الأمر إلى حد الانتحار.. ومع ذلك نراهم يدورون فى الساقية، ويمارسون أعمالهم، ويأخذون قراراتهم النابعة من شخصيتهم المحبطة.. ولكن يبقى أن نقول إن كل منهم يؤثر فيه المرض حسب شدته ووفقاً لمعايير شخصيته وقوامها وبنيانها..

هذا ما قد يحدث مع العامة..؟!

ولكن ماذا لو كان الأمر مرتبطاً بالشخصيات العامة والزعماء والقادة ورؤساء الدول؟!.

فالرئيس جمال عبد الناصر كان مصاباً بالقلب والسكر وفى أواخر أيامه لم يكن يستطيع الوقوف على قدمه، والرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت.. أحد أعظم ثلاثة رؤساء

حكموا أمريكا، كان مقعداً ومصاباً بالشلل، ويحكم هذه الدولة القوية من مقعده المتحرك، وشاه إيران محمد رضا بهلوى كان يعالج من السرطان، وكانت له تركيبة نفسية تحتاج كثيراً إلى التوقف أمامها بالفحص والدرس.. والعاهل الأردنى الملك حسين بن طلال.. الذى أخذ أخطر قرارات حكمه على الإطلاق وهو فى مرحلة الاحتضار معانياً من سرطان الغدد الليمفاوية.. وغيرهم وغيرهم كثيرون.. ولكن المشكلة أن هؤلاء ليسوا مثل العامة.. فالعامة من المرضى قراراتهم تؤثر فى مجموعات بسيطة من الناس الذين يقعون تحت سيطرتهم فى العمل أو فى الحياة الاجتماعية، أما الزعماء والرؤساء فإن قراراتهم تؤثر فى الشعوب والممالك والأمم، ترسم المستقبل بحلوه ومره..، وتصنع الأمجاد أو توئد الأحلام.

ولا جدال فى أن أمراض الزعماء قد شغلت حيزاً كبيراً من تفكيرهم.. بل أثرت على قوة تركيزهم وقدرتهم فى اتخاذ القرارات، ولكن يبقى الوضع السياسى وظروف الحكم ورغبة الحكام والرؤساء فى أن تظل أخبارهم الصحية طى الكتمان.. حائلاً دون الاعتراف بمدى تأثير المرض على قرارات الزعماء، ولكن التاريخ لاتقف أمامه حوائل وقوة العلم والبحث والدراسة لا تعادلها قوة.. وسيبقى الزعماء والقادة عرضة للتشريح السياسى والاجتماعى والاقتصادى والصحى حتى بعد موتهم، فهذه هى ضريبة الحكم والقيادة والزعامة.

ooo

الرئيس جمال عبدالناصر
«الرجل الذى إحترق»

جمال عبدالناصر .. زعيم وطنى بكل ماتحمله الكلمة من معانى، قاد شعبه للثورة ضد قوى الاستعمار البريطانى الذى جثم على أنفاس البلاد مايقرب من سبعين عاما، وأطاح بملك مصر «فاروق الأول» الذى ورث عن أباءه وأجداده قلبا يخشع للعلم البريطانى، ويتواطأ مع الاستعمار الذى يأكل ويسلب خيرات الشعب، وأعدى أعداء عبدالناصر لايعتريهم الشك ولايمكن أن ينكروا إنحيازه الكامل للفقراء والمطحونين، بل كانوا يتهمونه دائما بالحقد على الأغنياء، ويعزون سياساته إلى هذا الحقد الذى يتصورونه، ولم يكن عبدالناصر حاقدا، ولكنه كان ينظر إلى الغنى الفاحش وسط الفقر المدقع على أنه جريمة لاتغتفر، وهذا ماجعله مصمما على تذويب الفوارق بين الطبقات، ولقد ألزم نفسه بمبادئ صارمة لاجدال فيها .. أن لايملك أرضا أو عقاراً، لأنه كان يرى أن الملكية هى تجسيد عملى للامتياز الطبقى، ولم يكن ضد الملكية كمبدأ، ولكنه كان ضد تجاوز الحدود فيها فى مجتمع أغلبيته الساحقة من المعدمين، وكانت وجهة نظره أن الحاكم لايجوز له أن يملك الأفدنة والعقارات، لأنه بذلك يفقد قدرته على التعبير عن مصالح الأغلبية، ويجد نفسه ـ مهما حسنت نواياه ـ يعبر عن مصالح الأقلية .. وكل الذين خالطوا عبدالناصر، وكل ماكتب عنه فى مصر أو فى العالم، يؤكد أن الرجل لم تكن له شهوة فى طعام أو شراب، وكان أفخر الطعام عنده لحما وأرزا وخضارا وكان الفول المدمس والجبنة القريش هى الأطباق المفضلة على مائدة إفطاره اليومية، وكان نهاره وليله عملاً متواصلاً، أما الترف فى حياته فلم يكن أكثر من الاستماع لتسجيل أغنية من أغانى أم كلثوم فى مكتبه أثناء قيامه بمهام عمله، فيجعل صوتها يصدر خافتا كخلفية لجو العمل، وإذا شعر بشئ من الضيق ذهب إلى قاعة السينما فى بيته ليشاهد فيلما قبل أن يأوى إلى فراشه ..

والرئيس عبدالناصر كان يعيش عيشة تقليدية وبسيطة، ولم يكن يسمح لأحد من أبنائه أن يخرج عن أسلوبه ونمطه فى الحياة، ويوم رحل عبدالناصر كان كل ما تركه أربعة آلاف جنيه فقط، ألف، وخمسمائة منها قيمة بوليصة تأمين على حياته، عقدها قبل ذهابه إلى حرب فلسطين، وحسابا باسمه فى بنك مصر، كان رصيده ألفين وأربعمائة جنيه، وفى مقابل ذلك كان مدينا بما يقرب من ستة وعشرين ألف جنيه، بقيت عليه من تكاليف بناء بيتين لكل واحدة من بناته بيتا تسكن فيه عند زواجها، وكان قد تردد فى هذا الأمر طويلا ثم عزم عليه مدفوعاً بعاطفة قوية نحو أسرته التى كان يشعر تجاهها بالتقصير، وكان يريد من زوجته

وأولاده أن يعرفوا أن انشغاله عنهم خارج عن إرادته.. وكانت ابنة عبدالناصر الكبرى هدى تعمل في سكرتاريته بمرتب قدره ستة وثلاثون جنيها، وكان قرينها حاتم صادق يعمل في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام بمرتب قدره مائة جنيه، وكانت ابنته الثانية منى تعمل فى دار المعارف المملوكة للأهرام بمرتب قدره ثلاثون جنيها وكان زوجها أشرف مروان يعمل في سكرتارية الرئيس للمعلومات موظفا فى الدرجة السادسة بمرتب قدره اثنان وثلاثون جنيها في الشهر..

وكان منطق سيادة القانون مبدءا هاما فى شخصية عبدالناصر، فهو لم يتدخل فى حياته فى حكم من أحكام القضاء وكان لديه إحساس عميق بقدسية العدل، وهو إحساس أصيل فى المجتمع المصرى بحكم التكوين الحضارى لشعب استقرت حياته فى بيئة زراعية، ترسخت فيها فكرة الاحتكام إلى قانون القضاء..

ويذكر الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل أن الرئيس عبدالناصر جاءه بخطاب مكتوب من «الملك سعود» يرجوه فيه أن يتدخل لكى تحصل السيدة «ناريمان» ملكة مصر السابقة على الطلاق من زوجها «الدكتور أدهم النقيب»، وكانت «ناريمان» قد لجأت إلى الملك، وكان النزاع بين الزوجين يدور فى قضية أمام محاكم الأحوال الشخصية فى مصر، وصلت إلى حد أن طلب الزوج زوجته فى بيت الطاعة، واستصدر حكما قضائيا فيما طلب، وعرض الرئيس جمال عبدالناصر الخطاب الموقع من الملك سعود على الأستاذ هيكل وهو يقول له: إننى أريد أن أجامل الرجل فى أى شئ يطلبه منى، ولكنه قصدنى حيث لا أستطيع أن أجيب طلبه، ولا أعرف كيف أرد عليه، وهل يصدقنى إذا قلت له أننى لا أستطيع أن أتدخل فى أعمال محكمة شرعية؟ وكيف أتدخل؟..

كل ذلك يؤكد لنا كيف أن الرئيس جمال عبدالناصر كان شخصية إنسانية من الطراز الأول، ولها كل مقومات الزعامة والقيادة، وأنه كان بمثابة الرمز ليس فقط فى مصر، ولكن لكل حركات التحرر فى العالم العربى والشرق الأوسط بل فى العالم كله.. وسواء نتفق معه أو نختلف فى بعض قراراته، فإن كثيراً من المحللين السياسيين والخبراء فى الدوائر السياسية قد أعزوا سلبيات عبدالناصر في بعض فترات حكمه إلى الكثير من الضغوط السياسية الداخلية والخارجية، والتى كانت تحيط بحكم عبدالناصر.. إلا أننى أرجو من القارئ أن يتقبل وجهة النظر الجديدة فى التحليل السياسي لفترات حكم الزعماء واتخاذهم قرارات مصيرية كثيرة ومعقدة سواء كانت هذه القرارات ضد أو مع مصالح ومشاعر الجماهير ومواطن الشعوب.. إذ يجب ألا نغفل بأى حال من الأحوال الحالة الصحية والمرضية للزعماء وقت استصدار قراراتهم الهامة وإدارتهم لشئون البلاد وهذا ماسنتعرض له بداية بالرئيس عبدالناصر..

عبدالناصر مريضاً

عاش الرئيس جمال عبد الناصر صراعا طويلا مع المرض، والذى هاجمه فجأة فى نهاية عام ١٩٥٨، حيث كان يجرى الرئيس تحليلاً روتينا للبول ولأول مرة تم اكتشاف وجود نسبة من السكر في بول الرئيس عبدالناصر، وأنه أصبح مصابا بمرض السكر.. والمعروف أنه بين كل عشرة مصريين يوجد مصرى مصابا بمرض السكر، أو «السكرى» كما تصح تسميته العلمية، وعندما يتناول الإنسان العادى الطعام اليومى الذى يحتوى على مواد نشوية وسكرية وبروتينية فإن غدة البنكرياس تقوم بإفراز هرمون الإنسولين الذى يتعامل مع المواد السكرية فى كافة أنواع الطعام ،ويتولى إحراق الكمية الزائدة عن احتياج جسم الإنسان.. وفى حالة عدم وجود الإنسولين أو قلة إفرازه فإن هذه المواد السكرية تنطلق إلى الدم الذى يتشبع بها، فيطردها فى البول، ويجد الإنسان نفسه كثير التبول، ويشعر بالعطش وجفاف الحلق مما يضطره لشرب كميات كبيرة من الماء لتعويض البول المفقود وهذا مايعرف بمرض «البول السكرى».

وقد اكتشف الدكتور أحمد ثروت الطبيب المرافق للرئيس عبدالناصر هذا الأمر فى التحليلات المعملية الروتينية التى كانت تجرى للرئيس باستمرار، وقتها كان جمال عبد الناصر فى الأربعين من عمره، وكان فى قمة انتصاراته بعد معركة السويس عام ١٩٥٦، وبعد إعلان الوحدة مع سوريا وقيامه بالزيارة التاريخية إلى دمشق والتى استقبل فيها استقبالا لم ولن يره أى زعيم آخر في أى بقعة من بقاع العالم، وفى أى حقبة من حقب التاريخ، وقد بلغ هذا الاستقبال مداه إلى الحد الذى حملت فيه الجماهير السورية السيارة التى كانت تقل عبدالناصر، وهو مشهد عاش طويلا فى فكره وذاكرته.. ورشح الفريق طبيب رفاعي كامل رئيس القسم الطبى للقوات الجوية والمسئول عن متابعة الحالة الصحية للمشير عبدالحكيم عامر الدكتور أنور المفتى أستاذ الأمراض الباطنية والسكر بالقصر العينى لمتابعة حالة الرئيس الصحية وضبط نسبة السكر فى دمه، وبدأ الدكتور المفتى فى بحث الأسباب التى أدت إلى أصابة الرئيس عبدالناصر بمرض السكر، ولم يجد أسباباً علمية وطبية واضحة، وربما أرجع الفريق الطبى المعالج للرئيس أسباب المرض إلى الوراثة.. ولم يكن والد عبدالناصر أو والدته من مرضى السكر، فقد مات الأب فى ٣٠ سبتمبر عام ١٩٦٨، عن عمر يناهز الثمانين عاما، وهو فى حالة صحية جيدة إلى حد ما.. ولكن أكتشف أن أحد أعمام الرئيس عبدالناصر مصاب بمرض السكر، وأن عبدالناصر وأخيه الليثى كانا الوحيدين من بين أربعة أخوة أصيبا بالسكرى.. ولم تنجح الأقراص المنشطة لغدة البنكرياس فى ضبط نسبة السكر، فمن الثابت علميا أنه يصعب علاج مرض السكر بالأقراص لمن أصيبوا به دون سن الأربعين، فما كان من بد أمام الدكتور المفتى إلا باستخدام حقن الإنسولين فى محاولة للسيطرة على ارتفاع نسبة السكر.. وكان الدكتور أحمد ثروت يقوم بإعطاء الرئيس عبدالناصر حقنة

الإنسولين صباح كل يوم قبل الافطار، ونجح الدكتور أنور المفتي في ضبط نسبة السكر بالدم عند عبدالناصر، ومن أهم الملاحظات التي لاحظها على عبدالناصر أنه كان ملتزما بتعليمات العلاج ولم يعانى من عدم التزام الرئيس بنظام غذائى معين خاص بمرض السكر، فقد كان عبدالناصر بطبيعته غير نهم ولا شره فى الطعام، وكانت أحب الأكلات إليه الجبنة البيضاء القريش مع الخبز الناشف، وكان إفطاره عباره عن الفول المدمس والخبز والجبنة البيضاء، وطعام الغذاء مكون من خضروات وقطعة صغيرة من اللحم إلى جانب الخبز والعشاء من الجبنة البيضاء والفاكهة واستمر الوضع هكذا قرابة العامين إلى أن جرت أحداث انفصال سوريا عن الوحدة مع مصر فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦١، وشعر عبدالناصر بجرح الانفصال ينفذ إلى قلبه وروحه، وأن آمالا كثيرة قد تحطمت على صخرة هذا القرار السورى المنفرد، خاصة وأن سوريا هى التى سعت إلى هذه الوحدة مع مصر لتعالج كثيراً من المشاكل والصراعات التى كانت تتعرض لها فى هذا الوقت، وبالطبع ترك ذلك آثارا نفسية سيئة لدى عبدالناصر ساعدت علي تذبذب منحنى السكر.. وفكر المشير عبدالحكيم عامر في استدعاء طبيب متخصص فى الأمراض النفسية من إحدى الدول الأوروبية ليخرج عبدالناصر من عزلته النفسية.. وحتى لايتسرب هذا الخبر فقد رأى المشير عامر إحضار هذا الطبيب من إحدى الدول الصغيرة التى ليست لها اهتمامات أو قضايا خاصة مع مصر حتي لايسهل تتبع هذه الأخبار من قبل أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية، ووقع بالفعل الاختيار على طبيب نرويجى، وحسب كلام الدكتور رفاعى كامل للمؤرخ العسكرى جمال حماد فى أحد اللقاءات الصحفية، أن الرئيس عبدالناصر لم يكن يعلم تخصص الطبيب النرويجى، وأنه تم ترتيب عدة لقاءات له مع الرئيس، وبعدها كتب تقريرا مفصلا وطويلا عن حالة عبدالناصر النفسية، زعم فيه أنه مصاب «بالبارانويا» وهو مرض يتمسك المصاب به بأفكار خاطئة ضد المنطق وخارجة عن حدود العقل، ويصر على تنفيذها مهما كانت النتائج والعواقب وأنه يجب على الرئيس ان يقوم براحة تامة، وأن يبتعد عن إدارة شئون البلاد، وإصدار القرارات الهامة، وقد قرأ الدكتور أنور المفتى هذا التقرير ويقال أنه أدلى به لبعض زملائه من الأطباء مما أدى إلى تسرب أخبار زيارة الطبيب النرويجى، وتفاصيل تقريره، وهو ما كان متعلقا بالأمن القومى المصري.. وبعدها بفترة بسيطة مات الدكتور أنور المفتي، وقيل أنه مات مقتولا بالسم الذى تم دسه فى أحد أكواب عصير الجوافة.. الذى شربه فى مكتب رئيس المخابرات..

ولكن هذه القصة ينفيها بشدة كثير من المحللين السياسيين والمؤرخين الذين تناولوا بالفحص والدرس حياة الرئيس جمال عبدالناصر، مستندين على عدة أسباب هامة يأتى فى مقدمتها أن إصابة الرئيس «بالبارانويا» لم يشير إليها أى مصدر من المصادر الأجنبية التى تناولت حياته، وأن الرئيس عندما شكا من إلتهاب حاد بالجيوب الأنفية قام بعلاجه الدكتور على المفتى شقيق الدكتور أنور المفتى، وليس من المعقول ولا البديهى أن يتم استدعاء شقيق طبيب تم قتله بالسم عقابا له على إفشاء أسرار هامة تخص الرئيس، ليعالج الرئيس نفسه من شكوى

مرضية أخرى، وليس طبيعياً أن تصل سذاجة أجهزة المخابرات إلى هذا الحد من البلاهة والتخلف فى مسألة تأمين حياة الرئيس.. وسبب آخر يرجع إليه المحللون لإثبات ضعف حقيقة أن الرئيس كان مصابا بالبارانويا وهو أنه لم يحدث مطلقا فى قمة الصراع بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر أن الأخير قد استخدم تقرير الطبيب النرويجى، أو أشار إليه خاصة بعد سلسلة الاتهامات التى أحاطت عبدالحكيم عامر بعد نكسة ١٩٦٧..

ولكن السبب الأخير لايرقى من وجهة نظرى الشخصية إلى مستوى الاعتداد به، إذ يمكن للرئيس عبدالناصر أن ينكر هذا التقرير تماماً خاصة وأن الاتجاه الشعبى والرأى العام كله كان ضد عبدالحكيم عامر الذى كان متهماً بالتقصير فى إعداد القوة العسكرية المصرية لمثل هذه المواجهة التى نتجت عنها نكسة يونيو ٦٧، كما أنه لم يكن معتاداً أن يتداول القادة فيما بينهم من معارك شخصية الأسرار التى تمس كل منهم إذ أنها فى النهاية ستعود على النظام كله بالوبال والسخط خاصة وأن الرئيس عبدالناصر كان رمزاً وزعيماً للثورة، التى كان المشير عامر أحد رجالها وقادتها..

وبعد ثلاثة شهور من وفاة الدكتور أنور المفتى استدعى الدكتور أحمد ثروت الطبيب المرافق للرئيس جمال عبدالناصر الأستاذ الدكتور منصور فايز أستاذ الأمراض الباطنية والسكر بالقصر العينى لمتابعة علاج الرئيس وحالته الصحية، والوقوف على أخبار منحنى السكر.. وكان الدكتور منصور يزور الرئيس من مرتين إلى ثلاثة فى الأسبوع ما لم يتم استدعائه.. وحدث بعض التنظيم والتدقيق فى متابعة التطور المرضى للرئيس عبدالناصر حيث ظل الدكتور أحمد ثروت مرافقا للرئيس بصفة يومية، ويقوم باعطائه حقنة الإنسولين قبل الإفطار اليومى، ويقوم الدكتور صلاح جبر أخصائى التحاليل الطبية بعمل تحليل بول يومى لمتابعة تطورات السكر ومضاعفاته عند عبدالناصر.. ثم اتفق على أن يزور الدكتور ناصح أمين أستاذ التحاليل الطبية المعروف الرئيس عبدالناصر مرة كل أسبوع ليقوم بعمل تحليل شامل لوظائف أجهزة الجسم المختلفة.. وبذلك وضع الرئيس جمال عبدالناصر تحت السيطرة الطبيه الكاملة..

ولكن المرض لم يترك وقتاً للراحة فى حياة الزعيم الثائر جمال عبدالناصر، فقد اشتدت عليه أعراضه.. ودخل فصلاً جديداً وقاسياً من فصول المعاناة والألم.. خاصة بعد نكسة يونيو ٦٧ والتى شعر فيها بخيبة أمل شديدة وحالة من الإحباط العام الذى ساد الشارع المصرى والعربى فى ذلك الوقت، إلى الحد الذى رفض فيه الشعب المصرى قرار عبدالناصر بالتنحى عن السلطة، وطالبه بتحمل المسئولية وإعداد الجيش من جديد لمواجهة عسكرية حاسمة مع إسرائيل.. وقد أثر كل ذلك على الحالة الصحية للرئيس ففى ١٣ يوليو ١٩٦٧ شعر عبدالناصر لأول مرة بآلام شديدة فى ساقة اليمنى إلى الحد الذى كان لايستطيع معها أن يقف على ساقيه لفترات طويلة.. وظن الرئيس فى البداية إنها نوع من الروماتيزم، وخضع

لعلاج مكثف من المسكنات، ومضادات الإلتهاب التى وصفها له الأطباء المصريون ولكن دون جدوى.. إلى أن تقرر استدعاء أحد الأطباء الأجانب المتخصصين لمناظرة الرئيس، ولكن الرئيس جمال عبدالناصر كان يضيق ذرعاً بالأطباء الأجانب، ويرى أنه من السهل عليهم تسريب أخبار مرضه إلى أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية والتى يمكن أن يستغلوها لبث روح الإحباط فى نفوس الشعب المصرى حين يعرف أفراد الشعب أن رئيسهم الذى يعقدون عليه الآمال والأحلام مريضاً وضعيفاً.. ولكن آلام عبدالناصر جعلته يقتنع باستدعاء اثنين من الأطباء العالميين وهما الدانمركى بولسون والألمانى الغربى ڤيڤر، والإثنان من أفضل أخصائى علاج السكر ومضاعفاته فى العالم، وقد اتفقوا فى تشخيصهم مع آراء الأطباء المصريين وسياستهم العلاجية التى انتهجوها.. وكان من أبرز المهتمين بصحة الرئيس جمال عبدالناصر السفير حسن التهامى سفير مصر فى ڤيينا، والذى أرسل إلى الرئيس يؤكد ضرورة عرضه على طبيب نمساوى اسمه چيستر براند، وكان قد عالج الملك سعود من آلام شديدة فى الساقين.. ورغم معارضة عبدالناصر فى النهاية لنفس أسباب حساسيته من الأطباء الأجانب.، فقد وافق على مضض، وقام الدكتور منصور فايز بترتيب هذا اللقاء فى القاهرة وانتهى الدكتور چيستر إلى تشخيص مختلف تماماً عما توصل إليه الأطباء المصريون والأجانب من قبل، وهو أن أسباب آلام عبدالناصر تعود إلى التهاب شديد بالأعصاب كمضاعفات طبيعية لمرض السكر، وعلى الفور تم استدعاء أستاذ نرويجى وهو من أكبر أخصائىّ التهاب الأعصاب فى العالم لفحص عبدالناصر فى ضوء توصية النمساوى چيستر براند، ولكن المفاجأة كانت أكثر قسوة على الرئيس الذى كانت تطارده الآلام ليلاً ونهاراً بعد أن أكد له الأستاذ النرويجى أن الأعصاب سليمة وأنها بريئة من آلام الساقين التى تقلق راحته وتشتت تركيزه، وصار الأمر أكثر تعقيداً ولكن السفير حسن التهامى لم ييأس، وعاود الاتصال بعبدالناصر وأقنعه أن الملك سعود كان يتعرض لنفس الآلام التى تصيبه، وأن الفريق الطبى النمساوى هو الذى وضع حداً لشكوى الملك سعود الصحية، وأمام إصرار حسن التهامى طلب عبدالناصر من الدكتور منصور فايز أن يسافر بنفسه إلى ڤيينا ليدرس الأمر مع الأطباء المعالجين للملك سعود، وليضع حداً لما يتعرض إليه من معاناة وضغوط صحية.. ولكن لم تستطع كل هذه المحاولات أن تضع حداً أو نهاية لآلام الزعيم..

ومع بدايات عام ١٩٦٨، اقترب الرئيس عبدالناصر من الثانية والخمسين من عمره وتلاحظ عليه أنه كان يجر ساقيه جراً إذا أقدم على السير لمسافات قصيرة أو طويلة، وفى هذه الفترة كانت حرب الاستنزاف على أشدها وإعادة ترتيب البيت العسكرى والقوة العسكرية المصرية هى الشغل الشاغل لعبدالناصر.. وكان لزاماً عليه أن يقوم بجولات كثيرة لزيارة الفرق العسكرية وكتائب الجنود ومواقع القتال فى ميدان المعركة.. وكانت آلام ساقيه المبرحة لاتفارقه ولكن جسارة عبدالناصر كانت أقوى من أى آلام.. وقوة احتماله فوق حدود

تصور العقل.. إلى أن جاء اليوم الذى شعر فيه عبدالناصر برصاصات من اللهب فى ساقه اليمنى.. وبالفعل بدأ يعجز عن السير.. وكان القرار الحاسم بالسفر إلى الاتحاد السوفييتى للعلاج..

عبدالناصر يُعالج فى الاتحاد السوفييتى

كان عبدالناصر قد بدأ يشعر بالآلام حتى لدى الجلوس بلا حركة، وكانت الآلام فى باطن القدمين، ثم بدأت تظهر فى الفخذين أيضا مع شعور بالتنميل فى القدمين، وظهرت على الأصابع بوادر الغرغرينا وعلامات الأصابات فى البشرة وبدأت الاستعدادات للسفر إلى الاتحاد السوفييتى بعد أن تأكد الرئيس أنه لابد وأن ينتقل للعلاج فى الخارج، حيث تتوفر إمكانات أدق وأكثر للتشخيص والعلاج السليم، ولم يكن عبدالناصر يميل بالقطع ـ كما ذكرت من قبل ـ إلى الأطباء الأمريكيين أو الأوروبيين فى نفس الوقت الذى كانت تربطه بالاتحاد السوفييتى علاقات وثيقة وقوية.. ولذا تقرر السفر إلى الاتحاد السوفييتى..

وفى يوليو ١٩٦٨، اتصل الرئيس السوفييتى بريجنيف برئيس المخابرات السوفيتية «كى.جى.بى» يورى أندروبوف يطلب منه التحدث مع وزير الصحة البروفسور يفجينى تشازوف كبير أطباء الكرملين وطبيب القلب العالمى ذائع الصيت لبحث علاج الرئيس جمال عبدالناصر فى الاتحاد السوفييتى مع المحافظة على إبقاء الأمر فى طى الكتمان، وعلى الفور تحدث أندروبوف مع البروفسور تشازوف ليطلب منه بحث علاج شخصية صديقة أصبحت فى وضع صحى مترد للغاية، ولم يذكر له حقيقة هذه الشخصية، أو يكشف الستار عنها، ولكنه ألمح له إلى وجود أورام بالمسالك البولية، وأن هناك وفد من الأطباء المعالجين لهذه الشخصية سيصل إلى موسكو عاجلاً لدراسة إمكانية علاجها فى الاتحاد السوفييتى. ولم تمر أيام قليلة حتى كان هناك اجتماعاً يضم كبار الأطباء المعالجين لعبدالناصر فى مصر والبروفسور تشازوف وزير الصحة والجراح السوفييتى «مايات» وأخصائى المسالك البولية «ابرا ميان» بالإضافة إلى أندروبوف وبعد خمس دقائق فقط تأكد أن الأمر لايتعلق بأورام فى المسالك البولية وانسحب الطبيبان مايات وابراميان وبدأ الأطباء المصريون فى وصف الحالة المرضية والأعراض التى يشكو منها الرئيس عبدالناصر فى قدميه بالاضافة إلى أنه فقد أكثر من ١٥ كجم من وزنه وبدأ يجر ساقيه أثناء سيره، وثبت معاناته من اختلال فسيولوجى فى تمثيل الشحوم والسكريات وأنه واصل على مدى أعوام طويلة وكثيرة تدخين أنواع من السجائر قوية المفعول مثل «كاميل» و«كرافن» و«كنت» و«إل.إم»، كما أكد الأطباء المصريون أنه لم تظهر على الرئيس بوادر الإصابة بقصور فى الشرايين التاجية بالقلب.

وبعد فترة بسيطة من فحص الملف الصحي للرئيس ثبت بالفعل كما ذكرت عدم الاشتباه في وجود أي أورام، وإنما هناك احتمال قوي بأن الأعراض التي يشكو منها عبدالناصر تتفق مع أعراض الإصابة بتجلط الأوعية الدموية مع بدء اختلال الدورة الدموية فيها.. وطلب تشازوف أن يفحص الرئيس عبدالناصر بنفسه ولكن الأطباء المصريين رفضوا هذه الفكرة خوفا من تسرب أي نبأ عن مرض الرئيس وأمام إصرار تشازوف الذي صمم على فحص المريض بنفسه كان لابد من إبلاغ ذلك إلى الرئيس عبدالناصر شخصياً الذي وافق على الفور وطار في رحلته العلاجية إلى موسكو وسط تكتم شديد بأخبار هذه الرحلة وأسبابها.

وفي صباح ٦ يوليو ١٩٦٨، كان لقاء يفجيني تشازوف كبير أطباء الكرملين مع الرئيس عبدالناصر الذي كان يرافقه أنور السادات، وقد بدا الرئيس متعباً وعليلاً وليس في وزنه الطبيعي ويقول تشازوف في مذكراته: «أن عبدالناصر كان رجلاً بسيطاً ولكن هيبته غير عادية وبعد ١٥ دقيقة فقط من الجلوس معه والتحدث إليه عرفت أنه غير متكلف ويبدو كشخص عادي» وبدأ يشكو إلى تشازوف آلامه الفظيعة في الساقين والفخذين والتي كانت تعذبه طوال الساعات الخمس التي قضاها محلقاً في الجو من القاهرة إلى موسكو وأنه تحمل الكثير على نفسه ليستطيع أن يتفقد بعض الوحدات العسكرية في أرض المعركة، ولكنه لم يكن قادراً على المشي بصورة طبيعية، ورفض أن يتعلل بأي أسباب لينهي زيارته للوحدات العسكرية مبكراً حتى لايشتبه أحد في أنه مريض.. وشرح الرئيس عبدالناصر إلى تشازوف كيف كانت معاناته في الطائرة إلى الحد الذي لم يجعله يناقش أي قضية مع ياسر عرفات الذي كان يطير إلى موسكو لأول مرة على طائرة عبدالناصر بهدف الاجتماع مع القادة السوفييت.

ويقول يفجيني تشازوف بعد أن فحص عبدالناصر فحصاً إكلينيكياً: «كان أول طلب أطلبه منه هو إمتناعه عن التدخين، فاستدعى مرافقه على الفور وأعطاه علبة السجائر التي كانت ملقاة على الطاولة والولاعة وأمره قائلا: يجب ألا تبقى قريباً مني وتذكر أنني لا أدخن منذ اليوم، وقال لي: لو كان الأمر يتعلق بي فقط لتحملت لكن المسألة تمس مصر أيضاً».

وتم عمل الفحوص والأبحاث والتحاليل اللازمة، وتأكد بعد ظهور نتائجها أن هناك تجلطاً في الأوعية الدموية في الساقين، ونوقش الخيار الجراحي كعلاج سريع وحاسم لإزالة الجلطة، ولكن بعد مداولات الأطباء المصريون والسوفييت تأكدوا أن الجراحة لن تؤتي ثمارها لأن التجلط يشمل الأوعية الطرفية للساقين وأن التدخل الجراحي لن يعطي التأثير المطلوب وبقيت أمام الأطباء الأساليب العادية والتقليدية في العلاج، وأجرى للرئيس عبدالناصر مزيداً من الأبحاث الطبية وفي نهاية المطاف تم الموافقة على أن تعالج جلطة الساقين باستخدام المياه المعدنية في مدينة «سخالطوبو» بجورجيا والتي اعطت في بعض الحالات المماثلة تأثيراً طيباً، ووافق الرئيس جمال عبدالناصر على هذا الاقتراح ووعد تشازوف بأنه بعد عودته إلى

مصر سيبحث مع قيادة البلاد ومجلس الشعب مسألة الاستجمام ثم العودة إلى «سخالطوبو» للعلاج، وأمر الرئيس بريجينيف بأنه يحب عمل كل شئ من أجل استعادة صحة عبدالناصر، إذ لاتوجد في الشرق الأوسط شخصية أخرى قادرة على أن توحد العرب فى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وإذا ما غادر عبدالناصر المسرح السياسى، فإن هذا سيشكل ضربة كبيرة لمصالح الاتحاد السوفييتى والدول العربية مجتمعه.

وعاد عبدالناصر إلى مصر.. ومالبث أن قضى فترة بسيطة وبعدها توجه إلى «سخالطوبو» للعلاج بالمياه المعدنية.. وكان يقضى وقته إما فى العلاج بالاستحمام فى حوض كبير، يرجع وجوده إلى عهد ستالين أو بقضاء النزهات البسيطة فى المكان المخصص لإقامته..

واحتفى به بريجينيف بما يليق بمكانة عبدالناصر وأهميته كزعيم عربى وقومى لدى الاتحاد السوفييتى، فكانت تقام له يومياً فى مقر إقامته الحفلات الموسيقية الراقية وتقدم له أشهى الوجبات، كما كان يتردد على صالونه كبار الفنانين والمثقفين السوفييت، وحدث تقدم فى حالته الصحية وشفى باستخدام حمامات الرادون، وتفتحت الأوعية الدموية فى سيقانه، وكان هذا أمر مستحيلاً لإصابته بالسكر الذى يتسبب فى تصلب الشرايين وتجلط الدم بداخلها.. وكان تشازوف يعلم أن تجلط الدم سيتواصل، وربما يصل إلى القلب والدماغ، لذا أعطى تعليماته المتشددة للرئيس عبدالناصر بضرورة الالتزام بنظام غذائى معين والإبتعاد عن الإجهاد المفرط والهزات الانفعالية والعصبية.. واتفق تشازوف مع الرئيس على زيارة مصر بعد ٣ أشهر بحجة السياحة والاستجمام على رأس وفد طبى رفيع لتقييم الآثار اللاحقة للعلاج والوضع الصحى وارتباطه بأى تطورات مرضية جديدة، وإعطاء توجيهات بشأن مواصلة العلاج.. واقترح وزير الصحة السوفييتى على الرئيس أن يراقب حالته الصحية فى القاهرة إلى جانب الأطباء المصريين طبيب سوفييتى يدعى «تولبين» الذى كان ينال ثقة الرئيس عبدالناصر، ولكن الرئيس رفض ذلك لأنه خشى أن يؤخذ ذلك على أنه عدم ثقة فى الأطباء المصريين، وهذا غير صحيح وأنه يحترم كثيراً الذين يعالجوه فى مصر.

الرئيس يمارس مهامه بعيداً عن نصائح تشازوف

عاد الرئيس جمال عبدالناصر إلى القاهرة، ولكنه لم يكن ملتزماً بتعاليم الفريق الطبى السوفييتى برئاسة تشازوف كبير أطباء الكرملين، والذى نصحه بالراحة وعدم الانخراط فى الانفعالات.. ولكن عبدالناصر كان يحلم بتلقين إسرائيل درس عمرها، وكان يعد العدة العسكرية لمواجهة حاسمة يسترد بها الأراضى المحتلة فى سيناء منذ نكسة ٦٧،

غيـر أنه كـان يشـعـر أنه بدأ فى الوقـوف على أقدامـه وأنه قطع أشـواطاً كـبيـرة على طريق الاستعداد لايجب أن تضيع بسبب مرض، فلم يستطع أن يتمالك نفسه، وبدأ يمارس نشاطه العادى دون حذر أو تروى إلى الحد الذى جعل الرئيس بريجينيف يتصل به من موسكو ليقول له: إن ما نراه على شاشات التليفزيون وما نسمعه من أخبار من خلال وكالات الأنباء لا يجعلنا نطمئن على صحة عبدالناصر وحذره كثيراً من مغبة ذلك على حالته الصحية وقال له إن تشازوف قلق جداً عليك...، ولكن حماس الرئيس عبدالناصر للقضية كان أقوى من خوفه على حياته.. وسارت حياته كالمعتاد.. وأيضاً سارت الأوجاع فى طريقها المتوقع..

وأول مرة أصيب فيها الرئيس بأزمة قلبية كانت بعد زيارة كان يقوم بها فى الثامنة صباح يوم ١٠ سبتمبر ١٩٦٩ لمشاهدة تدريب عملى لفرقة مدرعة حديثة التكوين، انضمت مؤخراً إلى الخدمة، ووصلت إليه الأخبار تقول إن الإسرائيليين قد قاموا بعمليات إنزال فى الشاطئ الغربى للقناة على شاطئ خليج السويس فى منطقة الزعفرانة، وأنه تم إنزال ١٦ دبابة هاجمت نقطة خفر السواحل، وقتلت خمسة من الجنود ودمرت عدداً من السيارات المدنية التى تصادف مرورها وقتلت بعض المدنيين، وأسرت البعض الآخر، ولم يستطع الرئيس عبدالناصر بعد سماع هذه الأخبار إكمال التدريب العسكرى، وأمر بإلغائه، وطلب رفع حالة الاستعداد القصوى، وعاد فوراً إلى القاهرة، واتصل تليفونياً بالأستاذ هيكل يطلب منه أن يقرأ له ما نقلته وكالات الأنباء، خاصة وأن إسرائيل قد حاولت أن تصور للمراسلين الصحفيين الذين صحبتهم فى العمليات العسكرية أن الأمر كما لو كان غزواً لمصر لدرجة أن بعض برقيات هذه الوكالات كانت تبدأ بعبارة «مصر المحتلة».. وجن جنون عبدالناصر الذى كان يرى أن المعلومات التى يحصل عليها من وكالات الأنباء العالمية كانت أخطر وأكثر من المعلومات التى كانت تنقلها إليه المخابرات المصرية، وبعد قليل شعر بآلام فى صدره، أشبه بطعنات السكين فاستدعى طبيبه الخاص الدكتور الصاوى حبيب الذى كان قد تسلم عمله كطبيب مرافق للرئيس بعد مرض الدكتور أحمد ثروت الذى منعه عن مرافقة عبد الناصر.. وقام الدكتور الصاوى بالكشف الطبى، وأحس أن الرئيس يواجه حالة غير عادية فاتصل على الفور بالدكتور منصور فايز الذى أجرى له عدة رسوم للقلب تأكد بعدها إصابة عبدالناصر بجلطة بالشريان التاجى بالقلب، وفى نفس الوقت كان الدكتور ناصح أمين أستاذ التحاليل الطبية المعروف قد وصل إلى منزل الرئيس وقام بإجراء التحاليل التى أكدت الإصابة بجلطة القلب.

وبدأ لأول مرة الخوف والقلق على عبدالناصر الذى سأل الدكتور منصور فايز قائلاً: إيه الحكاية؟. ورد عليه: أبداً شوية تقلصات فى الشرايين بسبب الإرهاق ولازم الراحة.. فقال عبد الناصر منزعجاً: يعنى إيه راحة؟ ورد عليه الدكتور منصور: مش لمدة طويلة وبإذن الله ينتهى كل شىء بأمان.. وطلب الدكتور منصور استدعاء أحد أساتذة القلب بجامعة

القاهرة ولكن الرئيس نظر إليه بطريقة قاطعة وهو ساخطاً وقال له: كلام إيه اللى بتقوله ؟! أنا مش عاوز حد يعرف حكاية القلب دى أبداً.. أنا بأقول كدة علشان معركتنا مع إسرائيل.. ورد الدكتور منصور بأنه يقدر كل شيء، ومع اكتشاف الأطباء وجود احتشاء فى عضلة قلب عبد الناصر واضطراب بضربات القلب، كان لابد أن يصاحب ذلك تصرف فورى للسيطرة على جلطة القلب ومضاعفاتها.. واجتمعت أسرة الرئيس عبدالناصر والسادات وشعراوى جمعة والفريق محمد فوزى، واستقر الرأى على تشكيل لجنة طبية عليا لإبعاد المسئولية، وبالفعل تم تشكيل هيئة طبية موسعة ضمت أطباء الرئيس إلى جانب الدكتور زكى الرملى أستاذ أمراض القلب بجامعة القاهرة والدكتور محمود صلاح الدين إخصائى القلب وكان لابد من استدعاء «تشازوف» الذى يثق فيه عبد الناصر كثيراً ولكن بطريقة سرية حتى لا يستغل الإسرائيليون ذلك للتشكيك فى قدرة عبد الناصر كقائد للبلاد.

وفى الساعة ٨,٣٠ صباح اليوم التالى كان الوزير «تشازوف» جالساً فى مكتبه حين حدثه بريجينيف، وطلب منه الذهاب إلى القاهرة لأن عبدالناصر يمر بحالة صحية حرجة، ولابد من التصرف بحذر شديد والمحافظة على سرية المهمة، ويقول تشازوف فى مذكراته عن هذه المهمة:

«كانت هناك رحلة طيران إلى القاهرة ستقوم الساعة ١٢ ظهراً ولن نضمن طى الكتمان إذا قمنا برحلة خاصة، ونحن نعلم أن المخابرات الصهيونية لها نشاط ملحوظ فى القاهرة هذه الأيام، وحين تهبط الطائرة الخاصة ستكون موضع الشكوك.. وبالفعل طرت إلى القاهرة فى رحلة ١٢ ظهراً ونصحنى أندروبوف بأن أضع نظارة سوداء وقبعة على رأسى عند هبوطى من الطائرة فى مطار القاهرة حتى لايتعرف علىّ أحد فى حالة التقاط صورة لى وشعرت بأننى مقدم على دور البطولة فى فيلم من أفلام جيمس بوند، وحينما وصلت إلى المطار أحاط بى رجال عبدالناصر، ووجدت نفسى فى سيارة تقلنى إلى فندق شبرد حيث دخلته من الباب الخلفى، وطلب منى رجال المخابرات أن أبقى فى جناحى الخاص ولا أقوم بأى اتصالات ولا استقبل زواراً، وبعد ٢٠ دقيقة فقط جاء سكرتير عبدالناصر الخاص واصطحبنى إليه».

ووصل «تشازوف» إلى بيت عبدالناصر، واستقبلته زوجته ورجاله، وفور وصوله انفردت به السيدة «تحية» زوجة الرئيس وطلبت منه أن يقنع الرئيس بضرورة الاستجمام والراحة، لمدة شهر على الأقل.. وعندما دخل «تشازوف» لعبد الناصر ورآه سارع بالاعتذار له عن استدعائه، وابتسم فى وجهه ببشاشة ولكن هذه التحية البشوشة، كانت تكسوها الرهبة، والقلق ونوع من الخوف، واكتشف تشازوف بمجرد كشفه على الرئيس أن الاحتشاء بعضلة القلب متوسط.. ولكن عبد الناصر كان قلقاً وعيناه زائغتين وتسأل: ماذا سيقول لى تشازوف عن المستقبل؟ ولكن الطبيب السوفييتى الشهير طمأنه وسأله الرئيس: متى يمكن

التطلع إلي المستقبل باطمئنان نهائياً؟.. فأجابه: بعد ١٠ أيام، فقال عبدالناصر له «لقد بدأت أقف على أقدامي وقمت بتعزيز قدراتي الدفاعية ونبني جيشاً قوياً وقد يؤدى غيابى لفترة طويلة إلى إبعاد الجهود وإضعافها»، وكان مقرراً أن يدخل الرئيس فى إجازة إجبارية لمدة ستة أسابيع ولكن أمام إصراره اختصرت إلى أسبوعين.. وتقرر إعلان أن الرئيس مصاب، بإنفلونزا حادة، وكانت منتشرة فى ذلك الوقت.

وتم تكثيف الرعاية الطبية الكاملة للرئيس عبدالناصر، وإعداد الترتيبات والاستعدادات اللازمة لمواجهة أى أحداث صحية طارئة قد تدق ناقوس الخطر فى أى وقت.. وعاد الدكتور منصور فايز وفريقه الطبى لمتابعة الرئيس متابعة كاملة ودقيقة، وأشرك الدكتور منصور معه الدكتور على البدرى فى ضبط منحنى السكر لدى الرئيس وكان الدكتور البدرى واحداً من المشهود لهم فى علاج السكر ومضاعفاته، وفى إحدى المرات اقترح الدكتور على البدرى على الرئيس جمال عبد الناصر تجربة دواء جديد، كان يتابع نجاح تأثيره ونتائجه المتقدمة على الحيوانات، وفى محاولة من الدكتور البدرى لتشجيع عبدالناصر على تناول هذا الدواء الجيد قال له بعفوية شديدة: يا سيادة الرئيس كل الكلاب اللى استخدمت الدواء ده نفع معاها وحالتها اتحسنت كثير!!.. ولم يفطن الدكتور البدرى إلى ما قاله إلا بعد أن وجد عبد الناصر ينفجر ضاحكاً ويستغرق طويلاً فى الضحك ويقول له: خليك أنت يا بدرى فى كلابك وسيبنى مع الدكتور منصور.

وكانت هناك سيارة إسعاف رابطة أمام منزل عبدالناصر، وتم تجهيزها بكافة المعدات والأجهزة الطبية اللازمة للتعامل مع أى أحداث طارئة على صحة الرئيس وكان يتناوب عليها اثنان من أطباء رئاسة الجمهورية يومياً وكانوا مدربين تدريباً عالياً على التعامل مع الطوارئ والحالات الحرجة، وكانت هذه السيارة تتابع الرئيس فى كل تحركاته، وتسير خلف موكبه بصفة دائمة، كما تم تجهيز وحدة أكسجين متنقلة ترافق سيارة الإسعاف خاصة بعد أن اكتشف الدكتور منصور فايز أن الرئة اليمنى لعبدالناصر قد بدأت تتأثر بشدة ولا تؤدى وظيفتها كما يجب أن يكون.

وفى أواخر عام ١٩٧٠ أصيب عبدالناصر باحتشاء جديد فى عضلة القلب نتيجة جهوده المضنية فى ضم العرب بعد أن أخل الصراع بين الملك حسين والفلسطينيين بميزان التضامن العربى، ويقول تشازوف عن هذا الحدث: «أدركت أن حياته المتوترة، لا تناسب رجلاً شديد المرض مثله، مصاباً بجلطات متفرقة فى الأوعية الدموية وشرايين القلب التاجية وتعاوده نوبات من احتشاء القلب ويقال فى بلادنا: إن الرجل قد احترق».

وفاة عبدالناصر واحتمالات إنقاذه

وفى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ كان الرئيس عبدالناصر يقوم بتوديع أمير الكويت فى مطار القاهرة بعد انتهاء أعمال القمة العربية.. وقام بمصافحة أمير الكويت وعناقه ولكنه شعر بوخذ شديد فى قلبه جعله يستند بذراعه اليسرى على كتف الأمير.. ثم تبع ذلك سقوط العرق بغزارة من جميع مسام جسده.. وبدأ يشعر بنبضات قلبه تتلاحق فى سرعة غريبة.. وكان عبدالناصر قد أجهد نفسه بشدة فى أعمال القمة العربية حتى يستطيع أن يحل الخلافات بين الأشقاء، ويزيل الغيوم من على الأحداث والمواقف العربية.. ولم يحتمل الرئيس أن يقف دقيقة واحدة بعد أن قام بتوديع أمير الكويت وطلب أن تأتى السيارة له فى مكانه، واستقلها فوراً إلى منزله، حيث تم استدعاء كل أطبائه، وكان بادياً وواضحاً أن هذه المرة ليست مثل كل مرة، فقد كان عبدالناصر يصرخ من آلام القلب ووخذاته الشديدة التى كان يشعر بصداها فى زراعه الأيسر ورقبته وفكه السفلى، وعلى الفور وصل الدكتور منصور فايز والدكتور زكى الرملى وكافة أطباء الرئاسة إلى منزل الرئيس عبد الناصر الذى كان فى حالة احتضار شديدة، نتيجة احتشاء جديد فى عضلة القلب يعتقد أنه ناتج عن انسداد فى الشريان التاجى الرئيسى الأيسر، وإصابته بجلطة حادة، وحدث ارتباك بين الأطباء المعالجين للرئيس الذى كان يبدو عليه أنه مهتم ومنشغل بشىء هام فى نفس الوقت الذى بدأت فيه روحه تفيض إلى خالقها.. وهنا قال له طبيبه المرافق الدكتور الصاوى حبيب: «إن شاء الله هتستريح يا ريس» فمد عبدالناصر، يده فى بطء إلى المذياع الموجود بجوار فراشه واستمع لنشرة الأخبار، وعندما انتهى من سماعها قال: أنا استريحت دلوقتى.. وكانت آخر كلمات ينطقها.. فقد فاضت روحه الكريمة إلى خالقها..

وبعد وفاة عبدالناصر أثير جدلاً كبيراً حول وفاته وحالته الصحية واحتمالات إنقاذه فى احتضاره الأخير.. وقد قيل مثلاً أن الرئيس عبدالناصر مات مسموماً عند طريق دهان جسده بمراهم سامة عندما كان على العطفى عميد معهد العلاج الطبيعى والجاسوس الإسرائيلى الذى اتهم بعد ذلك فى قضية تخابر على مصر، يقوم بعمل العلاج الطبيعى للرئيس بعد عودته من سخالطوبو من الاتحاد السوفييتى، وأن هذه المراهم كانت تعمل على تجلط الدم فى الأوعية الدموية والشرايين لدى عبدالناصر، ولكن هذه القضية لم يتم تأكيدها إلى يومنا هذا، وإن كانت أوساط المحلليين تتناولها بصفة مستمرة، ولكن ينبغى هنا الإشارة إلى أن الرئيس عبدالناصر لم يكن محتاجاً لأى مسببات لتحث دمائه على التجلط فقد كان مريضاً بالسكر فى درجة متقدمة ويعانى من «السكر البرونزى أو المعدنى» وفيه تحدث تغيرات جلدية شديدة فى لون البشرة وترسب لكميات من الحديد فى كبد المريض بالإضافة إلى مضاعفات أخرى تناسلية وعصبية.. والمعروف علمياً أن مريض السكر يكون أكثر عرضة من غيره للإصابة بتجلطات الأوعية الدموية، وخاصة شرايين القلب التاجية

وبالتحديد إذا بدأ فى مرحلة مبكرة من العمر، بالإضافة إلى أن الرئيس عبدالناصر كان ينطبق عليه الكثير من عوامل الخطورة التى تنذر بحدوث جلطات القلب، فهو مريض بالسكر، وكان يدخن أكثر من ٥٠ سيجارة يومياً وحياته مليئة بالانفعالات والتوترات بالإضافة إلى أن جلطات القلب تنتشر فى الذكور أكثر منها فى الإناث.. ولذلك كان طبيعياً وعادياً جداً أن يصاب عبدالناصر بأكثر من جلطة فى أوعيته الدموية وشرايين القلب التاجية.

ولكن الذى أثار الجدل أيضاً هو مادار حول أن الرئيس عبدالناصر كان يمكن إنقاذه وأنه حدثت بعض الأخطاء من أطبائه ومعاونيه يمكن أن تكون قد أودت بحياته إلى الحد الذى اتهم فيه البعض طبيبه المرافق الدكتور الصاوى حبيب بتأخره فى إنقاذ الرئيس وعدم استدعائه للطبيب المختص فى التعامل مع الطوارئ والحالات الحرجة، والذى كان مرابطاً فى سيارة الإسعاف أمام منزل الرئيس باستمرار، مما اضطر الدكتور الصاوى إلى الاحتكام إلى القضاء حتى يصدر قراراً وحكماً قضائياً بعدم مسئوليته عن وفاة عبدالناصر وبالفعل استصدر هذا الحكم ليسجله فى التاريخ ويبرئ طبيباً مخلصاً أمضى فترات طويلة فى خدمة عبدالناصر.. ورعايته الصحية.

وقد حكى الأستاذ الدكتور حمدى السيد نقيب أطباء مصر وجراح القلب الشهير، ذكرياته عن وفاة عبدالناصر، وأدلى بدلوه فى هذا الأمر فى حديثه المنشور فى مجلة آخر ساعة فى يوم ٧ يونيو ٢٠٠٠ حين أكد أن عبدالناصر لم يمت مقتولا، ولكنه لم يأخذ الفرصة كاملة لإسعافه وعلاجه، وقال: إنه تم استدعاءه بعد ساعة كاملة من وفاة الرئيس نتيجة لاتصال هاتفى به من سكرتير عبد الناصر الخاص، ولما ذهب إلى منزل عبدالناصر وجد الدكتور منصور فايز والدكتور زكى الرملى والدكتور الصاوى حبيب وحشد آخر من أطباء الرئاسة، وأنهم وقفوا مكتوفى الأيدى وفى حالة ذهول شديد.. وأكد الدكتور حمدى السيد أن كل هؤلاء من الأطباء المخلصين لعبدالناصر، وأن وفاته أحدثت لهم صدمة شديدة إلى الحد الذى ذهب عن أذهانهم استدعاء الطبيب المرابط فى سيارة الإسعاف بجهاز الصدمات الكهربائية، لأنه من المعروف طبياً أن النوبة القلبية قد تهدد صاحبها بالوفاة وأن ٢٠٪ يموتون بسببَ اختلال فى كهرباء القلب، ولكن لو تم إسعاف المريض فى نفس اللحظة بوسائل الإنعاش وهى التنفس الصناعى والتدليك وإعطاءه صعقة كهربائية لأمكن إعادة النبض إلى القلب واستمرار الحياة، وهذا ما لم يحدث مع عبدالناصر بسبب حالة الارتباك التى سادت الجو العام فى منزله وقت الوفاة، وعدم التصديق بأن عبدالناصر يحتضر وإصابة الجميع بحالة من الذهول والتجهم نتيجة حبهم الشديد وإخلاصهم لعبدالناصر وإحساسهم بأن موته هو موت لهم بل موت لآمال كثيرة للشعب المصرى.

ولكن لكل أجل كتاب..

ومن خلال بحثي المضني وإطلاعي على كثير من الأمور المتعلقة بقضية مرض وعلاج الرئيس عبد الناصر خلال رحلتي في تأليف هذا الكتاب، أستطيع أن أؤكد أن كل الأطباء المصريين الذين شكلوا الفريق الطبي الذي أشرف على علاج الرئيس منذ بداية مهمتهم وحتى وفاته كانوا من الأطباء النبهاء العظام، المخلصين لمصر ولعبد الناصر وأنهم تحملوا مسئولية ضخمة على عاتقهم، إذ أن قراراتهم لا تخص مريضا عاديا ولكنها تخص زعيم تاريخي بحجم وثقل عبد الناصر وسوف يتوقف عندهم التاريخ كثيراً وطويلاً نظراً لأنهم كانوا أبطالاً في المهمة وعظماء في الأمانة ورجالاً في المسئولية.

قرارات عبد الناصر ورحلة المرض

قبل أن أخوض في التحليل الطبي لقرارات عبدالناصر أثناء رحلة المرض، وجدت نفسي أتوقف كثيراً أمام العبارات التي انطلقت على لسان الزعيم الراحل والتي لها دلالات قوية ومؤثرة قد تفيد في الإجابة عن التساؤل الهام الذي يدور في الأذهان وهو: هل قرارات الرئيس عبدالناصر تأثرت برحلة مرضه؟.

يقول يفجيني تشازوف في مذكراته: «بعد أن اتممت الكشف على الرئيس عبد الناصر فور استدعائي من الاتحاد السوفييتي وأخبرته أنه مصاب باحتشاء متوسط في عضلة القلب، سألني بنوع من الخوف من المستقبل: متى يمكن أن أطمئن نهائياً.. لقد بدأت أقف على أقدامي وأعزز قدراتي الدفاعية وابني جيشاً جديداً، وسيؤدى غيابي إلى إبعاد الجهود وإضعافها؟.

ويستكمل تشازوف: «حينما طلبت من عبدالناصر الالتزام بمجموعة من التعليمات الهامة قال لي: حين أنفذ هذه التوصيات سيكون من الصعب عليّ البقاء في منصب الرئيس بينما أنا أريد أن أبقى فلا يمكنني أن أترك شعبي ببساطة وهو في محنة».

ويذكر الدكتور عبدالوهاب البرلسي وزير التعليم العالي في عهد عبدالناصر أنه في مستهل سنة ١٩٧٠ ذهب إلى الرئيس في منزله ليعرض عليه بعض الأمور العاجلة التي تستوجب موافقته في اجتماع ملجس الوزراء في اليوم التالي بصفته رئيساً لمجلس الوزراء ورئيساً للجمهورية، وعرض عليه إنشاء صندوق لكل جامعة تكون حصيلته من دخل بيع أنقاض مباني الجامعة الآيلة للسقوط وينفق منه على المنشآت الجامعية الجديدة، تخفيفاً على الموازنة العامة، ووافق الرئيس وأنتظر وزير التعليم أن يطلب منه الرئيس عرض الأمر عليه في اجتماع مجلس الوزراء في اليوم التالي، ولكن عبدالناصر نظر إليه نظرة تحدى وثبات وكان المرض قد تمكن منه تمكناً شديداً وقال: بكره ليه.. هو حد عارف إيه هيحصل بكرة؟! معاك قلم.. ووقع عبدالناصر على قرارات الصندوق.

وفى سبتمبر عام ١٩٦٦ طلب الرئيس عبدالناصر من وزير الأوقاف الدكتور أحمد خليفة أن يسرع فى بناء مسجده فوراً والذى دفن فيه بعد ذلك وكان يقول له: خلص يا أحمد خللى الناس تصلى!!.

ويذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل أن عبدالناصر كان يعرف أنه لن يعيش طويلاً، وأن أول مرة سمعه يعبر فيها عن هذا الشعور كان أثناء المرور بأزمة كبيرة من الأزمات الشديدة التى كان يمر بها واحدة بعد واحدة، حين سأله الأستاذ هيكل: «هل ستتاح لنا الفرصة يوماً لكى نجلس ونكتب معاً قصة ما حدث وحقيقته»... فرد ببساطة: سوف تكتبها وحدك.. فما أظن أن العمر سيطول بى!! ولما سأله هيكل: لماذا تقول ذلك؟ كان رده: لنكن عمليين.. فالذى يعيش نوع الحياة التى أعيشها إذا طال به الزمن فسوف يخرف فى إشارة إلى المرض والعجز.

وأجدنى هنا أقف أمام نقطة هامة جداً فى تحليلى لقرارات الرئيس عبد الناصر، والذى استند فيه إلى ظروفه الصحية.. وحالته المرضية التى كانت تسوء يوماً بعد يوم، وهذه النقطة هى أن قرارات الزعماء فى فترة المرض تنبع من خلفيتين أساسيتين الأولى: الخلفية النفسية لشخصية الزعيم والتى تكون مصاحبة لسوء الحالة الصحية.. والثانية: القرارات التى تصدر من عقل فى جسد مريض.. تشكو أعضاءه من الفشل فى أداء وظائفها الحيوية والتى تؤثر بالطبع على قوة الإدراك والفهم واتخاذ القرار.

وأعتقد أن الحالة الثانية لا تتكرر كثيراً لأن الشعوب وحكومات الدول لن تترك الرؤساء على مقاعد الحكم إذا ما وصل بهم المرض للهذيان والتخريف وفقد السيطرة على التصرفات.. وقد رأينا ذلك مع الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة الذى عزله رئيس وزرائه زين العابدين بن على وتولى مقاليد الحكم بموافقة الشعب ومجلس النواب التونسى حينما وصل الحبيب بورقيبة إلى مرحلة لم يكن يعرف فيها أفراد أسرته.

أما النقطة الأولى فهى التى تشيع ولا يسهل كشفها لأن الحالة النفسية تكون أمراً خافياً عن الأنظار ولا تستطيع أن تدركه الأبصار أو تسجله التحليلات، وهذا ما حدث فعلاً مع الرئيس جمال عبدالناصر.. وكان لابد أن أسرد تاريخه المرضى إلى القارئ، كى يستطيع أن يعيش معى الحالة النفسية التى كان عليها عبدالناصر وهو يمر برحلة مرضه أثناء توليه مقاليد الحكم، والثابت من العبارات التى ذكرتها سالفاً على لسان عبدالناصر، والتى قالها لتشازوف والبرلسى والدكتور خليفة وهيكل فى مواقف مختلفة أن المرض وسوء الحالة الصحية للرئيس وتطورها إلى الأسوء يوماً بعد يوم قد جعله يشعر بأنه قصير الأجل وهو ما ذكره صراحة إلى الأستاذ هيكل.. أو على الأقل فإن المرض سيصل به إلى مرحلة من الشيخوخة ستجعله يعتزل الحكم والعمل السياسى، مع أنه كان يستبعد ذلك ويتوقع الموت.. وهذا انعكس بالفعل على قراراته خاصة بعد أن أصيب بالجلطة الأولى فى القلب

وطلب منه تشازوف أن يعمل فقط خمسة ساعات فى اليوم وخمسة أيام فى الأسبوع، وثلاثة أسابيع فى الشهر وثلاثة أشهر كل أربعة أشهر فشعر عبدالناصر بأن المرض وحش كاسر يطارده ولا يجب أن يلحق به، فخلق ذلك لديه على ما أعتقد.. نوعاً من الحالة النفسية المتصلة بقوة العزيمة ورباطة الجأش وهذا ما يفسر السبب الحقيقى الذى جعل عبدالناصر يحاول تحقيق الكثير من المنجزات فى أقل فسحة زمنية ممكنه.. والدلائل على هذا كثيرة وموجودة.. فقد أعاد عبدالناصر بناء جزء كبير من قوته العسكرية فى خلال فترة وجيزة بدأت من نهاية عام ١٩٦٧ وحتى منتصف عام ١٩٧٠، وسنعرف حجم الإنجاز إذا عرفنا أن خسائر القوات المسلحة المصرية بعد نكسة ١٩٦٧، قد بلغت مليارات الدولارات بخلاف الخسائر البشرية والمدنية.. كما أنه بدأ حرب الاستنزاف فوراً بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ وقتها قيل إن عبدالناصر «يقطع من اللحم الحى»، وعبدالناصر قام بتعديل الكثير من القوانين التى تهدف إلى الصالح العام.. وأرسى الكثير من المؤسسات والجامعات والمصانع فى أوقات قياسية.. يسابق بها الزمن.. وكل هذا معناه الوحيد أن هناك إحساساً داخلياً لديه يجعله متعجل الأحداث لأنه كان يخشى أن يترك مصر فى محنة من بعده.

وعندما تقدمت أيضاً الحالة المرضية للرئيس.. كان لزاماً عليه أن يمارس مهامه الرئاسية لفترات طويلة من منزله وهذا ما استدعاه إلى اتخاذ قرار بتعيين ابنته الكبرى هدى عبدالناصر سكرتيرة له.. تدير شئون والدها من غرفة بجانب غرفة نوم الرئيس.. وكانت هدى عبدالناصر تقوم بقراءة كل الأوراق والملفات المطلوب عرضها على عبدالناصر.. وتعرض عليه فقط أهمها وأكثرها سرعة فى اتخاذ القرار.. بينما كانت تعرض الأشياء الأقل أهمية على أشخاص آخرين يثق فيهم عبدالناصر مثل أنور السادات، ويعتبر قرار الرئيس عبدالناصر بتعيين إبنته سكرتيرة له.. قرار خاص جداً ومن النادر تكراره فى أى دولة من دول العالم.. وهذا الأمر كان غريباً لأن عبد الناصر كان يفضل أن ينأى بأولاده عن الاشتراك فى الحياة العامة أو السياسية، ولكن مبرره القوى فى هذا الأمر أنه كان يحتاج لسكرتير له يرافقه حتى باب غرفة نومه ليرفع عنه أعباء كثيرة وصعبة ولم يكن هذا ليتوفر إلا فى ابنته هدى وبالطبع هذا القرار له جذوره المرتبطة بمرض الرئيس عبد الناصر.

ومن القرارات الهامة التى أصدرها عبدالناصر وتسبب فيها مرضه.. هو تكليف أنور السادات بتشكيل لجنة لإدارة شئون البلاد عندما اشتد عليه المرض ونصحه طبيبه السوفييتى بالراحة وبأجازات إجبارية متكررة.. على أن يكون أنور السادات همزة الوصل بين عبدالناصر وهذه اللجنة ولم يكن السادات قد أصبح نائباً للرئيس فى ذلك الوقت.. وهذا القرار أيضاً له دوافعه النفسية التى ارتبطت بمدى رسوخ فكرة المرض فى ذهن وعقل جمال عبد الناصر، وقد كان هذا الأمر خطيراً.. لأنه فى حالة وفاة الرئيس فى أى وقت سينشأ صراعاً شديداً على السلطة خاصة لو أن هذه اللجنة كانت تضم أشخاصاً من ذوى النفوذ من خارج مجلس قيادة الثورة.. بالإضافة إلى أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى كان هناك أصلا

خلاف دائم بينهم.

ولا شك أن ترك عبدالناصر كثيراً من الأمور في السنوات الأخيرة له في أيدى أعضاء مجلس قيادة الثورة بعد رغبته في الاستجمام والراحة بعض الشيء.. كان له بعض الأثر السيئ على الأحداث العامة إلى الحد الذى نشأت معه سلبيات كثيرة مازالت تحسب على عصر عبد الناصر حتى الآن ومن أمثلة هذه السلبيات كما يقول الأستاذ هيكل هو ترك إدارة المعركة عام ١٩٦٧ إلى المشير عبد الحكيم عامر الذى كان غير مؤهل علمياً لقيادة المعركة لتوقف خبرته العسكرية عند رتبة الرائد وتحوله بعد ذلك للعمل السياسى.

ويجب الإشارة إلى أن الأعراض المضنية التى كان يعانى منها عبدالناصر كانت كفيلة بأن تجعله فى حالة توتر بصفة دائمة، ففى السنوات الأخيرة كان عبد الناصر كتلة من التوتر والانفعال المستمر، نتيجة إصابته بكل الأمراض التى تناولناها بالعرض والشرح الدقيق.. فمرض السكر له تأثيراته على الجهاز العصبى للإنسان، بالإضافة إلى آلام الجلطات المنتشرة فى سيقان عبدالناصر، ونوبات احتشاء القلب الى كانت تعاوده من حين لآخر كانت تسبب له نوعاً من الاضطرابات والمعاناة.. وهذا بالطبع كان ينعكس على سرعة اتخاذه للكثير من القرارات بعد أن كان قراره ذكياً ومدروساً.. ولنا أن نتصور كيف كان عبدالناصر شديد المعاناة أثناء تنفسه.. فكان يشعر بأن الهواء يدخل فى رئتيه بصعوبة خاصة بعد أن تأثرت رئته اليمنى وأصبح معدل الأكسجين فى تذبذب مستمر.. وكل هذه العوامل بالتأكيد تخلق نوعاً من الضيق والتوتر خاصة إذا كان المريض شخصاً يحمل على كتفه أعباء أمة بأكملها.

وفى أواخر عام ١٩٦٩ قرر عبد الناصر تعيين محمد أنور السادات نائباً لرئيس الجمهورية، وفى إعتقادى أن هذا هو أخطر القرارات على الإطلاق والتى أصدرها عبد الناصر متأثر بنسبة كبيرة بأحواله وظروفه المرضية وحتى يتحمل السادات جزء من الأعباء التى كانت ملقاه على عاتق الرئيس.. وحتى يتبين لنا كم كان هذا القرار خطيراً علينا أن نجيب على سؤال هام.. هل كان من السهل على أنور السادات أن يصبح رئيساً للجمهورية لو مات عبدالناصر ولم يعينه نائباً له؟.

أغلب الظن أن الأمر كان سيصبح صعباً للغاية إذ أن وضع السادات كنائب للرئيس جعله يسيطر سريعاًعلى مقاليد السلطة بعد وفاة عبدالناصر مما نزع فتيل الصراع على السلطة ولو من وراء القلوب وهنا.. أسأل سؤالاً آخر.. ماذا لو لم يصبح السادات رئيساً لمصر؟! ويدفعنى هذا لسؤال آخر.. ماذا عن حرب أكتوبر بدون أنور السادات.؟

من أجل كل هذا.. أؤكد.. أن واحداً من أخطر قرارات الزعيم عبد الناصر اتخذها متأثراً بمرضه وإحساسه الدائم بدنو أجله؟.. وهذا القرار قد غير وجه مصر كثيراً بعد ذلك.. وأعاد إليها الكرامة المسلوبة.. وسد الجروح النافذة على قلبها!!.

حقاً لحظات الضعف.. تصنع أحياناً القوة وكم من أمراض.. تصنع القرارات.

فرانكلين روزفلت
« الإرادة تزحف على بطنها »

اتفق كل المؤرخين والسياسيين على أن الرئيس الأمريكي الثاني والثلاثين فرانكلين ديلانو روزفلت هو واحد من أعظم ثلاثة رؤساء في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية والآخران هما جورج واشنطن وإبراهام لينكولن، وبالرغم من هذا المجد التاريخي الذي حظي به فرانكلين روزفلت إلا أنه أكثر رئيس أمريكي نال حب شعبه في القرن العشرين، وفي نفس الوقت فهو أكثر رئيس تعرض للكراهية والحقد والاضطهاد في ذات الوقت.

وقد ولد فرانكلين روزفلت في عام ١٨٨٢ بقرية كان اسمها سبرنج وود والمعروفة الآن بهايد بارك وهي ضيعة تطل على نهر هارسون بولاية نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية وفي فترة الطفولة والمراهقة تلقى العلم ما بين المنزل ومدرسة جرتون حتى سن الرابعة عشر ثم درس بجامعة هارفارد وتخرج منها عام ١٩٠٤ ثم إلتحق بجامعة كولومبيا ليدرس القانون وانضم لنقابة المحامين في نيويورك عام ١٩٠٧ وانتظم في المحاماة وعمل في عدة مكاتب لمشاهير المحامين ثم اشترك بعد ذلك مع زميل له في إدارة مكتب قضائي.

والمعروف عن روزفلت أنه كان نبيلاً بالوراثة وأنيقاً، ومع ذلك فقد تحمس للبسطاء وآمن بهم، وناضل من أجل الدفاع عن حقوق الطبقات الدنيا في المجتمع الأمريكي الذين يفتقرون إلى الحد الأدنى من المعيشة، فلا يملكون المسكن أو الملبس أو الطعام المناسب.. ولقد عشق العالم كله فرانكلين روزفلت لأنه كان يتمتع بشخصية جذابة، ولها قدرة ساحرة على التأثير في من حوله وكان مرحاً في عمله ومتفائلاً بالمستقبل لدرجة أن تشارل ديجول كان يعلم تماماً أن روزفلت لا يطيقه ومع ذلك فإنه أكد أنه يستسلم لروزفلت ولشخصيته البراقة، وعلق ونستون تشرشل على فرانكلين روزفلت يوماً قائلاً: اللقاء مع روزفلت أشبه بنزع غطاء زجاجة شمبانيا.!!

ومعجزة هذا الرجل أنه استحوذ على قلوب الجماهير من فوق مقعده المتحرك.. واستطاع أن يخوض المعارك الشرسة وسيقانه لا تقوى على حمله.. وكان نموذجاً لإرادة المعوق حين تتفجر وتكشف الستار عن قوى كامنة في تلك النفس البشرية والتي تستطيع أن تحول العجز إلى قوة والفشل إلى نجاح وتملأ الفراغ القاتل رسوماً وألواناً.. بل أكثر من ذلك أن تستطيع تلك الشخصية العاجزة في جسدها أن تحقق الأحلام، وتعبر بها من بوابة الحلم إلى

حيز الواقع، ورغم كل هذا الحب.. فقد تعرض روزفلت للحقد والكراهية لمجرد أنه دعا للتغيير وتطلب التغيير الذى طلبه فى مشروعه (العقد الجديد) تقليص سلطة وموارد الأرستقراطيين الذين كانوا يستغلون المجتمع ويعيشون على رقاب الفقراء والمكدودين والمطحونين من أبناء الشعب الأمريكي، ولكن ما أسرع ما انهزمت هذه الكراهية أمام الحب الأسطورى الذى حشدته شخصية فرانكلين روزفلت فى قلوب الملايين من أبناء الشعب.. وكان هؤلاء الأشخاص الذين دعوا إلى كراهية روزفلت يجلسون فى الأندية والمقاهى والحانات، يلعنون ذلك الرجل الجالس على كرسى الرئاسة ويتهمونه بأنه خائن لطبقته الاجتماعية، ولكنهم ماتوا وذهبوا عن العالم وبقى روزفلت محلقاً فى تاريخ البشرية وفى أذهان مئات الأجيال من أبناء أمريكا..

ولم يقتصر الإعجاب بروزفلت على فئته السياسية من الديمقراطيين ولكنه أيضاً نال إعجاب الجمهوريين، لدرجة أن الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان ذو الانتماء السياسى الجمهورى قد أدلي بصوته أربعة مرات لصالح فرانكلين روزفلت وذلك فى المرات الأربعة التى انتخب فيها رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية.. كما أن ينوت جنجريتش الرئيس الجمهورى السابق لمجلس النواب الأمريكى وصف روزفلت بأنه أعظم رئيس لأمريكا على الإطلاق فى القرن العشرين.

وفى عام ١٩٠٥ تزوج فرنكلين روزفلت من إليانور والتى ولدت فى ولاية نيويورك عام ١٨٨٤ وفى سن السابعة فقدت أباها فانتقلت مع جدها إلى إنجلترا، ثم عادت مرة أخرى إلى نيويورك، والتقت بفرانكلين روزفلت عندما كان طالباً فى هارڤارد فأعجب بها من أول مرة وكتب لها العشرات من رسائل الغرام التى أحرقتها إليانور جميعاً، ولم يكن أمام روزفلت بد من أن يتقدم لخطبتها عام ١٩٠٣ وهو فى الحادية والعشرين من عمره ثم تزوجها بعد عامين وأنجبت له ستة أطفال، مات أحدهم وكانت كل مشكلة روزفلت هى أمه «سارة» التى تعترض على علاقته مع الفتيات فى سن الشباب، والمراهقة ولكنها كانت تتدخل بشدة إذا وصل الأمر إلى حد الزواج وقد اعترضت الأم أكثر من مرة على فتيات كان يرغب روزفلت فى الزواج منهن والمرة الأولى عندما هم بالزواج من فتاة تدعى فرانسيس دانا وكانت إحدى عشيقاته ولكن الأم اعترضت بشدة على الفتاة لأنها كاثوليكية، والمرة الثانية عندما خطب إليانور، فقامت الأم بصحبته فى رحلة بحرية لمدة خمسة أسابيع فى بحر الكاريبى حتى ينسى إليانور التى أحبها من كل قلبه، ولكن أمه فوجئت به يقيم علاقة جنسية مع سيدة فرنسية على ظهر السفينة مما جعل الأم تستسلم فى النهاية لما يريد.. وقبلت زواجه من إليانور الأمريكية.

وفى عام ١٩١٠ بدأت حياته السياسية تأخذ أولى خطواتها العملية بعد أن أعد نفسه الإعداد السياسى الجيد منذ أن كان طالباً بكلية الحقوق، وقد تأثر فرانكلين روزفلت كثيراً

وإلى حد كبير بعميد عائلته الرئيس الأمريكى الأسبق تيودور روزفلت، والذى تولى الحكم فى الولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة من عام ١٩٠١ وحتى عام ١٩٠٩. وفى هذا العام بدأ يخطط لدخول مجلس الشيوخ ممثلاً للحزب الديمقراطى فى نيويورك وهو ما تحقق فعلاً، ثم عين عام ١٩١٣ مساعداً لوزير البحرية الأمريكية وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٢٠.

وقد أصيب فرانكلين روزفلت بالشلل عام ١٩٢١، وذكر أنه كان يقوم بنزهة بحرية بالقرب من غابة كامبويللو، فإذا به يشاهد حريقاً يشب فى الغابة، فأسرع بيخته «سابالو» حتى وصل إلى منطقة الحريق فترك اليخت وكان مرتديا لبس، البحر، وأخذ يعمل مع من معه من أفراد أسرته على حصر النيران والحيلولة دون امتدادها حتى تمكن بعد كفاح عنيف من إخمادها، ولكن الجهد الذى بذله وهو لا يلبس سوى ثوب الاستحمام وتنقله بين البرودة تارة والحرارة تارة أخرى وهو يحاول محاصرة النيران بالمياه سبب له مرضاً تفاقم بعد ذلك حتى بدا فى شكل شلل بأطرافه السفلية. وأقعده ذلك عن الحركة قبل أن يتم الأربعين من عمره بعام واحد.. فأثر ذلك على نفسيته لفترة، وقاسى كثيراً من جراء هذا المرض الذى قيده فجأة وهو يعد نفسه للصعود على سلم الأحلام.. ولكن زوجته المؤمنة إليانور روزفلت خففت عن آلامه النفسية، وجندت نفسها لخدمة زوجها القعيد، وكانت تخرج إلى الحفلات والندوات ثم تعود فتنقل له أحداث المجتمع وأخبار السياسيين والفنانين ورجال الدولة.. وكانت تلطف عليه عزلته فتقضى الوقت معه، تلاعبه إحدى الألعاب المسلية أو ألعاب الذكاء، وكان يعتبرها بمثابة الرادار الذى يرى ويسمع به كل شيء فى العالم من حوله.. وساهمت هذه الظروف المرضية فى تعميق الحب الرائع بين فرانكلين وإليانور.. وعندما أقنعته الزوجة الجميلة بأن يخرج إلى الناس ويواجههم بمحنته الجديدة، إشترت له سيارة يمكن أن يقودها دون استخدام قدميه.. واستطاعت إليانور بشجاعة المرأة المحبة أن تزيل مركب النقص فى حياة فرانكلين، وتدفعه لأن يظهر فى المجتمعات وهو يسير مستنداً على عكازين، بل أكثر من ذلك فقد صممت على أن يكمل زوجها مخططه الطموح لمستقبله السياسى وعانى فرانكلين روزفلت كثيراً من التردد وهو مقدم على تلبية رغبة إليانور.. لكنها منحته بحبها وعطائها من الثقة فى النفس ما لم يستطع أمامها أن يتوقف عن الإندفاع نحو تحقيق أمل زوجته العاشقة فيه.

وفى عام ١٩٢٠ قرر أن يخوض محاولته الأولى لشغل منصب نائب الرئيس الأمريكى، ولكنه فشل بعد خسارة جيمس كوكس أمام وارين هاردينج.. ولكنه لم ييأس ولم تتوقف زوجته عن دفعه إلى الأمام نحو المقدمة ليأخذ مكانه فى الصفوف الأولى، فقررا سويا أن يخوض فرانكلين الانتخابات على منصب حاكم نيويورك عام ١٩٢٨، والمعروف أن هذا المنصب يعد ثانى أكبر منصب فى أمريكا بعد منصب الرئيس، وذهب فرانكلين إلى مؤتمره

الانتخابى مع الناخبين فى ولاية نيويورك الأمريكية، وهناك هم الرجال مندفعين نحوه ليحملوه إلى المنصة الرئيسية قبل حضور الناخبين حتى لا يروه وهو كسيحاً، ولكن زوجته إليانور رفضت ذلك وأصرت أن يصعد زوجها إلى المنصة فى وجود جميع الناخبين، وحملوا روزفلت على نقالة إلى مكان الاجتماع وأدخلوه من أحد أبواب القاعة، ثم بدأوا ينقلونه إلى المنصة الرئيسية التى توجد فوق المسرح، ولهث جموع الناخبين وهم يرون الإرادة تزحف على بطنها فى مشهد من أروع المشاهد المؤثرة فى تاريخ الأمم، وعندما صعد إلى المسرح استند إلى ذراع أحد الرجال ثم استند إلى المنصة ورتب شعره المنكوش، وابتسم ابتسامة بطعم الحرية والإرادة، وكأن شيئاً لم يحدث.. وهنا دوت القاعة بالتصفيق الذى لم يتوقف.. فقد اقتنع الناخبون بأن الرجل الذى يلقى كل هذا الهوان والضعف بابتسامة لابد وأنه رجل عظيم.. وشعر كل أمريكى فقير فى ولاية نيويورك بأنه هو هذا المرشح.. وأحس كل ضعيف ومشلول ومريض بأن هذا الرجل منهم فانتخبوه.. وفاز روزفلت بالمنصب فوزاً ساحقاً.. وكل هذا بفضل زوجة محبة ومؤمنة سيذكرها التاريخ كثيراً...

ولم يتوقف دور إليانور عند هذا فقط، بل طالبت بحقوق المرأة وحاربت من أجلها حتى أطلق عليها نساء أمريكا لقب «البطلة»... وتعتبر إليانور روزفلت من أوائل النساء اللاتى حصلن على تعليم راق لعد تخرجها من الجامعة كما أنها من عائلة ثرية جداً، بالإضافة إلى مكانتها المرموقة فى دفع حركة الإصلاح والمساهمة فى الجمعيات النسائية دفاعاً عن حقوق المجتمع بصفة عامة والمرأة بصفة خاصة..

وقرر فرانكلين روزفلت أن يخوض انتخابات الرئاسة الأمريكية وأن يخترق الطريق بكرسيه المتحرك إلى الصفوف الأولى.. واقتحم الانتخابات ممثلاً للحزب الديمقراطى وحصل على أكثر من ١٢ مليون صوت عام ١٩٣٢ فى أغلبية ساحقة فاز بها على منافسه الرئيس هيربرت هوفر خاصة بعد أن طرح برنامجه المعروف باسم «العقد الجديد» والذى غير به وجه الحياة فى أمريكا وأغار بفكره الجديد على الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فحقق أمال الجماهير وحفر صورته فى أذهانهم مدى الحياة.. وكان روزفلت يجيد العمل السياسى ببراعة فقد كان ذكياً وماكراً ومراوغاً ومخادعاً وقاسياً إذا احتاج الأمر ولكن تاريخه يشهد بأنه كان يقف بجانب القضايا الإنسانية أكثر من الأيديولوجية السياسية كما أنه نجح فى إخراج أمريكا من حالة الركود الاقتصادى الذى كانت تعانى منه.. وكان لروزفلت نشاطه السياسى الملحوظ ولم تقعده إصابته بالشلل عن ممارسة دوره على الساحة كما أقعدته عن السير إلا باستخدام الكرسى المتحرك.. فعندما قامت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٨ كان روزفلت يجوب العالم على كرسيه المتحرك ثم اتخذ قراره بالاشتراك فى الحرب عام ١٩٤١ فى صفوف الحلفاء ضد قوات المحور المكونة من جيوش ألمانيا واليابان وإيطاليا وذلك عقب غرق الأسطول الأمريكى فى قاعدة بيرل هاربرد التى دمرها اليابانيون....

وفى نفس هذا العام كانت الفترة الثانية فى ولاية فرانكلين روزفلت قد انتهت ورفض الشعب الأمريكى أن يتركهم روزفلت فى هذه الظروف الصعبة التى تتعرض لها أمريكا فى ظل الحرب العالمية الثانية... الأمريكيون الذى خرجوا من الظلام إلى النور ومن قيد الفقر إلى روعة الرخاء على يد فرانكلين روزفلت أن تكون هذه هى نهاية حكمه.. وصمموا أن لا يترك البيت الأبيض.. وخرج الملايين من أبناء الشعب الأمريكى يطالبون بتعديل الدستور حتى يتمكنوا من انتخاب روزفلت للمرة الثانية وخضعت إرادة السلطات الشعبية والتشريعية والتنفيذية لإرادة الشعب وقاموا بتعديل الدستور لينتخب روزفلت فترة ثالثة ورابعة أيضاً ولكنه مات بعد شهر واحد من انتخابه لفترة ولاية رابعة وكان ذلك فى شهر أبريل عام ١٩٤٥.

وقد أحب الأمريكيون روزفلت لتاريخه المشرف وإحساسه بالمسئولية نحو طبقات الشعب الكادحة وتمسكه بالمبادئ والثوابت التى لا تحيد عن الحق والحرية ولأنه كان إنساناً بسيطاً وعادياً وقريباً من قلوب الناس.. والتاريخ يشهد أن روزفلت لم يفرق فى الحقوق بين طائفة وأخرى أو مذهب وأخر أو مؤيد ومعارض ففى ٢١ مارس عام ١٩٥٥ أذاعت لجنة الأمن الداخلى بالكونجرس الأمريكى تقريراً أكدت فيه أن فرانكلين روزفلت كان يحمى الشيوعيين الأمريكيين وأن اللجنة تأكدت من ذلك عندما قرأت رسالة سرية كانت متداولة بين روزفلت ووزير البحرية الأمريكى فرانك نوكس حول السماح لعمال اللاسلكى الشيوعيين بالعمل على ظهور السفن الأمريكية التجارية وقالت اللجنة أن روزفلت ونوكس قد ألحقا أضراراً كبيرة بالبحرية الأمريكية خاصة بعد أن رفض روزفلت إبعادهم وفصلهم من العمل إذا كانت كل جريمتهم هى الشيوعية.

وأدخل فرانكلين روزفلت العديد من الإصلاحات فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد رفع الحد الأدنى للأجور فى أمريكا عام ١٩٤٠ وكان وقتها ٤٠ سنتاً فى الساعة كما أصدر قوانين الاستثمارات والتأمينات والمعونة الزراعية وأعاد تقسيم الدولار بما يساهم فى تدعيم الاقتصاد الأمريكى وضاعف المنح الحكومية .. وواجه أكبر أزمة بطالة تشهدها أمريكا حتى عصره عندما كان عدد العاطلين يزيد عن ١٠ ملايين شاب وفتاة وقال لا تخافوا.. فليس أمامنا مانخافه سوى الخوف نفسه وأقام بعدها سلسلة من المشروعات العملاقة لاستيعاب المتعطلين من شباب أمريكا.

وكان روزفلت متأثراً جداً بالإعاقة وشديد الاهتمام بالمعوقين وخاصة مرض شلل الأطفال، وقد أمر بتخصيص كل إيراد حفلاته التى تقام فى أعياد ميلاده لمعالجة المرضى المصابين بالشلل فى العيون المعدنية بجورجيا وجمع فى السنة الأولى من رياسته ما يزيد عن مليون دولار ولما زاد ما جمع عن الحاجة أمر بتخصيص جزء من الأموال لمعهد الأبحاث الأهلى لكساح الأطفال وجزء آخر للأبحاث التى يقوم بها العالم الأمريكى ادوارد سولك لاكتشاف

مصل للوقاية من شلل الأطفال والتى أكملها بعد وفاته العالم بروس سابين مكتشف مصل شلل الأطفال بالتنقيط عن طريق الفم ومن مواقفه الشهيرة.. ما حدث بينه وبين المستر ميرفى رئيس الحزب الديمقراطى الذى ينتمى إليه وذلك بسبب ترشيح ميرفى لرجل لخوض الانتخابات النيابية فى أمريكا وقد رآه روزفلت فى هذا الحين غير جدير بكرسى النيابة.. وعندما رفض رئيس الحزب الأخذ برأيه أعلن روزفلت كراهيته للحزبية والأحزاب وقال فى خطاب استقالته من الحزب:

«إن احترام الرجل لضميره خير له ولأمته من الانقياد لرئيس حزب»

ثم كان أن انتصر الناس لروزفلت وخذلوا مرشح الحزب.

ولا ينكر أحد أن روزفلت كان مخططاً ذكياً وقائداً حربياً ممتازاً رغم أنه لم يمارس فنون القتال أو يدرسها أو يتخصص فيها.. والمعروف أنه تقدم بخطة عظيمة وقت أن كان وكيلاً للبحرية الأمريكية والتى تمكن بها الأسطول الأمريكى فى عملية عرفت باسم «الحصار البحرى» باستخدام الطاردات الخفيفة من مطاردى الغواصات الألمانية حتى غرقت وتبدد الأسطول الألمانى تماماً.. والمعروف أيضاً أن هتلر كان لا يطيق روزفلت ويضيق ذرعاً به خاصة بعد تولى الأخير حكم أمريكا واشتراكه فى الحرب العالمية ضد قوات المحور وقد قال هتلر يوماً كنوع من السخرية من أمريكا ورئيسها «إن الجهل الثقافى منتشر فى الولايات المتحدة، وأوضح ما تكون هذه الظاهرة فى تمجيد الشعب الأمريكى لنجوم ونجمات السينما ولذلك فإننا لن نسمح لروزفلت وهو بهذه العقلية أن يحكم على ألمانيا ولعل التصريحات التى يدلى بها للصحف تكشف عن مرض عقلى فهو بسبب الهستريا التى يعانيها يقود الشعب الأمريكى كله إلى الهيستريا وهل هناك دليل على هذه الهيستريا أقوى من إذاعة تمثيلية فى الراديو عن أشخاص هبطوا من المريخ فى شيكاغو.. وروزفلت أمريكانى يشغل نفسه بهذه التفاهات»...

وروزفلت كان مغرماً بالمغامرات والإثارة فقد كان أول رئيس أمريكى يطير عبر المحيط الأطلنطى.. فقد سافر جواً فى يناير عام ١٩٤٣ لحضور مؤتمر الدار البيضاء والذى اجتمع فيه مع تشرشل رئيس وزراء بريطانيا.. كما أنه أول من فكر فى استخدام الإذاعة للوصول إلى الشعب والتواصل معه من خلال البيانات والخطب التى كان يلقيها إلى الشعب الأمريكى طوال فترة حكمه.. وتقول المؤلفة الأمريكية «فرانسيس بيركنز» فى كتابها «روزفلت كما عرفته» والذى نشر عام ١٩٥٣ أن روزفلت كان يريد أن يفجر مفاجأة بعد نهاية حكمه.. فقد فكر فى الإقامة بالمملكة العربية السعودية لأنه كان متألماً لهذا الكم الشاسع والمساحات الهائلة من الأراضى الصحراوية التى لاتجد من يزرعها.. وفى إحدى زياراته إلى السعودية سأل الملك الراحل عبد العزيز آل سعود: لماذا لا تزرعون هذه الأراضى وتستفيدون من إنتاجها.. فرد الملك عبد العزيز: لدينا مشكلة فى الرى.. وستواجهنا هذه المشكلة إذا فكرنا فى

الزراعـة.. فـاقـترح روزفلت على الملك أنه يمكنه أن يحفـر آباراً لعـمق ٥٠ قـدم ويسـتـخـدم الطلمبات ومضخات الميـاه لرفع المياه الجوفية وزراعة الأرض.. وهز الملك رأسه موافقاً.. وهنا قال روزفلت للملك عبد العزيز آل سعود: أريد أن أقيم في السعودية أنا وزوجتي إليانور بعد نهاية فترة الحكم لأزرع لك هذه الأرض.. ورحب الملك باقتراح روزفلت وقال له: «البلاد بلادك ومرحباً بك في أي وقت».. ومات روزفلت قبل أن يحقق رغبته ولكن الملك عبد العزيز لم يلبث أن استخدم فكرة روزفلت في زراعة بعض الأماكن في الصحراء السعودية..

روزفلت وعلاقاته النسائية

كان فرانكلين روزفلت في شبابه كثير الشراب لدرجة إدمانه للكحوليات كما أنه كان شديد الغرام بالنساء وقد تعرف على فتيات أمريكيات وأوروبيات جميلات منهن موريل روبنز وابنة عمه هيلين روزفلت وماري نيوبولر وفرانسيس بل وأليس سوهير وكان يحب الجنس لدرجة شديدة والمعروف أن إصابته بالشلل عام ١٩٢١ لم تعوقه عن ممارسة الجنس ولم يصاب بأي نوع من أنواع العجز الجنسي أو ضعف في أداء قدراته الجنسية..

ولقد كانت هناك نقطة تحول شديدة في علاقة الحب الجميلة بين فرانكلين روزفلت وزوجته إليانور حينما اكتشفت أن زوجها يخونها مع سكرتيرتها الخاصة لوس ميرسر ابنة العشرين، واستطاعت أن تؤكد ذلك عندما عاد فرانكلين من رحلته إلى أوروبا مصاباً بالتهاب رئوي حاد فقامت إليانور بفتح حقائب زوجها فاكتشفت رسائل غرامية بينه وبين لوس ميرسر.. وكانت لوسي كاثوليكية ولم يكن ممكناً لفرانكلين أن يتزوجها حتى لو طلق إليانور التي وضعته في مأزق صعب حينما طلبت الطلاق بالفعل وكان ذلك قبل أن يصل فرانكلين إلى البيت الأبيض ووجد أن في مطلب إليانور تدميراً لحياته السياسية والشخصية معاً وأنه من رابع المستحيلات أن يصل إلي البيت الأبيض إذا استغل خصومه هذه الفضيحة.. ولكن والدته سارة تدخلت في الأمر وحاولت أن تقنع إليانور بالصفح عن زوجها خاصة بعد أن أكدت الأم لها أن فرانكلين سيترك لوس نهائياً ووافقت إليانور في مقابل أن تهجر فراشه.. ولكن فرانكلين الذي كان يشغل وقتها بعض مساعد وزير البحرية الأمريكية نقل لوسي من نيويورك إلى مقر البحرية في واشنطن واستأنفا علاقتهما بعيداً عن سطوة ونفوذ إليانور واستعان روزفلت وقتها بدبلوماسي بريطاني من أصدقائه ليظهر معهما في الأماكن العامة حتى يتمكن أن يبرر روزفلت لزوجته إذا ما وصلت إليها أخبار بأن لوسي كانت بصحبة صديقه وليس بصحبته وزاد الأمر تعقيداً خاصة بعد أن اكتشفت إليانور بعض الرسائل الجديدة بين روزفيلت ولوسي والتي عرفت من خلالها أنهما نزلا معاً أكثر من مرة في أحد فنادق شاطئ فرجنيا وكانا يقضيان الليل معاً كالأزواج.

وأمام ثورة إليانور اضطر روزفلت هذه المرة أن يتخلى بالفعل عن لوسي والتي أصيبت بإحباط شديد جعلها تقبل الزواج من أرمل في ضعف عمرها..

ولكن روزفلت لم يأخذ عبرة من الماضي.. فعلى الفور عين سكرتيرة جديدة له اسمها ميسي وأشرف بنفسه على اختيارها وبدأت قصة حب جديدة بين روزفلت وميسي في صفحة جديدة من صفحات علاقاته النسائية.. وكانت ميسي مسئولة عن صحة فرانكلين الذى كان يطبق برنامجاً للعلاج الطبيعي بالسباحة لتقوية ساقيه بعد إصابتها بالشلل.. وكان يقضي مع ميسي أياماً كثيرة في ولاية فلوريدا وهو يتدرب معها على تقوية ساقيه بالسباحة.. وكانت لها غرفة نوم خاصة لكن حمامها كان ملحقاً بغرفة روزفلت. ولم تمنعه إصابته بالشلل من ممارسة الجنس أو الغرق في علاقة غير شرعية مع سكرتيرته ميسي.. ومن العجيب أنه بلغت درجة تعلق روزفلت بميسي أنه عندما أسس مركزاً لرعاية المعوقين خصص لنفسه جناحاً يقضي فيه وقته مع ميسي حتى أن زوجته كانت عندما تزوره تبدو هي الضيفة وميسي صاحبة البيت.

ورغم كل ذلك فقد وقفت إليانور خلف زوجها وكانت بمثابة المدفع الذى أطلق فرانكلين روزفلت على الشعب الأمريكي فدوت قنبلة الحرية والرخاء وكانت أجل قنبلة تسقط على أمريكا في تاريخها.

ويذكر بنجل كاوثودن مؤلف كتاب الحياة الجنسية لرؤساء الولايات المتحدة الأمريكية أن فرانكلين روزفلت خرق كل القواعد الجنسية وأباح لنفسه المحذورات داخل البيت الأبيض على مدى تاريخه في الحكم وأنه عرف بأنه الرئيس المغرم لعشق السكرتيرات.. فهو لم يترك سكرتيرة في البيت الأبيض إلا وأقام معها علاقة جنسية كاملة رغم ساقية المشلولتين... ويذكر مؤلف الكتاب أن هذه اللامبالاة من جانب فرانكلين تجاه مشاعر زوجته إليانور جعلتها تصاب بعقدة شديدة ورغبة في الانتقام من زوجها فأقامت علاقة جنسية مع حارسها الشاب الذى غرقت معه في الغرام ولما أبعده روزفلت مارست الشذوذ مع صديقة لها كانت تعمل مراسلة لوكالة الأسوشيتدبرس في البيت الأبيض ولما طرد روزفلت المراسلة أقامت إليانور علاقة مع شاب اسمه (جوزيف لاشي) واتضح بعد ذلك أنه يخضع لمراقبة أمنية مكثفة وكانت النتيجة هي قيام هذه الأجهزة الأمنية بتسجيل أشرطة لسيدة أمريكا الأولى وهي في أوضاع جنسية في فراش هذا الشاب المحذور أمنياً.

هكذا كان انتقام إليانور روزفلت.... من زوجها الذى راوغ كثيراً محاولاتها المتكررة لإعادته إلى قلبها وحدها..

فرانكلين روزفلت ورحلة المرض

المعلومات المتوفرة عن رحلة الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت مع المرض غير وافية وليست بالدقة التي تجعلنا نثق في أن نكتب تاريخاً مرضياً لهذا الزعيم.. والعجيب أن كثير من الكتاب والمؤلفين قالوا أن فرانكلين روزفلت أصيب بشلل الأطفال وهو في التاسعة والثلاثين من عمره؟!! ولم يتورعوا في أن يذكروا ذلك صراحة!! بل إن بعضهم كتب يؤكد أن العالم الشاب إدوارد سولك كان يراقب بعينه دائماً فرانكلين روزفلت ويسأل وفي عينه حيرة بالغة:

«ما الذي أقعد الرئيس وجعله كسيحاً غير قادر على الوقوف على قدميه؟»

وأن هذا العالم مدفوعاً بحبه لفرانكلين روزفلت اكتشف أنه أصيب بشلل الأطفال وأنه راح يجري تجاربه العلمية والمعملية لإنتاج مصل جديد ينقذ به البشرية من وباء شلل الأطفال الذي أصاب الرئيس... وهذا بالطبع له مردوده العلمي الذي سيأتي لاحقاً!!

والمعروف أن روزفلت أصيب بالشلل في ساقيه عام ١٩٢١ وأنه خضع لعلاج طبيعي مكثف عن طريق تقوية ساقية بتدريبات السباحة المستمرة وبالفعل بدأت تظهر بعض نتائج هذا العلاج واستطاع روزفلت أن يستعيد بعضاً من قوة ساقيه..

وقد أكد أحد الأطباء الأمريكيين أن روزفلت كان يعاني من السرطان عندما أعاد ترشيح نفسه للرئاسة لفترة رابعة.. كما يذكر الدكتور هاري جولد سميث أن روزفلت كان مصاباً بنوع من سرطان الجلد وأكد أن جميع الصور الفوتوغرافية التي التقطت له عام ١٩٤٤ كانت تظهر هالة داكنة اللون حول عينه اليسرى.

وبالطبع لا يمكننا الجزم بصحة هذه المعلومات.. فعندما مات روزفلت في أبريل عام ١٩٤٥ كانت بالطبع الوسائل الطبية التشخيصية غير مؤهلة لتشخيص هذه الأمراض الدقيقة ولم يكن العلم قد قفز القفزات القوية التي قفزها في تشخيص الأمراض وعلاجها كما نرى الأن.. بالإضافة إلى أن فرانكلين روزفلت نفسه لم يشكو من أي أعراض تشير إلى إصابته بالسرطان.. ولكن الثابت تاريخياً أنه قد مات معانياً من إصابته بنزيف حاد في المخ بعد إعادة انتخابه للرئاسة لفترة حكم رابعة وقد أكمل نائبه هاري ترومان هذه الفترة كما ينص الدستور الأمريكي بعد أن قضى فرانكلين روزفلت قرابة ١٢ عاماً و ٣٩ يوماً رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية.

ويجب أن نأخذ في الاعتبار أن شخصية فرانكلين روزفلت، كانت شخصية عظيمة تقبل التحدي وتؤمن بالتصميم وقوة الإرادة.. ولا شك أن إعاقته أعطته نوع من الإرادة الصلبة والرغبة في تحقيق وإثبات الذات مهما كانت النتائح و المضاعفات.. ونفسية المعوق

تأخذ كثير من البحث والدراسة خاصة إذا أصبح هذا المعوق بطلاً قومياً أو زعيماً شعبياً أو نجماً من نجوم المجتمع وعادة ما تبعث الإعاقة نوعاً من التصميم فى رغبة صاحبها فى التفوق حتى يدفع الناس عن النظر إلى إعاقته بالنظر إلى أمجاده وقراراته وإنجازاته المؤثرة فى من حوله.. وقد يدفعه الأمر إلى القيام ببعض التصرفات التى ربما تكون خاطئة ليقول للناس أو لنفسه على الأقل أنه مازال كما هو.. وأن شيئاً لما يتأثر أو يتغير بتأثر حالته الصحية.

حقيقة المرض الذى أصاب فرانكلين روزفلت

أسرف المؤلفون والباحثون فى حياة روزفلت فى الاعتقاد بأنه قد أصيب بمرض شلل الأطفال POLIOMYELITIS والذى لم يكن منتشراً فى هذا الوقت ولم يكن العلماء قد توصلوا بعد إلى مصل للوقاية من هذا المرض.. وبمراجعة التاريخ المرضى للرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت أستطيع أن أجزم بأن المرض لم يكن له علاقة من قريب أو بعيد بمرض شلل الأطفال وهذا لأسباب علمية واضحة.. وأول هذه الأسباب أن فرانكلين روزفلت أصيب بالمرض الذى أقعده عن الحركة وهو بالغ من العمر ٣٩ عاماً وهذه العمر لا يمكن أن يصاب فيها أى إنسان بمرض شلل الأطفال.. لأنه ببساطة شديدة نوع من الشلل الذى يهاجم الإنسان فى سن الطفولة ولا يتعدى سن الإصابة به ١٥ عاماً.. كما أن شلل الأطفال يمكن أن يصيب أجزاء أخرى كثيرة من جسم الإنسان بخلاف الساقين مثل جزع البطن والذراعين والرقبة ويمكن أن يصيب أيضاً عضلات الجهاز التنفسى والحجاب الحاجز فيعجز الإنسان عن التنفس ويكون مصيره الموت.. وبالطبع هذا لم يكن موجوداً فى حالة فرانكلين روزفلت... والمتفحص فى الحياة الخاصة للرئيس روزفلت يعرف أنه لم يتأثر جنسياً وأنه كان يمارس حياته الجنسية بنهم شديد وهذا ما يؤكد أن الأمر بعيد كل البعد عن شلل الأطفال الذى يمكن أن يؤثر على القدرة الجنسية للرجل وخاصة إذا أصاب الحبل الشوكى وهو ما يعرف باسم SPINAL POLIOMYELITIS كما أن شلل الأطفال يمكن أن يؤدى إلى ضعف فى بعض مهام أجهزة الجسم الفسيولوجية فمثلاً يمكن أن يؤدى إلى ضعف فى القدرة على السعال وارتجاع المخاط فى الأنف وضعفاً فى العضلات التى تحتضن الغدد الدمعية عند البكاء.. فيبدو الإنسان كما لو كان غير قادر على البكاء كما أنه يمكن أن يؤدى إلى حالة من عدم التركيز والنوبات التشنجية المتكررة وهذا النوع من الشلل يعرف باسم SPINOBULBAR POLIOMYELITIS وبالطبع فإن كل هذه الأعراض لم تكن متوفرة لدى فرانكلين روزفلت، ولكن يمكن القول بأن ما وقع فيه المحللون والمؤرخون الذين تناولوا حياة روزفلت من خطأ يعود إلى نوع من عدم توافر المعلومات عن مرض شلل الأطفال أو عن هذه الأمراض التى تعوق حركة الإنسان بصفة مهمة وهذا بالطبع لاختلاف طبيعتهم المهنية التى تبعد تماما عن مهنة الطب بالإضافة إلى أن معظم هذا

الخطأ قد تناولته الصحف والمجلات إلى حدما عن المصادر العلمية..

وفى إعتقادى أن فرانكلين روزفلت كان مصاباً بنوع من الوهن والضمور الشديد فى عضلات الساقين وهو ما يعرف باسم MUSCULAR DYSTROPHY وأنه قد أصيب فجأة بحالة من الوهن الشديد فى العضلات الذى يمكن أن يتبعه ضمور فى شكل وحجم هذه العضلات بالساقين.. وهذا الضعف والضمور له أنواع كثيرة منها ما يمكن أن يصيب الإنسان فى سن متقدم مثل السن التى أصيب فيها روزفلت بالمرض (حوالى ٤٠ عاماً) وفى هذه الحالة يصبح الإنسان غير قادر على الوقوف على ساقيه ولا يستطيع السير باستخدامها. وتصبح كل تنقلاته إما على عكازين أو باستخدام الكرسى المتحرك..

وأغلب الظن أن المرض الذى عانى منه فرانكلين روزفلت لن يخرج عن كونه واحداً .. عدة أمراض.. أهمها مرض بيكر BECKER'S MUSCLAR DYSTROPHY وهو مرض عادة ما يكون . جذور متعلقة بالوراثة.. ويجعل الإنسان لا يستطيع الاعتماد على ساقيه أثناء السير نظراً .. أصابهما من وهن وضمور شديدين.. إلا أنه يمكن للإنسان المريض أن يلقى بعد التحسن إذ قام ببعض تدريبات العلاج الطبيعى المستمر..

غير أن هناك نوع آخر من ضعف وضمور العضلات يعرف باسم وهن العضلات التسممى أو TOXIC MYOPATHY والذى يتسبب فى ضعف أداء العضلة وتوقفها عن العمل مما .. يؤدى إلى ضمورها وهذا نتيجة تناول بعض العقاقير التى تؤخذ بصورة مزمنة أو للإسراف الشديد فى تناول الكحوليات كما كان الأمر فى حالة فرانكلين روزفلت.

وهناك أيضاً ما يعرف بوهن العضلات الفيروسى أو VIRAL MYOPATHY والذى يصيب الإنسان نتيجة تعرضه لهجوم فيروسى صاحبه بعض المضاعفات وربما هذا يتمشى مع القصة المذكورة عن إصابة روزفلت بالمرض بعد قيامه بإطفاء حريق بإحدى الغابات وهو بلباس البحر وأنه تنقل مراراً بين البرودة والحرارة، ومن الممكن أن يؤدى ذلك بالقطع إلى حالة من التعرض لعدوى فيروسية مثل الأنفلونزا مثلاً والتى تطورت مضاعفاتها إلى الحد الذى أصاب العضلات بهذا الوهن والضمور الفيروسى وعموماً فإن هناك أنواع كثيرة من وهن وضعف العضلات الذى يمكن أن يصيب عضلات الساقين ويمنع الإنسان عن السير والتحرك.. وغالباً ففى كل هذه الحالات قد لاتتأثر الحالة الجنسية كما يمكن أن يحدث فى حالة الإصابة بشلل الأطفال..

وليس أدل على صحة هذا الاعتقاد من ذكر حقيقة مهمة وهى أن روزفلت كان يتبع نظاماً علاجياً خاصاً يعتمد على العلاج الطبيعى عن طريق تقوية ساقيه بتدريبات السباحة وبالفعل فقد ذكر أن هذا العلاج أثمر عن نتائج جديدة أدت إلى أن تقوى عضلات الساقين بصورة طيبة وهذا ما لا يمكن حدوثه مطلقاً فى حالة الإصابة بشلل الأطفال إذ لايفيد العلاج الطبيعى فى شفاء مثل هذه الحالات.

الدوافع المرضية لقرارات روزفلت

كما ذكرت من قبل فإن شخصية الإنسان المصاب بإعاقة ما في جسده تخلق داخله نوعاً من التحدى والتصميم على القيام بأعمال غير عادية يمكن أن تصنع له المجد والاحترام في عيون الآخرين وتجعلهم يقدرونه حق التقدير ويشغلوا بشخصيته وأعماله عن إعاقته وعندما يتكلمون عنه لايقولوا الشخص المعاق فلان.... بل يقولوا البطل بغض النظر عن إعاقته.

ويحضرني هنا ما ذكرته لي يوماً زميلة صحفية تعمل صحفية في جريدة كبرى عندما كانت تشكو من رئيسها وأفعاله وتصرفاته الغريبة البعيدة عن المنطق وحدود العقل كانت تقول لي.. أنه كان ينتظر ما تقوله ليقول عكسه تماماً.. فمثلاً إذا طلبت منه إجازة رفض بدون إبداء الأسباب.. وإذا ظلت شهوراً طويلة تعمل.. سألها لماذا لا تأخذ إجازة؟!!! وفي يوم من الأيام طلبت منه أن يأذن لها بسيارة الجريدة حتى تتمكن من الإسراع بتغطية حدث مهم من أرض واقع.. وفوجئت به يسألها ما اسم السائق.؟. فقالت له: مش شغلى.؟ فقال لها: مش شغلك إزاى إعرفى اسم السواق.. وخرجت تسأل هنا وهناك ولما عادت له باسم السائق سألها: مين المصور.. فقالت: هاشوف الفاضى وهأخذه.. فقال لها: إزاى لازم أعرف اسم المصور.. ودارت الدورة السابقة مرة أخرى وعندما عادت إليه باسم المصور أعطاها التصريح دون أن يكتب فيه اسم السائق أو المصور وللأسف لم تستطع أن تلحق الحدث المهم الذى كانت تريد تغطيته.. ومرت الأيام وكان لي طلب ما عند هذه الشخصية.. ولما حاولت مقابلته تركني على باب مكتبه مدة كافية يمكن أن أفهم منها أنه لايريد أن يرى وجهي وعندما دخلت عليه اكتشفت الصدمة.. لقد كان هذا الرئيس قزماً.. كما أنه كان رفيعاً جداً..وشعرت أنني أريد أن أضحك، فلأول مرة أرى قزماً بهذه النحافة.. وهنا أدركت أن هذا الرجل يعانى نفسياً من مركب نقص بسبب شكله المثير.. وأنه يحاول أن يدفع بشخصيته القاسية والمعقدة كل الناس لكى لاينظروا إلى إعاقته ولكن ينشغلوا في هيبته..

ويعظم هذا الإحساس بالذات لدى شخصية المعاق الذى يخجل من إعاقته ويريد أن يخفيها عن الناس.. فلا يظهر في المجتمعات ولا يشترك في الأنشطة المختلفة إلا إذا كان هناك ما يدفع عنه خجله أمام جموع الناس..

وهذه هي حالة فرانكلين روزفلت تماماً.. فقد كان يعانى من مركب نقص شديد بعد إصابته بضمور العضلات الذى سبب له حالة من الشلل جعلته أسيراً للكرسى المتحرك وصديقاً لكلبه الشهير «فلا» الذى كان يصاحبه في كل مكان.. وكان روزفلت يرفض بشدة أن تلتقط له صوراً فوتوغرافية يظهر فيها الكرسى المتحرك الذى يجلس عليه وهذا جعلنا نفسر وجود صورتين له فقط في أرشيفه وهو جالس على الكرسى المتحرك.. رغم أن هذا الكرسى لم يفارقه أبداً وقد حاولت زوجته إليانور كثيراً أن تقضى على مركب النقص في حياة روزفلت واستطاعت بالحب والشفافية والعلاقة الصادقة أن تخرج زوجها من عزلته ولكن بعد أن تعلم كيف يوجه مركب النقص في شخصيته ليصبح مركب من الإعجاب

والبطولة وإلتفاف الملايين من حوله..

ولا شك أن إصابة روزفلت بنوع من الشلل قلب حياته رأساً على عقب لأنه كان عظيماً من البداية وقوياً فى صفاته الشخصية وبدا أنه صاحب مبدأ وقرار وفكر.. وكان صعباً عليه أن يرى عظمته تستند على عكازين وقوته تتحرك فوق كرسى بعجلات.. وكان لزاماً عليه أن يغير الصورة فى نفوس المحيطين به ويخلع من ذاكرته صورة فرانكلين العاجز المسكين ليزرع مكانها صورة فرانكلين القوى الشجاع.. وينشغل الناس بالصورة الثانية على حساب الصورة الأولى..

وأول الدوافع التى يمكن أن نرجعها إلى التركيبة الشخصية لروزفلت بعد محنة مرضه هو قراره والتزامه الشخص بالتعاطف مع الفقراء والمطحونين من أبناء الشعب الأمريكى والثورة على الأرستقراطيين والنبلاءوالذى كان بنفسه واحداً منهم وينتمى إليهم وأى إضرار بمصالحم يضر بمصالحه مباشرة.. كما لايخفى أن زوجته إليانور كانت من عائلة ثرية وأرستقراطية هى الأخرى وبالتالى فإن تقرب روزفلت من الطبقة الكادحة من الشعب الأمريكى وهو ليس منهم على حساب الطبقة الأرستقراطية التى خرج منها هو أمر يدفعنا إلى الدهشة. والتعجب خاصة وأنه لم يشعر بآلام الطبقة الكادحة ولا بمعاناتها الشخصية ومشاكلها اليومية والحياتية وهذا يجعلنا نؤكد أن شخصية روزفلت تأثرت كثيراً بعد مرضه فأصبح نصيراً للضعفاء وفى نفس الوقت حقق مجده الشخصى وقضى على مركب النقص فى حياته وأصبح الشعب الأمريكى ينظر إليه نظرة احترام على أنه الشخص القوى الذى يحمى الضعفاء من بطش الأقوياء والفقراء من سيطرة الأغنياء ولا ينظر إليه كشخص معوق وضعيف لا حول له ولا قوة.

وإحساس فرانكلين روزفلت بأنه موضع اختيار للقدرة بصفة دائمة جعله يقدم على فعل أى شىء وكل شىء... وفى اعتقادى أنه كان يتصرف بطاقة عشر رجال معاً.. وكان يتحرك على مقعده أو بعكازين حركات كثيرة غير معتادة ولا مبرر لها...

ومغامرات فرانكلين الجنسية تعتبر من الأحداث التى يجب التوقف عندها طويلاً.. فبالرغم من أن مغامراته الجنسية كادت أن تفقده أحلامه فى الوصول إلى البيت الأبيض إلا أنه أصر عليها بل إنه تمادى فيها أكثر مما كان عليه ومارس الجنس بكل أشكاله وألوانه فى علاقات غير شرعية وهو الرجل القعيد المريض. ولم يترك إمرأة جميلة فى البيت الأبيض إلا وصنع معها علاقة ارتقت بعد ذلك إلى الغرام المحرم.. إلى الدرجة التى دفعت زوجته إلى الإصابة بعقدة نفسية وهى ترى زوجها الذى وقفت بجواره يتخلى عنها ويتركها إلى أحضان أخرى وهذه العقدة أدت إلى فضيحة كبرى فى نهاية حكم روزفلت عندما سجلت لإليانور أشرطة وهى فى أوضاع جنسية مع عشيقها.. والسؤال لماذا كل هذا النهم الجنسى لرجل عاجز فى أوقات كان العالم يضج فيها بنيران الحرب العالمية الثانية؟!

ولماذا الإسراف فى خيانة الزوجة والتى بدونها ما كنا سنسمع عن فرانكلين روزفلت فى كتب التاريخ.... وتاريخ الولايات المتحدة بالتحديد؟!

الأغلب أن السبب في ذلك هو إثبات الذات والاستمرار في محو مركب النقص من ذاكرة كل المحيطين به وأنه رجل طبيعي مثل كل الرجال..!!!

وروزفلت كان عاشقاً للتحديات ومستمراً في خوضها.. فقد فشل في انتخابات نائب الرئيس وهو سليم ومعافى فقرر أن يدخل الانتخابات على منصب الرئيس وهو مشلولاً وحصل وقتها على أكثر من ٥٣٠ صوتاً من أصوات المجمع الانتخابي في حين حصل منافسه على ٨ أصوات فقط.. والرئيس روزفلت كان كما ذكرت أول رئيس لأمريكا يغامر بعبور الأطلنطي جواً للقاء تشرشل في الدار البيضاء عام ١٩٤٣ من خلال هذه الرحلة الجوية المثيرة.. والمعروف عن فرانكلين روزفلت أنه يصنع بمرحه نوعاً آخر من أنواع دفع الأنظار عن إعاقته والتركيز على شخصيته وقد حدث يوماً أن التقى بتشرشل رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت وبعد الاجتماع ذهب تشرشل لحجرته وعندما سأل عليه روزفلت قالوا له إنه يستحم.. فسابق روزفلت الريح على كرسيه المتحرك كالأطفال ودخل على تشرشل وهو يستحم.. وفوجئ تشرشل العارى بروزفلت أمامه وهو يضحك ويقول له: جئت لأرى ما تخفيه عني فرد تشرشل: أتراني أخفي الآن شيئاً عن رئيس أمريكا.

وربما كان في هذه المزحة رسالة إلى تشرشل هذا السياسي العجوز..

والرئيس فرانكلين هو أيضاً الذى قرر الاهتمام بمرض الشلل وكساح الأطفال وأمر بإقامة دور لرعايتهم الصحية والنفسية والعلمية كما أنه شجع الأبحاث العلمية التى يقوم بها العلماء للتوصل إلى علاج لكساح الأطفال والبحث عن مصل وقائى ضد هذا المرض وبالطبع فإن نظرة الرئيس إلى هذه النوعية الخاصة من المرضى يرجع إلى إحساسه بأنه واحد منهم.. وأعتقد أن قراره بدعم البحث العلمي الطبى يعود بالقطع إلى إصابته بمرض كان مجهولاً أمام الأطباء في هذا الوقت... ولكن البحث العلمي الطبى في أمريكا لم يتوقف بعد ذلك عند المرض الذى أصاب روزفلت.. ولكنه تخطى ذلك بكثير وانطلقت أمريكا في مجال الطب انطلاقات مدوية إلى أن أصبحت هي مدرسة الطب والبحث العلمي في العالم الآن..

وفى الحرب العالمية الثانية جاب روزفلت العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فوق كرسيه المتحرك ليقول لكل القوى العالمية أننى موجود.. وعندما حانت لحظة التدخل لم يتورع دقيقة في إعلان اشتراكه في الحرب ليثبت للعالم كله أن الرئيس القعيد يمكنه أن يحطم أسنان الأعداء ويقذف الرعب في قلوبهم.. والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية هى التى أنهت الحرب العالمية بعد وفاة روزفلت..

ونستطيع أن نجزم الآن بأن فرانكلين روزفلت كان يستمد قوته وقدراته على إعطاء القرار من إعاقته ذاتها.. لأنه كان يرغب أن يعلن للناس بأنه ليس ضعيفاً وأنه قوياً وعظيماً.. لذلك أحبه العالم قبل أن يحبه الأمريكيون لأنه لم يكن يؤمن مطلقاً بالفشل الذى قال عنه يوماً: «إن الإخفاق مهما جعل المستقبل في عيني المرء أسوداً حالكاً.. فإن خير وسيلة للتغلب على الفشل أن ننساه، ثم نستأنف الجهاد مصرين على النجاح بثقة وعزم»..

هذه كلمة رجل معوق.. أذهل البشرية.. حقاً... إن كل ذى عاهة جبار.

محمد رضا بهلوى

«وكفن..... بلا جيوب»

توقفت كثيراً أمام شخصية الشاه محمد رضا بهلوى التى أصابتنى بالذهول والدهشة وأنا أستخلص المعلومات عن حياته من مصادر مختلفة فى مصر والعالم.. وكنت إذا وقع فى يدى كتاب يحكى قصة حياته، أو يتعرض لسياساته داخل إيران أو خارجها.. ما استطعت أن أتركه قبل أن أحصد كلماته حصداً مهما بلغ عددها أو عدد صفحات الكتاب الذى يحتويها فى سطوره الهامة والمؤثرة..

وقد يسألنى البعض.. لماذا هذا التأثر بما قرأت عن الشاه!!؟.

والإجابة ببساطة أننى وجدت فى شخصيته كثيراً من المتناقضات التى يستحيل أن تجتمع فى شخصية إنسان واحد.. بل فى شخصية قائد عرف معنى الحكم منذ نعومة أظافره.. هذه المتناقضات تجمعت بكل صراحة فى شخصية الشاه!!. وبكل قوة وبأس استطاع أن يتحمل الصراع الداخلى الذى يدور فى عقله بين القوى المتناقضة التى جمعتها شخصيته..

ولد محمد رضا بهلوى فى السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٩١٩ وقد تربى الشاه تربية قاسية على يد أبيه الضابط القديم «رضا شاه» وقبل أن يتم الشاه عامه السادس، كان أبوه قد أحكم قبضته على فارس فى انقلاب عسكرى ناجح ونصب نفسه «شاه فارس» بعد أن خلع السلطان أحمد ميرزا عن الحكم ليقبع رضا شاه على العرش الفارسى وليصبح محمد رضا نفسه ولياً للعهد.

وكان للشاه أختاً توأماً تدعى «أشرف»، وقيل أنها كانت صاحبة شخصية شديدة ومتسلطة، وأن شقيقها الشاه قد تأثر كثيراً بعلاقته بشقيقته التوأم، وقد جلس محمد رضا بهلوى على العرش فى ١٦ سبتمبر عام ١٩٤١ عندما تحالف السوفييت والبريطانيون الذين كانوا يحتلون إيران وقتها على والده رضا شاه وأرغموه على التنازل عن العرش الفارسى لابنه الذى كان يبلغ من العمر وقتها اثنين وعشرين عاما.. وقد هبت عواصف كثيرة على الفترة التى حكم فيها محمد رضا بهلوى إيران والتى إمتدت إلى ما يقرب من ٣٨ عاماً من الحكم..

والعاصفة الأولى التى هبت على تاجه كان وراءها السوفييت، وبسبب البترول فى عام ١٩٤١، حيث احتل السوفييت إقليم أذربيجان الشمالى تنفيذاً لمعاهدة ١٨٢١، وانتهت الحرب العالمية الثانية دون أن تفكر موسكو فى سحب قواتها من الإقليم الذى أعلن انفصاله بتحريض من حزب «توده» الشيوعى القوى.. وكان السوفييت يحاولون إبقاء أصابعهم فى

تلك المنطقة البترولية، القوية ولكن الشاه محمد رضا كان قد خطط لعملية عسكرية مفاجئة نجح في تنفيذها عام ١٩٤٦ واستطاع على أثرها أن يخرج السوفييت من أذربيجان وأن يخمد تمرد الانفصاليين.

ولم يستطع الشاه أن يتمتع بالهدوء الذى كان يرجوه خلف أسوار قصر «جولستان» الأسطورى والذى يعد أعظم القصور الملكية على وجه الأرض.. لأن سياسته أثارت سخط جميع فئات المواطنين من رجال الدين والإقطاعيين والشيوعيين مدعمين بمساندة قوية من طوائف الشعب، وقد نجحوا في تشكيل معارضة ساخنة وقوية ضده.. ولم يمر سوى أعوام بسيطة حتى غرق الشاه في المتاعب، والسبب البترول أيضاً.. بعد أن دخل في مواجهة مع رئيس وزرائه الدكتور محمد مصدق في ٨ مارس ١٩٥١ الذى قرر تأميم بترول إيران مما أدى إلى تصاعد النزاع بينه وبين الشاه.. وساعدت المخابرات المركزية الأمريكية شاه إيران على استعادة الزمام في وجه مصدق وأنصاره، ليعود من جديد محمد رضا بهلوى الرجل الأول والوحيد في إيران.

وكان الشاه قد تزوج من الأميرة «فوزية» شقيقة الملك فاروق ملك مصر السابق وذلك بعد تلقيه الأمر من والده بالسفر إلى مصر والتقدم لخطبة الأميرة فوزية من شقيقها الملك فاروق، وبالفعل سافر الشاه إلى مصر، وأمضى فيها أياماً بسيطة تزوج خلالها الأميرة فوزية، وعاد بها إلى إيران لتكون زوجته الأولى التى سرعان ما طلقها في ١٩ نوفمبر عام ١٩٤٨ لأنها لم تنجب له وريثاً للعرش.. وفي ١٦ فبراير ١٩٥١ تزوج الشاه من الأميرة ثريا اصفنديارى، وكانت رائعة الجمال.. وقد كان الشاه يعانى من عقدة الاختيار بعد أن طلق الأميرة فوزية لأنها كانت شديدة الحسن والجمال.. ولم يكن الشاه قد رأى قبلها فتاة في روعتها وسحرها.. لذلك ظل ثلاثة سنوات بدون زواج إلى أن تزوج من الأميرة ثريا التى كانت هى الأخرى شديدة الفتنة والجمال، واستطاعت أن ترضى غرور الشاه.. وخلال هذا الزواج تعرض الشاه لعاصفة جديدة.. فقد أعد عدته للقضاء على رئيس وزرائه محمد مصدق نهائياً عن طريق محاولة للانقلاب والإطاحة به على يد مجموعة من الضباط المؤيدين للشاه.. ولكن باءت هذه المحاولة بالفشل.. وقام مصدق بالقبض على رجال الشاه الذى أصبح وضعه حرجاً للغاية، فلجأ إلى بغداد في ١٦ أغسطس ١٩٥٣ ثم إلى روما، حتى استطاع الجنرال زاهدى الذى يدين بالولاء لشاه إيران الإطاحة برئيس الوزراء في ١٩ أغسطس ١٩٥٣ وعاد الشاه إلى إيران منتصراً في الثانى والعشرين من نفس الشهر..

وفي ٦ أبريل ١٩٥٨ طلق الشاه الأميرة ثريا.. والتقى لأول مرة بفرح ديبا حين كانت من بين مجموعة من الطالبات اللاتى نلن منحة السفر والدراسة في باريس وجاءت تبعاً للبروتوكول تنتظر دورها لتحية الشاه وتشكره، أما اللقاء الثانى فقد تم عندما دعتها الإمبراطورة الأم إلى زيارة القصر بصفتها صديقة شاهيناز ابنة الشاه من الأميرة فوزية، ولكن الشاه لم يهتم بها أما الأمبراطورة الأم فقد كان لها رأياً آخر.. واستطاعت أن تلفت انظار

الشاه إلى فرح ديبا، والتى تزوجها بالفعل فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٥٩.. وبعد تسعة أشهر فقط أنجبت له وَلى عهده الأمير رضا.. كما أنجبت له تباعاً الأميرة فرح ناز والأمير على رضا والأميرة ليلى والتى كانت تبلغ من عمرها ٩ سنوات وقت وفاة الشاه ورحيله عن العالم.

وكان الشاه قد انتهج سياسة فى حكمه أثارت حالة من السخط العام من جماهير الشعب واستياءاً شديداً من رجال الدين، خاصة وأنه بدأ يمتهن حرمة الإسلام، ويعيش حياة من الترف والبذخ والإسراف الذى لاحدود له، فى نفس الوقت الذى كان شعبه فيه معدماً وفقيراً.. ويعانى من أزمات اقتصادية واجتماعية طاحنة ترجع إلى انعدام العدالة الاجتماعية، وسوء توزيع ثروات البلاد على أبناء الشعب الإيرانى، وعدم سيطرة إيران على انتاجها من البترول، وكل ذلك جعله يواجه اضطرابات شديدة فى عام ١٩٦٣ أثارها آية الله الخمينى الزعيم الإسلامى المتشدد.. ولم يكن أمام الشاه إلا أن يطرده من إيران عقاباً له، فلجأ الخمينى إلى تركيا ثم إلى العراق.. ولكنه لم يتهاون يوماً واحداً فى الإعداد للثورة الإسلامية والإطاحة بشاه إيران.. فأستمر الخمينى فى دعم وتخطيط الحركة الثورية داخل إيران من منفاه إلى الحد الذى أشعل المظاهرات العمالية ضد الشاه فى نوفمبر ١٩٧٧، وأعقبها اضطرابات شديدة فى مدينة «قم» والتى سقط ضحيتها ٦٠ قتيل، واضطر الجيش للتدخل لوقف الاضطرابات والمحافظة على عرش الشاه بعيداً عن الأنواء.. ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد فبلغ عنف الثوار ذروته، وبلغ عنف الشاه مدى لم يصل إليه من قبل، فقد أطلق النار على المتظاهرين فى سبتمبر ١٩٧٨ وأردى سبعمائة قتيل، وعرف ذلك اليوم بيوم الجمعة الأسود.. كما أطاح الشاه بأرواح ستين ألف من الشباب والفتيات فى أحداث القمع التى استخدم فيها كل وسائله لاخماد الثورة مهما اختلفت شرعية هذه الوسائل.. ومهما فاقت حرمتها حدود الوحشية والحيوانية.. وكل هذا اضطر الخومينى ان يكثف ضغوطه فى التخطيط ويدعو من منفاه إلى الاطاحة بالشاه حتى أن العراق قرر طرده من البلاد فى أكتوبر عام ١٩٧٨ خشية حدوث مزيد من الشروخ مع الحكومة الإيرانية.. وخرج الخمينى من منفاه فى العراق إلى باريس واستطاع فى أول عام ١٩٧٩ أن يؤسس مجلساً للثورة الإسلامية ليهز بها ٢٥٠٠ عاما كاملة من عمر واحدة من أقدم امبراطوريات العالم.

وكان شاه إيران يحلم بأن يرى إيران مع مطلع عام ٢٠٠٠ الدولة الخامسة فى العالم من حيث القوة والمكانة وذلك بعد الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وإنجلترا.. وحاول وضع خطة إصلاح فى ثورة بيضاء يحارب بها الأمية والتخلف والجهل ويحرر المرأة من قيد العبودية لتأخذ دورها على الساحة وتشارك الرجل جنباً إلى جنب فى رحلة البناء والكفاح.. وكان الشاه يفكر أن يوجه كل دولار يحصل عليه من بترول بلاده إلى تحقيق أحلامه... ولكن الأحلام تحولت إلى سراب... واستفز الثراء الفاحش الذى كان يعيش فيه الشاه رجال الدين والملاك وطوائف الشعب العامة... وكانت هذه هى بداية النهاية فى حكم الشاه.

وعن بذخ الشاه وتطرفه في انفاق الأموال.. يمكن أن ندون عشرات المراجع التي تدفعنا إلى تحليل الشخصية النفسية لهذا الرجل، والذي أعتقد أنه وصل إلى درجة لم يكن يعرف معها كيف ينفق أمواله!! فقد أشارت جريدة «نيويورك تايمز» أن ثروة الشاه بلغت ٢٠ مليار دولار نقداً وعداً في بنوك سويسرا، وأنه يمتلك أكواماً لاتعد ولا تحصى من السجاد الإيراني الثمين... بالاضافة إلى ١٥ قصراً منيفاً من القصور الملكية الأسطورية المنتشرة في كافة بقاع الأرض... وكان للشاه أسهماً لاحد لها في ٢٧ بنك عامل وشركات تأمين في دول وقارات العالم.. ويمتلك ملكية مطلقة وخاصة ٢٥ شركة لصناعة المعادن، و٨ شركات للتنقيب والبحث في المناجم ،و٤٥ شركة للأشغال العامة، و١٠ شركات لمواد البناء، و٤٣ شركة لصناعة وتجارة المواد الغذائية في مختلف دول العالم، و٢٦ شركة تجارية أخرى تزاول أنشطة متعددة هذا بالإضافة إلى استحواذه على ٧٠٪ من دخل المشاريع الفندقية في إيران.

والشاه بهلوى كان موهوباً في صرف الأموال وفي إقامة حفلات البذخ التي تفوق في تصورها الأحلام، والتي خلقت إحساساً بالثورة داخل كل مواطن إيراني يعيش فوق أرض إيران أو خارجها... وقد كان للشاه سقطتين كما يذكر المحللون السياسيون لهما الأثر الشديد في إطلاق شرارة الثورة ضده، وأول سقطاته كانت في تنظيمه لحفل كبير بمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على تأسيس إمبراطورية الفرس والتي أسسها قورش عام ٥٥٩ قبل الميلاد، وقد دعا إليها الشاه ٩ ملوك و٥ ملكات و١٣ أمير و٨ أميرات و١٦ رئيس دولة و٣ رؤساء للحكومات المختلفة و٩ شيوخ وسلاطين... وأستطاع أن ينفق في هذا الحفل ٥٠٠ مليون دولار على مدى ثلاثة أيام فقط!!..

أما السقطة الثانية، فقد كانت في إقامته لحفل آخر عام ١٩٧٦ بمناسبة احتفاله بالذكرى الخمسين لتأسيس أسرة بهلوى... وقد أنفق فيه ٥٠٠ مليون دولار أخرى!! وأعلن وقتها إلغاء التقويم الإيراني المعتمد على هجرة الرسول واعتماده للتاريخ الذي يوافق تأسيس الأسرة الهخامنشية المالكة قبل الإسلام وهو تاريخ تتويج قورش العظيم... ليكون تقويماً رسمياً للبلاد.. وقد آثار ذلك إستياء الشعب وغضب رجال الدين، وعمت حالة من السخط العام الذي لم يعد بعده واجباً أن تترك أى فرصة للشاه لعله يستطيع أن يصلح ما كسره بيده.. وقد أزاد الطين بله أن الشاه بهلوى كان صديقاً حميماً لإسرائيل ومتمسكاً بوجودها... ولا يحيد عن اعترافه بهذه الصداقة.. كما أنه في الفترة الأخيرة لحكمه أهان تعاليم الإسلام. كما هو ثابت فيما كتب عنه قبل وبعد وفاته..

واشتدت الثورة ضد شاه إيران.. وأصبح مهدداً بالإطاحة بحكمه، وربما بالإغتيال.. وهنا أعلن بكل غرور وتكبر أن من يريد أن يتحداه عليه أن يخترق سداً من ٧٠٠ ألف جندى يحمون عرشه.. وعندما كان مستشاروه يحذرونه من إندلاع الثورة والإطاحة كان يقول: الثورة يمكن أن تقوم في إيران ولكن أنا الذي سأقودها!!!

ولكن الخناق ضاق عليه في عام ١٩٧٨ ونصحته المخابرات الأمريكية بأن يترك البلاد

ولو مؤقتاً كما حدث أثناء ثورة مصدق عام ١٩٥٣ .. وبالفعل جمع الشاه كل مقتنياته وأمواله وخرج مع أسرته فى ١٦ يناير ١٩٧٩ إلى أسوان وأعلن أنه سيقضى أجازة سنوية .. ثم قضى بها ستة أيام ومالبث أن تركها متوجهاً إلى الرباط عاصمة المملكة المغربية .. وفى ١ فبراير ١٩٧٩ عاد آية الله الخمينى زعيم الثورة الإسلامية إلى طهران ليقود الثورة ضد شاه إيران ولينهى قرابة ٣٨ عاماً من حكم الشاه .. الذى كان مازال خارج البلاد .. ولم يمضى شهر حتى بدأ الضيق يظهر على الأفق من استضافة المغرب لشاه إيران .. وكانت الدول تخشى على مصالحها فى مختلف أنحاء العالم من جراء تهديد الخومينى لضرب مصالح الدول التى كانت تفكر فى استضافة الشاه فى ذلك الوقت ومطالبته للمجتمع الدولى بأن يقوم بتسليم الشاه للثورة الإسلامية حتى يمكن محاكمته .. وكانت تهديدات الخومينى جادة ولا تحتمل القيل والقال، فقد احتلت السفارة الأمريكية فى طهران فى ٤ نوفمبر ١٩٧٩ من قبل رجال الثورة والطلبة، وتم احتجاز ٥٠ رهينة فى الوقت الذى سافر فيه الشاه إلى الولايات المتحدة الأمريكية للعلاج فى خضم سلسلة البحث عن مكان يأويه ودولة تحميه.

وأمام إصرار الرباط على مغادرة الشاه لأراضيها وصل إلى جزر الباهاما فى ٢٩ مارس عام ١٩٧٩، ثم إلى المكسيك من يونيو فى نفس العام، ثم إلى بنما حيث أقام فى جزر كونتا ودورا، وعندما ساءت حالته الصحية معانيا من مضاعفات مرض السرطان لبى دعوة الرئيس أنور السادات التى كان قد أرسلها له مع أشرف غربال سفير مصر فى الولايات المتحدة الأمريكية فى الوقت الذى كان يعالج فيه الشاه فى أمريكا، وفيها دعاه السادات إلى العلاج والإقامة الدائمة فى مصر .. وقد وصل الشاه محمد رضا بهلوى شاه إيران إلى مصر فى ٢٥ مارس عام ١٩٨٠ ليبدأ الفصل الأخير من فصول حياته فى أقوى مواجهة فى تاريخه .. مواجهته مع المرض ..

الشاه على فراش المرض

لهذا الرجل قصة طويلة ودامية مع المرض، استمرت ما يقرب من ٢٦ عاماً .. وتنوعت فيها الأحداث المرضية التى تعرض لها الشاه .. فقد عرف آلام البطن والجراحات منذ أمد بعيد .. كما أنه تعرض للاصابة بالفشل فى وظائف بعض الأعضاء الهامة فى الجسم .. وأصيب أيضاً بأمراض واضطرابات نفسية بالغة الصعوبة وأنتهت حياته متأثراً بمرض السرطان.

فقد ذكرت بعض المراجع والمؤلفات العالمية التى تخصصت فى التاريخ والتعليق على حكم الشاه، أنه قد أصيب بانفصام بالشخصية منذ مرحلة المراهقة، ولذلك فهو يقوم بتصرفات فى غاية التناقض، ولايمكن أن تصدر عن شخصية واحدة .. وقد دللوا على ذلك

بأن الشاه كان يتمسك دائماً بتراب إيران إلى حد التعصب الشديد الذى لا هوادة فيه، وفى الوقت نفسه نجده مبهوراً بالحضارة الأوروبية ويريد أن ينقلها بحذافيرها لبلاده.. كما أنه كان يتكلم كثيراً عن الهوية والحضارة والتراث ووقفته إلى جانب الحق العربى والإسلامى، واستعداده للدفاع عن المقدسات الإسلامية فى الأراضى المحتلة.. حتى أنه يعد إيران لتصبح القوى الخامسة على مستوى العالم مع مطلع عام ٢٠٠٠، وفى نفس الوقت فإنه يعترف بصداقته لإسرائيل، ويهين تعاليم الدين الإسلامى.. ويسرف فى إنفاق موارد إيران فى حفلات البذخ والترف، فى نفس الوقت الذى كان يعيش فيه الشعب الإيرانى فى حالة من الفقر والضياع قبل سيطرته على موارده وبخاصة من البترول.. ويذكر أيضا أنه عندما جاءت التحذيرات إلي الشاه من اندلاع الثورة ضده.. أكد أنه يعرف أن الشعب الإيرانى مطحون ومكدور ويعيش حالة من الاستفزاز وأنه بنفسه سيقود الشعب للثورة.!

والسؤال.. هل يقود الشاه الشعب للثورة ضد الشاه؟.

وهل يتزعم محمد بهلوى الثوار للإطاحة بمحمد بهلوى؟.

والثابت أن محمد رضا كان قد تعرض فى صغره لتربية قاسية من والده كما أن شقيقته التوأم «أشرف» كانت تتسم بالغلظة وردود الأفعال العنيفة والقوية ويبدو أنه قد حدثت شروخ كثيرة فى شخصية الشاه فى فترة المراهقة، جعلته يصبح عرضة لبعض الخلل النفسى والذى انعكست أثاره بالطبع على فترة حكمه.

وفى عام ١٩٥٤.. كانت البداية الحقيقية لمعاناة الشاه مع المرض، فقد شعر ببعض التورمات فى الرقبة وفى منطقة الإبط، وعلى الفور سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ودخل الشاه مستشفى نيويورك، وبعد إجراء الفحوصات اللازمة تبين أن هذه التورمات هى عبارة عن تضخم فى الغدد الليمفاوية وذكر وقتها أن هذا التضخم يعود إلى بعض الالتهابات فى الغدد الليمفاوية، وفى ٢٧ مارس ١٩٥٨.. تعرض الشاه لظروف مرضية حرجة، حيث لاحظ تكرار التضخم فى الغدد الليمفاوية فى أماكن متفرقة بالجسم.. كما أنه بدأ يشكو من آلام بالصدر والرقبة والذراع الأيسر.. وأصيب الشاه بانهيار عصبى حاد، وبدأ الأمر يأخذ ستار من السرية، ومنعت صدور أى نشرات طبية عن حالة الشاه.. وقد استدعى القصر البروفيسور «فلينجر» أخصائى الأمراض الباطنية بمدينة ڤيينا والذى أكد أصابة الشاه بأورام خبيثة، وقصور شديد بالدورة الدموية التاجية للقلب، وتصلب بالشرايين..

وفى ٢٥ يناير ١٩٦٦ وصل شاه إيران إلى ڤيينا للاستجمام والعلاج وإجراء بعض الفحوص الطبية للوقوف على حالته الصحية.. وفى عام ١٩٦٧ أصيب الشاه ببعض الفشل فى أداء وظائف الكلى.. مع تكرار حدوث الآلام بمنطقة الحوض والجانب الأيمن.. وقد تم استدعاء أطبائه المعالجين، وقد تمكنوا من السيطرة على هذه الآلام، إلا أنهم قرروا بعد فحص الشاه أكلينيكيا أنه مصاب أيضا بالتهاب بالزائدة الدودية.. جنبا إلى جنب مع آلام الكلى،

وتم إجراء جراحة عاجلة له تم فيها استئصال الزائدة الدودية....، وفى ٢٤ نوفمبر ١٩٦٧ شهدت صحة الشاه تدهورا ملحوظاً، وتم نقله فوراً إلى مستشفى كورنيل ميديكال سنتر بولاية نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية.. وأعلن وقتها القصر أن التحليلات أثبتت احتمال إصابة الشاه بالسرطان، ولكن حدث نوعا من التعتيم الإعلامى على التفاصيل الخاصة بحالة الشاه بعد ذلك..

وفى أواخر عام ١٩٧٣ تأكد أن الشاه مصاب بسرطان الدم «اللوكيميا» وقد شخص المرض الطبيب الفرنسى «چورچ فلاندرين» أخصائى أمراض الأورام والغدد الليمفاوية واللوكيميا.. وظل يعالج الشاه فى صمت ولايعلم أحد شيئا عن تطور حالته المرضية سوى أسرته وأقرب المقربين إليه..

واستمرت الحرب دائرة بين الشاه وبين المرض اللعين الذى يسيطر عليه، وهو يحاول أن يتغلب عليه بالعلاج الكيميائى والاشعاع واستخدام العقاقير الطبية ونقل كميات من الدم من نفس فصيلته، وكانت الأمور تتحسن حينا وتسوء فى أحيان كثيرة، حتى اشتدت المعارضة الداخلية والخارجية ضد الشاه.. ووجد نفسه محاصراً بين فلول الغاضبين والثائرين من أبناء الشعب الإيرانى من جهة وبين مضاعفات المرض التى بدأت تشتد وتكشر عن أنيابها بعنف، حتى خرج الشاه من إيران مجبرا فى عام ١٩٧٩، وهنا بدأت تسوء حالته النفسية جدا.. وأصيب باكتئاب حاد خاصة فى الفترة التى قضاها متنقلا مابين المغرب وجزر الباهاما والمكسيك، حيث كان يعيش الرجل كالمجذوم، وتشعر الدول والحكومات بكثير من الحرج لوجود الشاه على أرضها وأحس الرجل لأول مرة بأن كل ملياراته فى بنوك العالم لايمكن ان تعطيه فى هذه الفترة العصيبة شيئاً من الأمان.. وأنه لايستطيع أن يطأ بقدمه أرض أى قصر من قصوره المنيفة المترامية فى كل أنحاء العالم.. وكان طبيعيا أن ينهار، ويرى الدنيا مظلمة فى وجهه وبالذات وهو مستهدف من شعب كامل لم يكفه أنه خلع قائده وانقلب عليه.. ولكنه يريده حيا ليثأر لنفسه من فترة حكم طويلة عاشها الشعب تحت سيف القهر والبطش والطغيان.. وهذه الحالة النفسية جعلت الشاه يصاب بحساسية شديدة للنزف، كما ظهرت أورام جديدة على جانبى الرقبة مما أضطر أطباؤه إلى استئصالها جراحيا، ولم تمضى شهور بسيطة فى منفاه المتنقل حتى اكتشف أطباء الشاه وجود التهاب شديد بالمرارة مع تكون حصوات بكيس المراة والقناة المرارية.. وطلب الشاه أن يذهب إلى الولايات المتحدة لإجراء الفحوصات الطبية.. ووافقت الولايات المتحدة على إعطائه تأشيرة الدخول حيث دخل مستشفى نيويورك فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٩، وبعد يومين من دخوله أجرى له الجراحون بالمستشفى جراحة لاسئصال المرارة، كما أثبتت نتائج التحاليل الطبية والمعملية أن الشاه يعانى من مرحلة متأخرة للغاية من السرطان فى الجهاز الليمفاوى.. وبعد اسبوعين اندلعت فى طهران المظاهرات لتندد بأمريكا التى تستضيف الشاه على أراضيها، وقام الطلاب الإيرانيون باحتلال السفارة الأمريكية فى طهران واحتجاز خمسين رهينة فى أسوأ أزمة

سياسية شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية.. واضطرت الإدارة الأمريكية إلى تغيير سياستها تجاه الشاه الذى أصبح بالنسبة لها ورقة خاسرة تهدد مصالحها فى مختلف أنحاء العالم..

وغادر الشاه مستشفى نيويورك فى ٢ ديسمبر ١٩٧٩ متوجهاً إلى مستشفى لاكلاند بولاية تكساس لقضاء فترة نقاهة، ثم غادر الولايات المتحدة بناء على إلحاح أمريكى فى ١٥ ديسمبر من نفس العام ليقيم فى جزيرة كونتا ودورا فى بنما.. وهناك واجه الشاه أسوء مراحل المرض وكان نزيلاً فى مستشفيات بنما.. وحاول كثيراً أن يعود للولايات المتحدة لإنقاذ مايمكن إنقاذه من ويلات المرض التى يتعرض لها فى كل لحظة من لحظات حياته.. ولكن هذه المرة رفضت أمريكا ان تمنحه تأشيرة الدخول لأراضيها وشعر الشاه بآلام نفسية لأن صديق الأمس تخلى عنه اليوم وهو فى أشد الحاجة وأمسها إليه.. ولكن الولايات المتحدة أرسلت أطباءها إلى بنما لمباشرة علاج الشاه.. ورفض حاكم بنما عمر تريجوس السماح لأى طبيب أجنبى بفحص الشاه وهو لايحمل ترخيصاً من حكومة بنما كما رفض استضافة أطباء أمريكيين بعد أن نمت إليه معلومات دقيقة عن الإعداد لمحاولة اغتيال الشاه عن طريق جراح أمريكى كان سيجرى له جراحة عاجلة لاستئصال الطحال.. وصرح عمر تريجوس بأن مافعله ليس قيداً على الشاه ولكن حفاظاً عليه، وأنه حر فى التوجه إلى أى مكان فى العالم..

وفى هذا الوقت كانت الدلائل والأبحاث تشير إلى أن الطحال فى جسد الشاه قد بدأ يتحول إلى غول مفترس يلتهم الصفائح الدموية ويهدد صحة الشاه بالاعتلال خاصة وقد أصابه هزال شديد.. وكانت جراحة استئصال الطحال أمراً حتمياً وطارئاً فى سبيل إنقاذ حياته، وأن إجراءها كان ضرورياً فى خلال ساعات وإلا فإن حياة الشاه ستصبح مهددة بالخطر.. وهنا تذكر الشاه الدعوة التى تلقاها من الرئيس الراحل أنور السادات للعلاج والإقامة فى مصر.. وقرر أن يحزم حقائبه ويغادر بنما مع أسرته إلى القاهرة.

الشاه مريضاً فى مصر

وصل الشاه إلى مصر بصحبة أسرته فى ٢٢ مارس ١٩٨٠.. وكان فى استقباله بمطار القاهرة الرئيس الراحل أنور السادات والسيدة قرينته.. وفور هبوط الشاه من الطائرة لاحظ السادات أنه أصبح هزيلاً غائر العينين، وأنه فقد كثيراً من وزنه وبدا فى حالة صحية متأخرة للغاية.. فلم ينتظر السادات حتى يصل إليه الشاه ولكنه أسرع بمقابلته أمام سلم الطائرة، واحتضنه وبكى الشاه أمام السادات.. وكان أول ماتحدث فيه مع السادات هو شكواه من الولايات المتحدة التى رفضت إعطاءه تأشيرة الدخول للعلاج مرة أخرى.. وهنا خفف السادات عنه وقال له: المهم صحتك.. وسأله عن رحلته وكيف قضاها من بنما إلى القاهرة ولكن الشاه كان مرهقا، ولم يعد قادراً على الاستفاضة فى الحديث، وأراد أن ينتقل فوراً إلى

المستشفى.. ولكن السادات أصر على استقباله استقبال الرؤساء والزعماء وقادة الدول، فاصطحبه إلى قصر القبة، وأقام له استقبالاً رسمياً كنوع من التكريم للشاه.. وبعد ذلك توجه الشاه إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى بصحبة الرئيس السادات وقرينته السيدة جيهان السادات.. وقامت إدارة المستشفى بتخصيص الدور الثانى والغرف من ٢٠١ إلى ٢١٥ لإقامة الشاه حتى يستريح بعض الوقت بعد رحلته الشاقة من بنما إلى القاهرة، وبدأ الأطباء على الفور فى فحص الشاه، وعمل الأبحاث الطبية والتحاليل المعملية اللازمة كنوع من الاستعداد لإجراء جراحة استئصال الطحال، وعلى الفور تم تشكيل فريق طبى مصرى أمريكى فرنسىَ وذلك بعد استدعاء الدكتور فلاندران والأمريكى مايكل دبيكى والذى وصل إلى القاهرة على رأس فريق طبى مكون من ستة أطباء واشترك فى الفريق من الأطباء المصريين الدكتور طه عبدالعزيز والدكتور زكريا الباز والدكتور محمد عفيفى.

وفى هذا الوقت قامت الدنيا ولم تقعد، لأن السادات تحدى إيران والعالم العربى والإسلامى، بل لا أبالغ إذا قلت أنه تحدى حالة الاستياء الشديدة التى كان ينظر بها إلى الشاه فى معظم دول العالم.. وقرر أن يستقبل الشاه فى مصر.. وعندما استقبله فى مطار القاهرة أسرع أحد الصحفيين يسأل الشاه:- هل ستقيم فى مصر؟ ولم يترك السادات فرصة للشاه كى يجيب وقال: نعم سيقيم إقامة دائمة..، وقتها عقد السادات مؤتمراً صحفياً عالمياً ألقى فيه كلمة قصيرة قال فيها: «أهلى وشعبى فى مصر.. أنا فخور بكم.. فخور أننى كبير العائلة المصرية التى وقفت أمام العالم كله، لتقول أن هناك قيماً، وهناك عيباً وهناك حدوداً لكل مايمكن أن يقوم به البشر.. أنا فخور بكم أهلى وشعبى ولو لم يتحقق فى فترة حكمى إلا موقفكم معى من شاه إيران لاعتبرت هذا أروع إنجاز ممكن أن ينتهى به حكمى»..

هكذا كان يرى الرئيس أنور السادات أن وقفته فى هذا المحنة جنباً إلى جنب مع شاه إيران وأسرته أمراً يمكن أن يختتم به حياته، وهو مطمئن، وقد كان السادات يعزى ذلك إلى أخلاق الإسلام الذى علمنا الرحمة، وإغاثة الملهوف والوقوف بجانب الضعفاء فى أوقات المحن، وأخذ السادات يشحذ الرموز الدينية والوطنية فى مصر لتأييد موقف مصر من الشاه، وانه برر وقفته مع الشاه كنوع من رد الجميل له وقال السادات: أن الشاه كان يمد مصر بالبترول فى حرب أكتوبر بلا مقابل.. وأنه أول من أصر على الحضور إلى القاهرة عندما قررت مصر فتح صفحة جديدة مع إسرائيل ليسارع بموافقته على مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات.. وسُئل السادات فى المؤتمر الصحفى: ماردكم على النقد الموجه لسيادتكم من الملوك والرؤساء العرب؟ فقال السادات وهو يكتم غيظه: إنى صائم وأخشى أن أقول ماهو غير ملائم..

وفى اليوم التالى لوصول الشاه إلى مصر أجريت له عملية نقل دم وكانت هناك مشكلة فى العثور على فصيلة دمه «ب سالب» وهى من الفصائل النادرة جداً والمعروف طبياً أن هذه الفصيلة تمثل نسبة ١٤٪ فقط من فصيلة دم «ب» وقد تم التغلب على هذه المشكلة فى

أول مرة بعد أن تم العثور على متطوعين من نفس الفصيلة، وفى مساء يوم ٢٨ مارس ١٩٨٠ أجريت للشاه جراحة إستئصال الطحال بمستشفى المعادى بعد أن تمكن منه السرطان بدرجة مخيفة، وأجرى العملية أطباء مصريين وأجانب برئاسة الدكتور مايكل دبيكى واستغرقت الجراحة ساعة وعشرين دقيقة، وظل الشاه تحت الرعاية الطبية حتى يوم ١٩ إبريل ١٩٨٠..

وساءت حالة الشاه بعد إجراء الجراحة، وتدهورت تدهوراً شديداً، وبدأ يشعر بارتفاع فى درجة الحرارة وهبوط فى الوزن حتى أصبح وزنه ٥٠ كيلو جراماً فقط. وفى مستشفى المعادى أُكتشف وجود خراج أسفل الحجاب الحاجز من الناحية اليسرى نتيجة التهاب بالبنكرياس.. وقيل وقتها أن الدكتور دبيكى أخطأ فى إجراء الجراحة الأولى. فقد لط الجراح الأمريكى ذيل البنكرياس عند استئصاله للطحال فحدث بعض النزيف، ولكن الجراح ضغط على مكان النزف مما أدى إلى تكوين حويصلة تحولت فيما بعد إلى كيس حدث عليه التهاب، ثم أصبح بؤرة صديدية، وللأسف فقد كانت هذه البؤرة قرب قاع الرئة اليسرى وسبب ذلك إرتشاحا فيها.. وقيل وقتها أن المخابرات المركزية الأمريكية استطاعت أن تنفذ مخططها لاغتيال الشاه ببطء عن طريق الجراح الأمريكى مايكل دبيكى وأنه تعمد إحداث هذه الإصابة بغدة البنكرياس ثم رفض بعد ذلك وضع خرطوم جانبى وهو مايعرف طبياً «بالدرنقة» فى مكان الجرح لسحب التجمعات الصديدية.. وقد أذهل ذلك الأطباء المصريين المشاركين فى الجراحة وحاولوا إقناع دبيكى بوضع الخرطوم ولكن دون فائدة، فقد كان الجراح الأمريكى هو رئيس الفريق وأقدمهم وأكثرهم خبرة، وتعلل بأنه ينتهج أسلوب المدرسة الأمريكية فى الجراحة فلم يضع خرطوماً مكان الجرح ليسحب به التجمعات الصديدية وأى دماء ملوثة من آثار النزف..

وبالطبع كان الشاه مصاباً بسرطان الغدد الليمفاوية ومعنى ذلك أن جهازه المناعى معطل ويعانى من هبوط فى وظائفه ومن السهل أن تكون هذه البؤرة الصديدية كفيلة بالقضاء على حياة الشاه، وسواء كان دبيكى قاصداً من عدمه فإن خطأه هذا عجل بحياة الشاه.. وأدخله فى سلسلة من المضاعفات التى لم يستطع الأطباء إيقاف مضاعفاتها فارتفعت درجة حرارته إلى ٤٠ درجة ولم تفلح أجيال المضادات الحيوية المختلفة فى إيقاف ارتفاع درجة الحرارة، وكان هذا الارتفاع فى الحرارة يعاوده قرابة ٦ مرات فى اليوم، وتستمر المرة الواحدة حوالى ٣ ساعات. ثم أصبح ارتفاع الحرارة مستمراً طوال اليوم تقريبا..

وأنكر مايكل دبيكى مسئوليته عن ماحدث وقال: «إننا فى أمريكا لانضع هذا الخرطوم الذى تتكلمون عنه!!؟ وأننى نجحت فى استئصال الطحال الذى كان مصاباً بالسرطان وانتشر منه إلى الكبد».. وسافر دبيكى إلى أمريكا تاركاً الشاه يواجه المحنة بمفرده.. وقبل أن يسافر منحه السادات نيشان الجمهورية من الطبقة الأولى ومنح فريقه المعاون نفس النيشان من الطبقة الثانية.. وقتها وقف مايكل دبيكى يقول للسادات: عندما يكتبون تاريخ القرن العشرين سوف يجدون هرمين بارزين: تشرشل والسادات، وعندما

سمع شاه إيران هذا التعليق ضحك وقال: كيف يجتمع تشرشل والسادات فالأول هو الذى وضع الثانى فى السجن..

ولم يتوقف علاج الشاه بالعقاقير الكيميائية ولا بالمضادات الحيوية.. ولم يتوقف أيضاً الارتفاع الشديد فى درجة الحرارة.. وفى ٣٠ يونيو ١٩٨٠ أدخل الشاه لغرفة العمليات مرة أخرى لإزالة البؤرة الصديدية الملتهبة بغدة البنكرياس، كما تم سحب الإنسكاب البلورى تحت الرئة اليسرى. وقد أجرى الجراحة فريق طبى مصرى فرنسى وفى هذه المرة تم تركيب خرطوم لسحب الإفرازات والمواد والسوائل الضارة من مكان الجراحة.. ولم تمضى أيام حتى عاد الإنسكاب البلورى مرة أخرى وتجمعت السوائل تحت الرئة اليسرى، ولكن هذه المرة كانت مختلطة بالدماء، وفى ٤ يونيو ١٩٨٠ أصيب الشاه بحالة تلوث عام فى دمائه، وأعلنت درجة الحرارة عصيانها بصورة غير عادية إلى الدرجة التى اضطر عندها الأطباء إلى استيراد مضاد حيوى من فرنسا للقضاء على التلوث مع استمرار تغذية الشاه بالمحاليل المختلفة عن طريق الوريد.. وأصدر مدير مستشفى المعادى نشرة طبية أكد فيها ان استعادة الشاه لصحته لن يكون بسهولة.. وكان الشاه لا يستطيع النوم رغم مايتناوله من عقاقير مهدئة، وأرجع الأطباء ذلك إلى إصابته بأزمة نفسية طاحنة، وبالرغم من ذلك فقد حدث هبوط تدريجى فى درجة الحرارة فبلغت ٣٨ درجة وتم نقل صفائح الدم المركزة لرفع مقاومة الجسم مع الاستمرار فى متابعة الخراج والتشفيط وسحب الإرتشاحات المتكررة مع تدريبات التنفس والقفص الصدرى المستمرة لمحاولة علاج مضاعفات الإرتشاح، والتى نجم عنها إلتصاقات عديدة.. وبدأت الكلى تعمل لأول مرة بكفاءه منذ دخول الشاه إلى مستشفى المعادى، وأفرزت ٢ لتر من البول وبدأ الإقلال من المحاليل التى تم الاستعاضه عنها بتناول الطعام والشراب عن طريق الفم.. وليس خافياً أن الشاه أيضاً كان مصاباً بقصور حاد فى شرايين القلب، وأن آلام القلب عاودته كثيراً أثناء رحلة علاجه بالعقاقير الكيميائية، ولكن أطباؤه كانوا يسيطرون على الموقف بصورة طبيعية وسريعة وكان همهم الأكبر هو محاولة محاصرة السرطان حتى لاينتشر فى كافة أجزاء وأعضاء الجسم.. ولكن باءت محاولاتهم كلها بالفشل..

وفى يوم ١٢ يوليو ١٩٨٠ غادر الشاه فراشه لأول مرة خوفاً من إصابته بقرح الفراش، وخاصة بعد أن تبين وجود خراج جديد فى عنق الفخذ الأيمن من المنطقة الأربية وهى منطقة مليئة بالغدد الليمفاوية المصابة، وهنا أدرك الفريق الطبى المعالج أنه لا أمل فى العلاج بالمضادات الحيوية، وقرروا على الفور إيقاف العلاج بالمضادات الحيوية، ربما ترتفع مقاومة الجسم الطبيعية، وتستطيع التغلب على التلوث البكتيرى الذى تتعرض له الدورة الدموية فى جسد الشاه.. ورأى الأطباء بعد ذلك استئصال خراج الفخذ وبالفعل تم إجراء الجراحة فى يوم ١٦ يوليو ١٩٨٠ بمستشفى المعادى للقوات المسلحة، وكان الخراج فى حجم البرتقالة، ولكن بالرغم من ذلك لم تنخفض درجة الحرارة، بل واصلت ارتفاعها المستمر فى نفس الوقت الذى

كانت فيه مقاومة الجسم قد وصلت لدرجة الصفر، مما اضطر الأطباء للعودة مرة أخرى للعلاج بمضاد البنسلين المائى بمعدل ٢ مليون وحدة كل ٦ ساعات فى محاولة منهم للسيطرة على درجة الحرارة.. ولكن كانت الأمور تسوء دائماً على عكس المخطط لها.. وساءت حالة الشاه بصورة قاسية.. ودخل فى حالة أشبه بالغيبوبة، ولما وصلت هذه المعلومات عن صحة الشاه إلى الرئيس السادات وجه دعوة لجموع الشعب المصرى للصلاة من أجل شاه إيران..

ومنذ وصول الشاه إلى مصر أجريت له ٤٠ صورة أشعة من نوع إكس و٥٢ تحليلاً لدم وبول الشاه و٢٢ عملية نقل دم، وأشرف على علاجه فى المرحلة مابعد إجراء استئصال الطحال ٢١ طبيباً منهم ١٥ طبيب مصرى و ٥ أطباء فرنسيين وطبيب أمريكى متخصص فى طب الأورام..

وأصيب الشاه بصدمة فى الدورة الدموية وتوفى على أثرها فى ٢٧ يوليو ١٩٨٠ ووقف السادات ينعى الشاه ويبكيه وهو يقول: أن الرجل اختار وهو يعانى أخطر مضاعفات المرض أن يحضر إلى مصر لأنه يطمئن ويثق فى كلمة مصر، وشرف مصر.. وكان له ما أراد بل لعله يستشف الغيب عندما ردد أنه يرجو أن يموت على أرض مصر، عندما تحين الساعة ولقد كانت رغبة الشاه أن تكون جنازته بسيطة بعيدة عن الإجراءات..

ورفض السادات دعوة الرؤساء والملوك للاشتراك فى الجنازة ولكن حرص أن تكون رسمية وعسكرية بما يليق بمكانة الشاه كرئيس سابق لإيران.. وبدأت الاستعدادات على قدم وساق ليدفن الشاه إلى جانب والده بجوار الملك أحمد فؤاد فى مسجد الرفاعى.. وقد حضر الجنازة الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون وقسطنطين ملك اليونان السابق وممثل عن المغرب..

وصدر تقرير طبى عن وفاة الشاه ذيله اللواء طبيب أحمد سامى كريم مدير مستشفى المعادى للقوات المسلحة وقيل فيه: أنه نفذت إرادة الله ومشيئته وفاضت روح الشاه فى ٢٧ يوليو ١٩٨٠ إثر تأثره بصدمة فى الدورة الدموية، نتيجة مضاعفات متعددة، وإصابته بتلوث فى الدورة الدموية وأجريت له الاسعافات اللازمة بالعناية المركزة ولكن دون جدوى.. وقد وقع على هذا التقرير كل من:

الدكتور طه عبدالعزيز الطبيب الخاص للرئيس السادات وأخصائى الباطنة والقلب، واللواء دكتور زكريا الباز رئيس أقسام الباطنه واللواء دكتور عبدالحميد لطفى رئيس أقسام الجراحه واللواء دكتور عبدالقادر عثمان رئيس قسم جراحة القلب والصدر، واللواء دكتور فؤاد نور رئيس قسم جراحة الأورام، واللواء طبيب محمد عفيفى رئيس قسم أمراض الدم والمعامل، والعميد طبيب أحمد عبدالله استشارى العناية المركزة والتخدير والدكتور چورچ فلاندران أخصائى أمراض الدم بباريس، والدكتور بيير لويس أخصائى جراحة الجهاز الهضمى بباريس، والدكتور دنيس أخصائى العناية المركزة بباريس..

ومات الشاه.. محمد رضا بهلوى شاه إيران الذى ظل يحلم طوال حياته بإيران العظمى.. لدرجة أنها لم تكن تغيب عن عينه.. ثم غابت هى عن عيون الشاه.. وكان آخر مايحتفظ به من رائحتها وعبقها حفنة من تراب إيران.. أخذها بيده قبل أن يترك البلاد ويستقل طائرته إلى المنفى..

هكذا يموت الأسياد والأمراء.. ويلفظون أنفاسهم.. بعد أن ظنوا لأمد بعيد يعتقدون أن الموت بعيد عن رقابهم..

تأثير المرض على فكر وعقلية الشاه

حين نقترب من شخصية الشاه محمد رضا بهلوى نجد أن بها متناقضات كثيرة وغير طبيعية تدفعنا على الفور إلى البحث عن نوعية هذه الشخصية من الناحية النفسية، والمعروف لدى علماء الطب النفسى أن هناك ستة أنواع من الشخصيات غير السوية التى تحدد التركيب النفسى للإنسان والتأثيرات النفسية الواقعة عليه، وهذه الشخصيات هى الإنطوائية والتابعة والهيستيرية والانفصامية والوسواسية وأخيراً الشخصية الإضطهادية المتكبرة.. وفى اعتقادى أن الشاه محمد رضا بهلوى لم يكن مصاباً بإنفصام فى الشخصية كما ذكرت بعض المؤلفات والصحف المصرية والعالمية والتى تناولت حياة الشاه بعد وفاته ولكن أثرت فى شرح التاريخ المرضى له أن أذكر هذا الرأى مع أننى أعارضه لأسباب علمية واضحة.. وقبل أن أتحدث فى هذه الأسباب أحب أن أفصح أن مرض الشيزوفرينيا أو أنفصام الشخصية كما يحب البعض أن يطلقوا عليه معناه أن يصبح للإنسان أكثر من شخصية متصرفه فى شئون حياتية معينة وفى نفس الوقت لاتتداخل شخصية على أخرى، ولاتشعر أى شخصية بتصرف الشخصية الأخرى، ويكون ذلك فى حالة من الانفصام العقلى وتتغيب على أثره إحدى هذه الشخصيات عن الواقع لتترك الفراغ للشخصية الأخرى ثم يحدث تبادل بينهما وهكذا.. ولهذا المرض عدة أنواع والعلاج منه يكون ميئوسا إلى حد ما.. وكما هو معروف علميا أن حالات كثيرة من مرضى الشيزوفرينيا ثبت أنها تعود إلى العامل الوراثى بنسبة كبيرة، وأن هناك فرصة لأن يصبح الأطفال معرضين للإصابة بالمرض بنسبة ١٢٪ إذا ما كان أحد الوالدين مصاباً بالشيزوفرينيا وأن هذه النسبة ترتفع إلى ٣٥٪ إذا كان كلا الوالدين من مرضى الإنفصام العقلى أو الشيزوفرينيا.. والثابت فى حالة شاه إيران أنه لم تصدر أى معلومات تؤكد أن والديه كانا مصابين بهذا المرض.. بالإضافة إلى أن مريض الشيزوفرينيا يكون غالبا وإلى حد بعيد من أصحاب الشخصية الإنفصامية، وهذه الشخصية تتميز بالإنطواء والإنسحاب من المجتمع والخوف من العلاقات الاجتماعية والاختلاط وتصبح عرضه للإصابة بالشيزوفرينيا أكثر من غيرها من الشخصيات الطبيعية، وبالطبع فإن شاه إيران لم يكن من هذه الشخصية مطلقاً والدليل أنه كان اجتماعياً لدرجة كبيرة وتزوج ثلاثة مرات، وكان يهوى إقامة الكثير من الحفلات التى يدعو فيها زعماء العالم، كما أنه كان

يحب الترحال والتجول فى دول العالم وكل هذا يجعلنا نستبعد عنه صفات الشخصية الإنفصامية ذات الأبعاد الإنطوائية.. بالإضافة إلى أن سن المراهقة والذى أدعى المحللون أنها السن التى أصيب فيها الشاه بالانفصام ليست هى السن الشائعة للإصابة بالشيزوفرينيا، كما أن الأسباب الأخرى التى تؤدى للإصابة بهذا المرض لايمكن ثبوتها على الشاه مثل تكرار إصابته بالعدوى الفيروسية وهو صغير أو بأمراض فى المخ وهى كلها أسباب قد تؤهل للإصابة بالمرض، ولكن التاريخ المرضى للشاه لم يتناولها ولم يذكرها دلالة على عدم حدوثها.. وينبغى أن نذكر أنه لم يسجل على الرجل مطلقاً أنه عاش بشخصيتين منفصلتين تماماً لاترتبط كلاهما بالأخرى.. وإلا كان معاونوه ووزراؤه لاحظوا ذلك فى تعاملاتهم اليومية معه بالإضافة أيضا إلى زوجته وأسرته والتى لم يصدر منهم أى شكوى بخصوص هذا الأمر..

ولكن أغلب الظن أن شخصية الشاه كانت هى الشخصية الاضطهادية المصابة بالبارانويا وهى شخصية تعتنق مبادئ خاطئة، وتصر على تنفيذها حتى بعد ثبوت الأدلة أمامها على خطأ هذه المبادئ... غير أنها شديدة الحساسية للنقد والتنديد والتعييب، وتثور إذا ما شعرت بالتحقير والإهانة إلى حد يمكن أن ترتكب فيه أبشع الكوارث للخروج من سجن الإذلال النفسى الذى تعرضت له هذه الشخصية بسبب الإهانة والتحقير.. وهذه النوعية من الشخصيات تدافع عن ماتراه أنه حقها بكافة الوسائل المشروعة، والغير مشروعة وباستخدام القوة والعنف بل تدفع البراهين الكاذبة لإثبات حقها بالإضافة إلى أنهم يشعرون بأهميتهم فى المجتمعات المختلفة وتنتقل هذه العدوى تباعاً إلى أسرهم.

هذه هى شخصية الشاه محمد رضا بهلوى.. فقد كان عنيفاً مع المعارضين ودموياً مع الثائرين ضده إلى حد أنه أباد ستين ألف فتى وفتاة من طلبة الجامعة فى محاولة لردع ثورة الطلاب ضده.. وأسوأ ما كان يضيره هو تحقير زعيم الثورة الإسلامية آية الله الخومينى له.. مما دفعه إلى طرده من إيران ونفيه خارج وطنه، وهذا آثار ضده بالطبع النفوس الثائرة، وأشعل فيها رغبة الانتقام.. والمعروف أيضاً أن الشاه كان يأخذ قرارات خاطئة ومثيرة تعود إلى تركيبته النفسية التى حللناها من قبل.. فمثلاً كان يسمح لنفسه بالتصرف فى مليار دولار كل عام فى أوجه انفاق مختلفة من أجل ما يراه مناسباً لرفع هيبة الدولة وإعلاء مجدها وإحياء تاريخ الإمبراطورية الفارسية القديمة!!

وكان يتكلم كثيراً عن مساندته للدول العربية والإسلامية فى مواجهة إسرائيل وهو فى الأصل كان يمد إسرائيل بالبترول الإيرانى عندما استخدم العرب سلاح البترول فى حربهم ضد إسرائيل، وامتنعوا عن تصدير النفط إلى دول أوروبا وأمريكا.. واستغل الشاه هذه الفرصة ورفع أسعار البترول وباع لإسرائيل وقود آلة الحرب الصهيونية على عكس ما قيل على لسان السادات من أن شاه إيران كان يمد مصر بالبترول بلا مقابل أثناء حرب أكتوبر.

وهذه التصرفات طبعاً تعود إلى شخصية الشاه المصابة بالبارانويا والتى تتصرف تصرفات خاطئة، وتصر على تنفيذها رغم أن أقل قدر من التفكير يجعله يقرر بسهولة أن مصلحته مع العالم العربى والإسلامى وليست مع إسرائيل.

ومما يؤكد أن شاه إيران كان مصاباً بجنون العظمة ما ذكرته الممثلة الإيرانية الجميلة بارفين غفارى عن علاقتها بالشاه وقالت عن نفسها أنها وقعت فى فخ الشاه حتى الظلام، وأنه عاشرها معاشرة حنسية محرمة منذ أن كان شاباً، وكان يضربها ضرباً مبرحاً ويتعامل معها وهى النجمة اللامعة الساطعة على أنها جارية أو خادمة حقيرة فى بلاط ملكه.. وأنه كان نهما جنسياً وممارسته تقترب إلى الحيوانية، وذات مرة صارحته بأنها حامل فركلها ركلة شديدة ومباغته فى بطنها حتى يجبرها على الإجهاض.

وحين قالوا للشاه أن الثوار على مقربة من قصرك وأن الثورة توشك أن تندلع، أجاب بأنه الثائر الكبير فى إيران وأنه سيقود الثورة بنفسه ويبدو أن هذا كان اقتناعه الشخصى ورأيه الذى تمسك به حتى بعد أن رأى نار الثورة تضطرم أمامه وتشتعل فى وحشية وغضب وأن الخطر محدق به لامحاله ولكنه أصر بقوة وثبات على مواقفه الاستفزازية التى تغضب الشعب، واستمر فى نزيف الأموال الذى كان يتقنه ولنا أن نتصور كم تبلغ ثروات إيران إذا عرفنا أن البترول وحده كان يدر عليها مائة مليون دولارمع مطلع كل شمس، ومع ذلك لم يكن لعامة الشعب الحق فى الاستفادة من هذه الثروات.. وهذا ما خلق حالة السخط العام ضد الشاه وساهم فى اسقاطه.. وتصرفه فى هذا الموقف بالذات كان الدليل الأكيد الصادق على شخصيته المصابة بالبارانويا..

وفى هذه الظروف العصيبة وسكينة الإرادة الشعبية فوق رقبة الشاه أعلن بكل تحدى وصلف وغرور أن من يريد أن يتحداه عليه أولاً أن يخترق سداً من ٧٠٠ ألف جندى يحمون عرشه، وهذا هو هوس العظمة الكاذبة بلاشك أو جدال.. ولو كانت هذه العظمة حقيقية، وتستمد وجودها وقوتها من رضاء الشعب المحكوم لما هرب الشاه من إيران فراً وكراً دون أن يحاول أن يستخدم جنوده السبعمائة ألف المدججين بالسلاح، وفى ثورة رئيس وزراءه محمد مصدق.. لم يحاول الشاه النظر حتى فى الأسباب التى دفعت رجله ورئيس وزراءه فى الثورة ضده... بل كان شديد الحساسية بالتنديد والتعييب فى حقه، وهرب للخارج بناءاً على نصيحة أمريكا ولكنه كان يعد الفخ لمصدق على يد واحد من جنرالات جيشه الذين يسبحون بحمد الشاه ليلاً ونهاراً...

وبالتأكيد فإن حجم الثروات الطائلة والتى لانهاية لها وعشرات الشركات والمصانع والمؤسسات التى كان يملكها الشاه واستحواذه على ٧٠٪ من دخل المشاريع الفندقية فى إيران.. لهو تنامى متزايد فى الثروات لا يفسره إلا حب العظمة، خاصة إذا كانت ثروته الشخصية تكفى لإدارة دولة كبرى وأن شعبه فى حاجة لأن يستفيد من ثروات بلاده.. لا أن يستولى عليها الشاه المهووس بعظمته الذى لم يترك شيئاً إلا وبالغ فيه وأسرف فى الانفاق

عليه.. حتى أجهزة التليفون فى قصره كانت من الذهب الخالص المرصع بالأحجار. !!!

إلى هذا الحد يبلغ الثراء؟.

إلى هذا الحد يبلغ الإكتفاء.. وشعوب بأكملها تُباد فى العالم من أثر المجاعات وانتشار الفقر والمرض والضياع؟.

ولن يأخذنا الحديث بالطبع لنتجاوز الأمراض الأخرى التى عانى منها الشاه طوال حياته ويمكن الجزم بأن المرحلة المؤثرة فى مرضه وهي الثمانية عشر شهراً التى قضاها فى نهاية حياته خارج بلاط السلطة يحارب مرض السرطان اللعين.. هى الفترة التى يمكن أن تدفع الشاه لاتخاذ قرارات معينة ومؤثرة ولكنه كان خارج الحكم والسلطة.. وحكمه لم يتأثر بمرضه العضوى كما تأثر بتركيبته النفسية التى توسعت فى شرح جزئية منها.. أما مراحل المرض الأخرى على مدار ستة وعشرين عاماً فى حكمه فالثابت أنها لم تؤثر فى قراراته لأن شخصيته المصابة بجنون الاضطهاد وهوس العظمة كانت أكبر من أن تتأثر بهبوب العواصف المرضية من حين لآخر، فقد كان الشاه يعتقد أنه بعيد عن الموت وأن السد المنيع من جنوده كفيل بأن يدفع عنه كل الشرور والآثام والمحن..... ولا يفوتنى أن أذكر أن الأثر السلبى الأكيد لرحلته المرضية عبر سنوات حكمه هو فى أن المرض جعله أكثر قلقاً وخوفاً على كرسى الحكم الذى خشى أن يتركه دون أن يحقق مجد إيران العظمى..

ولكنه غرق فى العظمة وهوس العظمة...

وبكى الملك الذى لم يبكى من قبل وهو يشكو أصدقاءه الذين نفروا منه فى محنة مرضه..

وفى آخر لحظات حياته.. وعندما أدرك أن اللحظة الحاسمة على وشك الانقضاء طلب من الرئيس السادات أن تكون جنازته بسيطة، وعادية مثل جنازات عامة البشر.. وكان هذا هو أصدق قرار أخذه الشاه فى حياته..

ويبدو أنه تأكد أن الكفن بلا جيوب..

ولكن السادات حرمه من أن يعود إلى ربه بسيطاً كما جاء إلى الدنيا ضعيفاً، وأوصله حتى بوابة قبره بالدفوف والمزامير وعلى عربات المدافع وفى صحبة الكبار الذين لايملكون من أمرهم شيئاً مثل الشاه تماماً!!.

والثواب والعقاب دائماً.. علمه عند الله..

وغاب الشاه عن العالم...

وبعده بأقل من عام.. مات صديقه أنور السادات.

رونالد ريجان

«الشيخوخة... تحكم أمريكا»

الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان.. أو الرجل ذو الملامح الزجاجية كما كانت تطلق عليه الصحافة العالمية، وهو أكثر الرؤساء الأمريكيين الذين صنعوا الهيبة الأمريكية، وجعلوا العالم كله يهب واقفاً باحترام لمجرد أن يذكر اسم «أمريكا»، ومع ذلك فقد كان هذا الوحش الأمريكى القوى رونالد ريجان يذوب فى جلده وينتفض قميصه على صدره لسرعة دقات قلبه، إذا جلس فى مكان مغلق إلى الحد الذى يمكن أن يفقد معه أعصابه وسطوته ونفوذه.. وكان لرونالد ريجان حكاية غريبة مع عقدة الأماكن المغلقة التى بدأت مبكراً مع بذوغ مراهقته، حينما كان يستقل السيارة مع والده.. وأخذ الأب يقود سيارته بسرعة جنونية ليلحق بميعاد مهم، فإذا به يفقد سيطرته على السيارة التى انقلبت لعدة مرات قبل أن تستقر على أحد جوانبها، وهنا عجز الأب وابنه رونالد عن فتح أى من الأبواب ونوافذ السيارة، واكتشف رونالد ريجان لأول مرة أنه لا يطيق البقاء فى هذا المكان الضيق، فشعر باختناق شديد، ورهبة لم يشعر بها من قبل حتى اعتقد أنه على مشارف الموت لمجرد أنه لا يستطيع أن يخرج من السيارة.. وقد تم إنقاذه مع والده، لكن عقدة الخوف من الأماكن المغلقة ظلت تلازمه، وتشكل نقطة ضعفه حتى بعد أن أصبح رئيساً لأقوى دولة فى العالم، والتى تمنح من يقودها لقب «سيد العالم».

وقد ولد رونالد ريجان صباح يوم ٦ فبراير عام ١٩١١ فى ١١١ شارع ماين بمقاطعة تامبيكو بولاية الينوى الأمريكية، والتى تقع فى موقع متوسط بالولايات المتحدة الأمريكية، وهى الولاية التى تنتمى إليها مدينة شيكاغو التى تشتهر بحرب العصابات، وريجان هو سليل أب يدعى وليام فرانسيس ريجان وشهرته جاك وأم ريفيه اسمها نيل ويلسون، وهى بروتستانتيه ومتدينة إلى درجة كبيرة وكان يطلق عليها لقب القديسة، وكان الأب يعمل مندوباً لبيع الأحذية والملابس لصالح أحد المتاجر المتخصصة فى مقاطعة تامبيكو، ويبدو من مظهره أنه مهندم ومهتم بملابسه، وربما يعود ذلك إلى طبيعة عمله التى تقتضى بأن يكون مقنعاً للعملاء حتى يستطيع ترويج سلعته، والطبيعى أن المظهر يعتبر من أدوات الاقناع فى مثل هذه الوظائف، ولكن على عكس الأم فقد كان الأب مدمناً للخمر يحب اللهو واللعب، ويكره أن يذهب لأداء الصلوات فى الكنيسة الكاثوليكية التى ينتمى إليها.. وكان يعمل قبل ذلك فى شرطة ولاية بوسطن الأمريكية حتى فصله حاكم الولاية كالفن كوليدج فى

سبتمبر عام ١٩١٩ عقاباً له على اشتراكه في إضراب كبير عن العمل ضمن مجموعة من رجال الشرطة الذين اعترضوا على أحوالهم المعيشية، وتذمروا من ضعف رواتبهم التى لم تكن تضمن لهم حياة كريمة في هذا الوقت، وقد قضى رونالد ريجان تعليمه فى مدرسة نورث سايد العليا، ثم التحق بعد ذلك بكلية أوريكا، وعندما أنهى دراسته الجامعية وجد نفسه مائلاً للعمل فى مجال الإعلام الذى كان يجذبه كثيراً، ويشبع رغبته ويشعره بذاته، فعمل في بداية حياته العملية معلقاً على البرامج الرياضية بالإذاعة، ثم استهواه بعد ذلك العمل فى التمثيل حيث شجعه قربه من أوساط الفنانين والممثلين فى عرض موهبته الفنية التى لاقت استحسانا كبيراً من المخرجين والمنتجين، وقد أتاح له ذلك القيام ببطولة عدد من الأفلام السينمائية الناجحة فى الفترة من عام ١٩٣٧ وحتى عام ١٩٦٤.. وخلال هذه الفترة أيضاً عمل منتجاً لبعض الأفلام في السينما الأمريكية.. وقد أخذت هذه الموهبة كل كيانه وإحساسه وتفرغ لها تماماً لأنه كان يشعر بتحقيق ذاته من خلالها.. ولكن عقله كان مشغولاً بحلمه الأكبر الذى لم تكن الفرصة قد سنحت بعد لتحقيقه.. فقد كان مغرماً بالسياسة إلى حد كبير..

وفى عام ١٩٤٨ دق قلب ريجان بشدة عندما اقتحم الحب قلبه بعنف، وتمكن منه فقلب حياته رأساً على عقب، وعرف لأول مرة معنى سُهر الليالى عندما تعصى الأجفان أوامر سيدها، وترفض أن تسدل ستائرها على العيون لتعرف معنى الراحة والنوم.. وكان ذلك عندما التقى رونالد ريجان بالنجمة الأمريكية الشهيرة جين وايمان التى ولدت فى ٥ يناير عام ١٩٢٥ فى ولاية ميسورى الأمريكية وكان اللقاء بريجان أثناء تصوير فيلم الأخوة.. ورغم أن ريجان كان قد شعر بطعم الحب من قبل وهو طفل فى العاشرة من عمره عندما أقام علاقة عاطفية تشوبها مراهقة الأطفال مع ابنة رجل دين تدعى مارجريت، إلا أن هذه المرة كانت تتسم بالنضوج وبخبرة السنين.

وجين وايمان ممثلة لها وضعها فى السينما الأمريكية، وهى التى قامت ببطولة المسلسل الأمريكى الشهير فالكون كريست ولعبت فيه دور المرأة القوية «أنجيلا»، وقد وجدت ضالتها فى ريجان عند بداية تعارفهما فى أوائل عام ١٩٤٠، وفى ربيع عام ١٩٤١ رزقا بمولودتهما مورين التى كانت بمثابة الزهرة التى تفوح رائحتها الذكية على حياة الحبيبين ريجان وجين، فتزيد من رباطهما القوى يوماً بعد يوم.. وفى نفس هذه الفترة بدأ ولع رونالد ريجان بالسياسة، واتجهت ميوله نحو الديمقراطية ومبادئ الحرية وأعجب كثيراً بالرئيس الأمريكى السابق فرانكلين روزفلت الذى قاد أمريكا من فوق كرسيه المتحرك، والمعروف أن رونالد ريجان قد أعطى صوته الإنتخابى لفرانكلين روزفلت فى المرات الأربعة التى رشح نفسه فيها رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية.. وكان تأثر ريجان بفرانكلين روزفلت قوياً للغاية إلى الدرجة التى جعلته يتجه إلى الديمقراطية ليبدأ أولى خطواتها العملية فى مجال

السياسة ولكن بعد أن تعمقت علاقته بالحزب الديمقراطى لم يجد ضالته فى مبادئ هذا الحزب، وسرعان مافترت علاقته بالديمقراطية وحلت محلها صلاته بالجمهوريين، وبدأ يعد نفسه لخوض الانتخابات البرلمانية على مبادئ الحزب الجمهورى..

وقد تزامن مع هذه الأحداث أن جين وايمان قد أصبحت نجمة شباك فى السينما الأمريكية، وتزايدت عليها العروض الإنتاجية المغرية للقيام ببطولات أفلام سينمائية كبيرة، وارتفع أجرها بصورة مذهلة إلى الحد الذى كان يبلغ فيه أجرها خمسة أضعاف أجر رونالد ريجان عند اشتراكه فى تمثيل أحد الأفلام السينمائية.. وشعر ريجان بأن جين وايمان لم تعد هى الحبيبة الأولى التى رق قلبه لها بشدة عندما رآها لأول وهلة فى استديوهات السينما عام ١٩٣٨، فقد انشغلت كثيراً بنجوميتها وشهرتها، الأمر الذى ضايق ريجان وجعله يعيد حساباته نحو علاقته بزوجته جين وايمان، ومن الأمور التى أثارت غضب ريجان هو رغبته فى إنجاب طفل آخر إلى جانب ابنته مورين، ولكن جين وايمان رفضت وقالت له: ليس لدى وقت للحمل والولادة، واقترحت عليه فى عام ١٩٤٥ أن يتبنيا الطفل «مايكل» بعد ولادته بساعات.. وقد وافق رونالد ريجان على هذه الفكرة مرغماً ولكن لسان حاله كان يقول «ما باليد حيلة»!!

وتقول بعض المصادر أن جين وايمان نفسها قد استشاطت غضباً من انصراف ريجان عنها إلى السياسة، وعالمها الذى لايوجد سقف له.. وكانت ترى أن رونالد ريجان يجب أن يظل منتجاً وممثلاً، وأن السياسة ليست لعبته.. ولكن ريجان كانت له رؤية أخرى فى ذاته وفى ثقته بإمكاناته الشخصية التى أهلته فيما بعد ليصبح رئيساً لأقوى دولة فى العالم.. وبعض المصادر الأخرى ذكرت أن الخلاف الذى وقع بين رونالد ريجان وزجته چين وايمان يعود إلى غيرته من نجاحها وحصولها على أجر يعادل خمسة أضعاف الأجر الذى يحصل عليه ريجان عند قيامه بدور البطولة فى أحد الأفلام السينمائية... واتهمت هذه المصادر ريجان بأنه ممثل فاشل وچين وايمان ممثلة فذة ولا يجب أن تقف الغيرة الشخصية حائلاً أمام إبداعها ونجوميتها.. وأياً كانت الأسباب التى دفعت العلاقة بين ريجان وزوجته إلى الهاوية فإن كل ما يمكن تصديقه هو أن رونالد ريجان وچين وايمان لم ينطقا بكلمة عن أسباب الخلاف الذى دب بينهما بل كان كل منهما يذكر الآخر بطيب الكلام أمام وسائل الإعلام، وكلما طرق أبواب حياتهما الخاصة المتطفلين.

وانفصل ريجان عن جين بالطلاق فى عام ١٩٤٨، ولم يصرحا لأحد عن أسباب طلاقهما ولكن الصحافة الأمريكية المتطفلة قالت إن جين وايمان قد ضاقت ذرعاً باهتمامات ريجان السياسية.. ومهما كانت الأسباب التى أدت إلى الطلاق فإن رونالد ريجان قد شعر بجرح عميق لإنفصال چين عنه، ولكنه استغل هذا الجرح ليكون حافزاً له للوصول إلى القمة وإثبات الذات.. وهناك حكمة قوية تقول «فى حياة كل رجل عظيم.. أبحث عن قصة حب

فاشلة ! !)، ويبدو أن رونالد ريجان هو الرجل الذى دفعه جرح الحب إلى القمة.

وعاود ريجان مسيرة رحلته السياسية من خلال الحزب الجمهورى الأمريكى.. وتشبث بأحلامه أكثر وأكثر، وكان يعد نفسه للإنتخابات البرلمانية أو التنفيذية وعينه على البيت الأبيض فى واشنطن.. وكلما انتابه اليأس تذكر والده ويليام ريجان وهو يناديه بـ (داتش).. ويقول له كلاما كثيراً عندما يضع رأسه على وسادته لينام، وكأنه يذكره بأنه بنى نفسه من جديد بعد أن طرد من شرطة بوسطن.. ويناديه.. لا تيأس يا داتش..

وحكاية (داتش) هذه، حكاية غريبة فقد كانت ولادة رونالد ريجان صعبة للغاية واستمر المخاض ٢٤ ساعة كاملة، وكادت أمه نيل ويلسون أن تفقد حياتها ليخرج وليدها إلى هذا العالم.. وأرجع الأطباء سبب هذه الولادة العسرة إلى حجم الجنين الذى كان قد بلغ مع نهاية فترة الحمل ١٠ أرطال أى ما يعادل ٤,٥ كجم.. وبعد أن وضعته أمه ألقى والده بنظره عليه، فانفجر ضاحكاً وقال إنه يشبه الرجل الهولندى الضخم داتش، وهى شخصية إعلامية متداول الحديث عنها فى وسائل الإعلام الهولندية.. ومن يومها والتصق اسم «داتش» برونالد ريجان حتى أن زملائه وأصدقائه كانوا ينادونه بـ «داتش ريجان» إلى أن أنهى دراسته.

وأثناء زواجه بجين وايمان انضم ريجان للقوات البحرية الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية، وقضى فى الخدمة العسكرية بعضاً من سنوات شبابه، ولكنه كان يمارس عمله وهواياته الفنية من حين لآخر، وحينما تسمح الظروف ويجد نفسه فى اجازة لمدة تتيح له القيام بعمل جديد.

وأثناء قيام رونالد ريجان بجمع أشلائه الإنسانية بعد خروجه من قصة الحب التى أثرت فيه... وجد ضالته فى «نانسى» التى كانت تحمل نفس مواهب ريجان بما يخلق بينهما وفاق وامتزاج، وجمع الحب بين رونالد ونانسى التى أمنت بميوله السياسية وشجعته على المضى قدماً نحو القمة، ولما إشتعل الحب فى قلبيهما قررا الزواج فى ٤ مارس ١٩٥٢ وأنجبت له دونالد وديفيز، وكانت نانسى ريجان فاتحة خير على زوجها رونالد، وبدأت ملامحه السياسية تتشكل.. وهويته الحزبية تأخذ طابعها المميز، وكل هذا ونانسى تدفعه من الخلف وتثبت أن وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة..

وفى عام ١٩٦٦ فكر رونالد ريجان فى ترشيح نفسه لمنصب حاكم كاليفورنيا، ولكنه تردد بعض الوقت، لأن خصمه أرموند براون عضو الحزب الديمقراطى كان رجلاً عنيداً وقوياً ويتمتع بشعبية واسعة فى ولاية كاليفورنيا.. إلا أن نانسى حسمت داخله هذه التردد وأقنعته بأن مجرد المحاولة شرف لا ينقص من قدر الإنسان حتى ولو لم يحالفه الحظ.. واقتنع ريجان بحديث زوجتهِ نانسى التى استطاعت أن تملأ الفراغ القاتل الذى تركته جين وايمان آمالاً وأحلاماً.. ورشح رونالد ريجان نفسه على منصب حاكم كاليفورنيا واكتسح أرموند براون

عضو الحزب الديمقراطى وفاز عليه بأغلبية ساحقة.. وتمكن ريجان لأول مرة من الجلوس على كرسى الحكم فى ولاية كاليفورنيا الشهيرة..

وفى عام ١٩٦٨ سعى لدى الحزب الجمهورى لترشيحه لمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وخاض معركة شرسة ضد الرئيس الأمريكى جيرالد فورد وكاد أن يفوز عليه إلا أن الأخير سبقه إلى الفوز بمقعد الرئاسة بفارق ضئيل من الأصوات.. وفى عام ١٩٧٠ رشح ريجان نفسه مرة أخرى كحاكم بولاية كاليفورنيا وبالفعل تمكن من نيل ثقة أهالى كاليفورنيا التى أعادت انتخابه للمرة الثانية حتى عام ١٩٧٤.. وتفرغ رونالد ريجان بعد ذلك لينشر كتابا عن مذكراته الشخصية يحكى فيه قصة حياته وأطلق عليه عنوان «حياتى المبكرة» وقد أعيد نشر هذا الكتاب بعد أن تولى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية.

وفى عام ١٩٧٦ وافق الحزب الجمهورى على ترشيح رونالد ريجان لمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن استطاع ريجان أن يثبت نفسه على ساحة العمل السياسى، وأن يكون قاعدة شعبية تسمح له بخوض انتخابات الرئاسة، ولكن الظروف أيضا لم تكن فى صالح رونالد ريجان هذه المرة أيضاً، ولكنه استطاع أن يقتحم انتخابات الرئاسة فى نوفمبر ١٩٨٠ متبنياً برنامجاً انتخابياً أسماه «الإنعاش الاقتصادى» والذى تعهد فيه بالعمل على تخفيض الضرائب ورفع مستوى المعيشة، وإيجاد فرص عمل للشباب الأمريكى، بما يضمن القضاء على البطالة، بالإضافة إلى إعلانه عن عزمه دخول حرب النجوم ومجال السباق فى علوم الفضاء.. وتمكن رونالد ريجان فى هذه المرة من أن يفوز فوزاً ساحقاً على الرئيس الأمريكى جيمى كارتر، وأن يتبوأ مقعد الرئاسة فى المكتب البيضاوى بالبيت الأبيض مع بداية عام ١٩٨١..

وفى اعتقادى أن الممثلة الأمريكية جين وايمان لو كانت تعلم أن هذا المصير كان فى انتظار زوجها.. مافكرت لحظة أن تتركه خاصة بعد أن أثبتت الأيام صحة وجهة نظر رونالد ريجان وأن المعجزات دائماً تبدأ بالأحلام المستحيلة..

وكان رونالد ريجان رئيسا قوياً وصلداً وخشناً فى قراراته ويعشق التحدى ولايثنيه عن تحقيق هدف من أهدافه أى تضحيات يمكن أن يدفعها أو يسأل عنها أمام محكمة التاريخ.. وفى عهد رونالد ريجان سقط القتيل رقم ٢٠٠ ألف من مجموع عشرات الآلاف من القتلى الذين راحوا ضحية الصراع الأمريكى ضد الشيوعية فى دول أمريكا الجنوبية.. ويمكن القول بأن ريجان قد تمكن من أن يدعم اليمين السياسى فى جميع أنحاء العالم، واستطاع أن يقضى على خطر قوى اليسار فى أمريكا اللاتينية، بفعل السبل المشروعة وغير المشروعة.. كما أن الولايات المتحدة الأمريكية شهدت فى عهد رونالد ريجان أكبر حركة لتصدير السلاح الأمريكى إلى مناطق الحروب المشتعلة فى مختلف أنحاء العالم، وقد عقد ريجان عدة اتفاقات عسكرية لتصدير السلاح فى فترة حكمه، وصفها المحللون بأنها أكبر صفقات

عسكرية فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ إندلاع الحرب العالمية الثانية..

وعملية ماكفرين الفاشلة أو فضيحة إيران - كونترا كانت أكبر دليل على رغبة ريجان فى تصدير السلاح الأمريكى لدول العالم، وعقد صفقات السلاح المربحة.. ففى نوفمبر عام ١٩٨٥ وخلال قمة جنيف اقترح روبرت ماكفرين مستشار الأمن القومى على الرئيس ريجان أن يعقد صفقة مع إيران تقوم بمقتضاها الولايات المتحدة الأمريكية بتسليم ٨٠ صاروخ هوك مضادة للطائرات عبر إسرائيل.. ولكن ريجان طلب من ماكفرين أن يرجئ هذا الموضوع لحين عودته إلى واشنطن، وفى البيت الأبيض شرح روبرت ماكفرين خطته إلى الرئيس الأمريكى وأقنعه أنه يمكن نقل الصواريخ لإيران من أحد المخازن السرية لإسرائيل فى البرتغال على متن ٣ طائرات إلى تبريز فى إيران.. وفى المقابل سيتولى الإيرانيون التفاوض مع محتجزى الرهائن الأمريكيين فى لبنان لإطلاق سراحهم..

ولكن ريجان فرد جسده وألقى به على ظهر كرسيه.. وأطلق لخياله العنان بعض الوقت.. ثم سأل ماكفرين وكيف نضمن أن الرهائن سيعودون بمجرد استلام الصواريخ؟ وهنا فكر ماكفرين قليلاً ثم قال لريجان: لن تهبط الطائرة فى إيران ولن تقوم بتسليم أى صاروخ قبل أن تتسلم السفارة الأمريكية فى بيروت الرهائن المحتجزين.. ووافق ريجان ولكن طلب استطلاعَ رأى چورچ شولتز وزير خارجيته والذى وافق على الفكرة، وتم الاتفاق بين الجميع على أن يكون يوم ٢١ نوفمبر ١٩٨٥ هو يوم اتمام الصفقة..

وبالطبع قيام إيران بالتوسط لإطلاق الرهائن الأمريكيين فى لبنان لم يكن ثمناً لاتمام صفقة الصواريخ مع أمريكا.. بل إن إيران كانت ستدفع المقابل المادى لهذه الصواريخ من عائدات النفط.. ولكن هذه الصفقة كانت مجرد «صك رضاء» حتى تستطيع أمريكا أن توافق على مساعدة إيران فى نفس الوقت الذى تعادى فيه الثورة الإسلامية فى إيران وتقف جنبا إلى جنب فى تأييد العراق فى مواجهاته العسكرية مع إيران..!! وفشلت عملية ماكفرين لأن البرتغاليين رفضوا أن تتم هذه العملية على أراضيهم، ولكن إسرائيل صاحبة المخازن السرية بالبرتغال تمكنت من تسريب ١٨ صاروخا فقط، وتصديرها إلى إيران.. وعندما وصلت الصواريخ إلى إيران، كانت الصناديق كلها تحمل كلمات عبرية، وفوجئ الإيرانيون عند فتح الصناديق بأن الموجود فيها ١٨ صاروخاً فقط وليست من طراز هوك المضاد للطائرات!!

ولكن الصفقة كانت قد تمت.. وانتهت مشكلة الرهائن الأمريكيين فى لبنان.. واشترى الإيرانيون الترام.. كما نقول عندنا فى مصر!!..

وتمكن رونالد ريجان خلال فترة حكمه من الترويج للسيطرة العسكرية التى تمكنه من تحقيق أهداف أمريكا العليا، وكان من أول اهتماماته انتاج السلاح وتطويره حتى تظل الدول

المستخدمة للأسلحة فى حاجة إلى أمريكا وسلاحها الجديد، كما أرسى سياسة السيطرة على شركات السلاح فى العالم والتحكم فى قنوات توزيعه، وطرح مفاهيم للحد من التسلح تخدم الأمريكان من جميع الوجوه.. ونجحت إدارة رونالد ريجان فى ترويج مفهوم الأسلحة كسلعة استهلاكية يطلبها الغنى والفقير والقوى والضعيف والصغير والكبير، كما كان يزداد الطلب على شراء الأسلحة الأمريكية لأسباب سياسية أو تقنية أو غير ذلك..

والمعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية استطاعت أن تبيع للسعودية وحدها بالطريق المباشر أو غير المباشر أسلحة تزيد عن ١٠٠ بليون دولار فى العقود الأربعة الأخيرة، وكان أكثر من ٥٠٪ من حجم هذه الصفقة فى الثمانينيات إبان عهد الرئيس رونالد ريجان.. وهذا الانفاق كان أكبر من انفاق حلف الأطلسى نفسه كما يؤكد المحللون العسكريون، ثم تزايد الطلب على السلاح الأمريكى فى التسعينيات، وبالتحديد منذ قيام العراق باحتلال الكويت، ولكن رونالد ريجان كان قد مهد الطريق من قبل لهوس دول الشرق الأوسط بالسلاح الأمريكى..

والغريب أن إدارة ريجان كانت تبيع هذه الأسلحة دون تقنيتها وبالتالى كان البيع أشبه بمن يبيع صناديق الذهب دون مفاتيح، ولذلك اضطرت الدول المستوردة كثيرا إلى إستيراد القوىَ البشرية المدربة اللازمة لتشغيل هذه التقنية الحديثة، ومن ثم تستطيع الإدارة الأمريكية أن تفرض ماتريده من شروط مقابل إشباع نهم المشترى واستخدام سيف قطع الغيار!!

ولم يتوقف رونالد ريجان عن محاولاته المستمرة لإثبات تفوق الولايات المتحدة فى شتى المجالات وخاصة التى يصعب فيها مجاراة أمريكا ومن أجل هذا التحدى، قرر رونالد ريجان أن يخوض حرب النجوم بكل قوى ممكنة تتناسب مع مكانة أمريكا بعد أن كادت أن تقلقه المباراة الدائمة بين الاتحاد السوفييتى وأمريكا فى سباق النجوم وخلال بعض السنوات من فترتى حكم ريجان للولايات المتحدة انفق مايزيد عن ٢٦ مليار دولار على حرب النجوم والأبحاث العلمية المتعلقة بغزو الفضاء الخارجى..

وفى عام ١٩٨٥ أعيد انتخاب رونالد ريجان لفترة رئاسة ثانية بعد أن فاز على المرشح الديمقراطى وولتر مونديل بأغلبية ساحقة، وقيل وقتها أن رونالد ريجان قد حقق ثانى أكبر فوز بمقعد الرئاسة فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية بعد فرانكلين روزفلت..

وقد تعرض رونالد ريجان لمحاولات عديدة لاغتياله والنيل منه، وكان أشهر هذه المحاولات بعد ٧٠ يوما من انتخابه رئيساً للولايات المتحدة لأول مرة، وكانت فى شهر مارس عام ١٩٨١، والغريب فى هذه المحاولة أنها لم تكن بقصد الانتقام من شخص ريجان ولكن كانت بدافع الشهرة التى تسبب فيها جنون الحب..

والحكاية باختصار أن ريجان كان قد توجه فى ٣٠ مارس عام ١٩٨١ إلى فندق هيلتون واشنطن لإلقاء خطاب أمام لقاء نقابى، وتوجه إلى مكان الحفل فى تمام الساعة الواحدة و٤٥ دقيقة من بعد ظهر ذلك اليوم.. وقد استقبلت الجماهير على باب الفندق رئيسهم استقبالاً بالغ الحفاوة تأثر له ريجان كثيراً، ووقف للحظات ليتمكن من الرد على تحية الجماهير ثم توجه إلى القاعة المعدة لاستقباله حيث ألقى خطابه الذى أنهاه فى الساعة ٢,٢٥ دقيقة أى بعد حوالى ٤٠ دقيقة فقط، ثم غادر ريجان الفندق وحوله لفيف من مساعديه وحراسه، وكان ركب الرئيس ريجان ينتظره أمام الفندق وحشود كثيرة من رجال الصحافة والإعلام وممثلى القنوات الأخبارية العالمية ولم يتوقف ريجان للرد على أى استفسار صحفى بل رفع ذراعه للرد على تحية الجماهير المحتشدة، وبينما يستعد لدخول سيارته الرئاسية سمع صوت طلقات نارية تدوى فى كل مكان، ولم يدرى ريجان بشئ إلا ومساعدوه وحرسه الخاص يتكتلون فوقه، ويدفعون به فى سيارته، بينما فريق آخر من حرسه الرئاسى، كان قد تمكن من القبض على الشاب الذى أطلق الرصاص على الرئيس الأمريكى وانطلقت سيارة الرئيس فى اتجاه البيت الأبيض وأحس ريجان بأن حارسه الخاص جاثما فوقه، فربت بهدوء على كتفه وقال له: «لم أمت من الرصاص ولكنى سأموت منك»..!!

وعندما رفع الحارس جسده عن الرئيس شعر ريجان ببعض الألم فى صدره وبدأ الدم يخرج كالقذائف من فمه مما دعى جيرى بار رئيس جهاز الأمن بالبيت الأبيض أن يطلب تغيير اتجاه سيارة الرئيس إلى المستشفى بدلا من البيت الأبيض، ثم اتصل بالبيت الأبيض وطلب من المسئولين إبلاغ مستشفى جامعة واشنطن بأن سيارة الرئيس ستصل إليهم بعد أقل من خمس دقائق وأن عليهم أن يرفعوا حالة الاستعداد القصوى..

وعندما تم القبض على چون هينكلى الشاب الأمريكى المراهق، وقامت أجهزة الرئاسة والمخابرات والمباحث الفيدرالية بالتحقيق معه ظهرت الدوافع الحقيقية وراء محاولة الاغتيال، وهى فشله فى إقامة علاقة غرامية مع الممثلة الأمريكية الجميلة جودى فوستر التى كان معجبا بها من طرف واحد، وعندما فشل فى جذب اهتمامها خاصة وأنه لم يتلقى منها أى رد على رسائله الغرامية التى كان يرسلها كل يوم إليها.. قرر أن يقوم بعمل كبير حتى يتسطيع أن يجتذب اهتمام ورضاء هذه الممثلة الشابة الجميلة.. وكتب إليها يقول: «لكى أثبت لك أننى أحبك سأقوم بقتل الرئيس» ،وعندما سألت أجهزة التحقيق الممثلة جودى فوستر عن هذا العاشق أكدت إنها كانت تتلقى منه رسائل كثيرة وأخرها الرسالة التى هدد فيها بقتل الرئيس، ولكنها بالطبع لم تصدق أنه يمكن أن يقوم بهذا التصرف الإجرامى ليثبت حبه لها..

وقد واجه الرئيس ريجان العديد من التحديات أثناء توليه الحكم، خاصة تحديات الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتى.. وكان هم ريجان كما ذكرت من قبل هو محاولة القضاء

على الشيوعيين فى دول أمريكا اللاتينية والعالم كله إذا اتيحت له الفرصة ولعل تخطيط إدارته وجهاز المخابرات الأمريكية المركزية لإبادة الامبراطورية الشيوعية، هو الذى ساهم فيما بعد فى تلاشى الاتحاد السوفييتى وانهيار مملكته لتصبح أمريكا هى القوة الوحيدة التى تحافظ على عملية القيادة فى العالم.. ومن المفارقات الضاحكة أن الرئيس ريجان كان مدعوا لإلقاء كلمة فى إحدى الاحتفالات الهامة وحاول أن يجرب الميكروفون بعد أن ظن أنه مغلق وقد فوجئ جميع الحاضرين بالرئيس وهو يقول: مارأيكم إذا تخلصنا من الاتحاد السوفييتى بإلقاء القنبلة النووية عليه؟، وهنا ضجت القاعة بالضحك وفوجئ ريجان بأن الميكروفون مفتوح.. وحاول بلباقة أن يعتذر على ما قاله..

وقد تأثر ريجان كثيراً بالموقف الذى افتعلته ابنته ديفيز التى ظهرت عارية تماماً على غلاف مجلة بلاى بوى الأمريكية أثناء رئاسته لأمريكا كنوع من الانتقام من والدها على بعض الخلافات القائمة بينهما.. وقد سبب هذا التصرف الأحمق حرجاً شديداً لرونالد ريجان أدى إلى إصابته بحالة من الإكتئاب الشديد لفترة، ولكنه عاود من جديد ممارسته لأنشطته الرئاسية إلى آخر يوم له فى البيت الأبيض عام ١٩٨٩.

رونالد ريجان ورحلته مع المرض

عرف رونالد ريجان طعم المرض فى العقد السادس من عمره، ولكنه أصيب بعقدة نفسية ترسبت في وجدانه، ورسمت شخصيته منذ طفولته الأولى عندما انقلبت سيارة والده به، وظل حبيساً بها فترة طويلة حتى تم إنقاذه مع والده.. وقتها تملكت عقدة الخوف من الأماكن المغلقة من رونالد ريجان وصاحبته إلى أن أصبح رئيساً للولايات المتحدة.

أما عن المرض العضوى فالثابت أن ريجان كان قد أصيب بتضخم فى البروستاتا عام ١٩٦٧ عندما كان يبلغ من العمر ٥٦ عاما ووقتها كان حاكماً لولاية كاليفورنيا وعندما أدخل المستشفى وأجرى الأبحاث والفحوصات اللازمة رأى الأطباء ضرورة استئصال الجزء المتضخم من البروستاتا لفحصه وتحليل أنسجته تحليلاً خلويا لاحتمال إصابته بسرطان البروستاتا، وبالفعل وافق رونالد ريجان على إجراء الجراحة ولم يعلن وقتها عن نتائج التحليل الخلوى، ويبدو أن ريجان تماثل للشفاء بعدها، ولم تذكر أى معلومات عن تعرضه لأى مضاعفات صحية أخرى..

وفى عام ١٩٨١ وبعد تعرضه لمحاولة اغتيال على يد الشاب الأمريكى جون هينكلى طارت السيارة التى أقلته من موقع الحادثة إلى مستشفى جامعة واشنطن، حيث كان ريجان يتقيأ دماً من فمه، وعندما وصل إلى المستشفى كان يشعر بآلام شديدة فى أعلى ظهره نتيجة

لسقوطه عنوة داخل السيارة على أيدى حراسه، كما شكا من ألم شديد برأسه نتيجة اصطدامها بسقف السيارة.. وتماسك ريجان ودخل المستشفى سائرا على قدميه وهو ممسك صدره متألما، وفجأة شعر بدوار شديد نتيجة انخفاض ملحوظ فى ضغط الدم، وسقط على الأرض، لكنه كان مدركا لما يدور حوله وقد حمله رجال الرئاسة حتى حجرة الطوارئ، وهناك تبين أن الرئيس فقد ما يقرب من ٣٥٠٠ سم٣ من دمائه أى تقريبا نصف حجم الدم الموجود فى دورته الدموية، وعلى الفور قام الأطباء بنقله إلى غرفة العناية المركزة بعد أن خلعوا عنه ملابسه، وتم نقل السوائل وكميات من الدم من خلال ثلاثة خطوط وريدية وليس خطاً واحداً، وكان الأطباء يتوقعون أن الرئيس فقد كل هذه الدماء نتيجة إصابته بنزيف داخلى..

لكن ريجان اشتكى لإحدى الممرضات من آلام شديدة بصدره وعندما همت بالكشف عن موقع الألم الذى يشير له الرئيس اكتشفت وجود ثقب فى أعلى الصدر نتيجة فتحة سببها عيار نارى وعلى الفور أبلغت الممرضة فريق الأطباء الذى كان يبحث الحالة والذى قرر الكشف عن موقع الثقب بالأشعة والتى أظهرت فيما بعد وجود طلق نارى على بعد سنتيمترات من قلبه، وأنه اصطدم بأحد الضلوع فى قفصه الصدرى مما تسبب فى كسره، ثم اخترق على إثره الرئة اليسرى، بينما منع هذا الضلع وصول الطلق النارى إلى قلب الرئيس، ولم يكن هناك بد من إجراء جراحة عاجلة لاستخراج الطلق النارى من صدر الرئيس.. وعندما عرف ريجان بضرورة إجراء الجراحة وافق على الفور، وطلب استدعاء نائبه چورچ بوش، ونقل صلاحياته الرئاسية إليه ثم بدأ يصلى ويتمتم بكلمات رقيقة، وعندما اقترب منه أحد الممرضين ضحك فى وجهه وسأله هل أنت جمهورى؟

وربما كان ريجان بمزحته يخفف من حالة القلق التى كانت قد تملكت منه منذ أن عرف أنه مصاب بطلق نارى بجوار القلب، وبدأت الجراحة فى تمام الساعة ٣,٢٤ بعد ظهر نفس اليوم أى بعد حوالى ٤٥ دقيقة فقط من وقوع الحادث وكان الدكتور بنجامين أدون هو رئيس الفريق الجراحى الذى قام بإجراء العملية للرئيس الأمريكى، وقد قال تعليقا على صعوبة الجراحة: لقد احتجت لأربعين دقيقة كى أتمكن من فتح صدر الرئيس.. فأنا لم أشاهد فى حياتى صدراً بهذه الصلابة لإنسان فى السبعين من عمره، كما أكد الدكتور بنجامين أدون أنه احتاج لربع ساعة أخرى من أجل الوصول إلى الطلق النارى الذى كان فى مكان عميق داخل أنسجة الرئة.. وبعد ذلك تم توصيل الخراطيم اللازمة لسحب الإفرازات الضارة من مكان الجراحة بعد إتمامها حتى لاتتقيح هذه الافرازات وتتسبب فى حدوث إلتهاب بمكان الجرح الداخلى مما قد يؤدى بعد ذلك إلى مضاعفات خطيرة..

وانتهت الجراحة بنجاح فى حوالى الساعة ٥,٢٠ بعد الظهر، وعندما خرج ريجان من غرفة العمليات وبدأ يفيق من أثر المخدر قابلته زوجته نانسى وطبعت قبلة حانية على وجنتيه، وإنهمرت دموعها ولكنه قال لها: أنا بخير ولكن صلوا من أجل الشاب الذى أطلق علىّ

الرصاص، فهو يحتاج الآن إلى دعواتكم!! وفى اليوم التالى كان ريجان قد تماثل للشفاء وقام نائبه چورج بوش بزيارته حيث وقع ريجان على بعض الأوراق الرئاسية من سريره.. وعندما سأل عن السبب الذى دفع چون هينكلى إلى إطلاق النار عليه.. حكوا له قصة جودى فوستر ولكن ريجان لم يصدق فى البداية وعندما أكدوا له ذلك قال وهو يبتسم: إنه شاب محب!!..

وأثناء قضاء ريجان لفترة النقاهة داخل جناحه بالمستشفى الجامعى بواشنطن وصلته باقة من الورد مصحوبة ببرقية رقيقة من إحدى السيدات مكتوب عليها «عزيزى داتش ريجان.. لقد التقينا سويا فى العشرينات عندما كان عمرك ١٧ سنة.. أدعو لك بالشفاء..» وقد تأثر ريجان جدا بهذه البرقية وظل وقتا طويلا يفكر فى صاحبتها وقد أعزى بعض المقربين من الرئيس تحسن حالته الصحية بصورة سريعة إلى هذه الرسالة التى عادت به إلى فترة النقاء والشفافية فى حياته..

وفى ١١ سبتمبر عام ١٩٨٣ شعر ريجان بضعف فى قدرته على السمع وبعد أن قام الأطباء بفحص الرئيس تبين لهم أن أذن ريجان تأثرت من دوى طلق نارى فى أحد الأفلام التى اشترك فيها.. وقد قرروا تركيب سماعة كهربائية لأذنه تعينه على السمع..

وفى عام ١٩٨٤ أجرى الرئيس رونالد ريجان جراحة لاستئصال زوائد من القولون ولم يعلن البيت الأبيض أى أخبار عن طبيعة هذه الزوائد.. وفى عام ١٩٨٥ أجرى الرئيس ريجان مرة أخرى جراحة لاستئصال زوائد من القولون مشابهة لتلك التى تم استئصالها فى الجراحة السابقة، وفى ٢٤ يوليو عام ١٩٨٥ أعلن البيت الأبيض أن الرئيس رونالد ريجان يعانى من وجود ورم ضخم بالقولون، وأن الأطباء قرروا استئصال هذا الورم للتمكن من فحص خلاياه وأنسجته والتعرف على طبيعته، وبالفعل تم إجراء الجراحة بمستشفى بتيسدا التابعة للبحرية الأمريكية، التى استمرت ساعتين وثلاثة وخمسين دقيقة.. وقبلها قام ريجان بتفويض سلطاته الرئاسية للمرة الثانية إلى نائبه چورج بوش، وأرسل إلى زعماء الكونجرس يخطرهم بقرار التفويض.. وبعد أيام من إجراء الجراحة أكد لارى سبيكيس المتحدث الرسمى للبيت الأبيض أن التحليل الخلوى أثبت أن الورم غير سرطانى وأنه حميد.. وقد أكد أيضا الجراح الأمريكى ديل أوللر رئيس فريق الجراحين الذى قام بإجراء العملية ماذكره لارى سبيكيس فى نفس الوقت الذى ذكر فيه مارشال بداين الطبيب المختص فى سرطان الأمعاء والأستاذ بكلية چون هوبكنز بولاية ميرى لاند أن حالة الرئيس تتوقف على طبيعة الورم ودرجة انتشاره!!

وفى عام ١٩٨٦ أدخل ريجان لحجرة العمليات للمرة السادسة فى حياته حيث تبين وجود زوائد جديدة بالقولون، وتم استئصالها للمرة الثالثة، وفى عام ١٩٨٧ أجرى الأطباء جراحة كبيرة للرئيس ريجان استئصلوا فيها الجزء المتبقى من البروستاتا، وفى نفس الوقت تم

استئصال ورم سرطاني في الوجه، وقد أعلن البيت الأبيض أن هذه الجراحة كانت لاستئصال بعض المضاعفات الناتجة عن تطور الحالة الصحية للرئيس ولكن المتحدث لم يذكر أن الجراحة تتعلق باستئصال أورام سرطانية في حين ذكرت الصحف أنه تم استئصال ورم سرطاني من الوجه..

وقد استمر الرئيس ريجان في صراعه مع المرض إلى أن ترك البيت الأبيض في عام ١٩٨٩ بعد انتهاء فترة رئاسته الثانية...، وقرر مجموعة من أصدقاء الرئيس ريجان وزوجته نانسي إهداءهم منزلا على مساحة فدان ونصف وملحق به حمام سباحة وحدائق مترامية، وذلك ليقيم فيه ريجان بعد خروجه من البيت الأبيض، وقد قام أكثر من ٢٠ شخص من أصدقاء ريجان وزوجته بشراء هذا المنزل الذى تقدر قيمته بـ ٢,٥ مليون دولار ويجاور مسكن النجمة العالمية اليزابيث تايلور في ضاحية بيل آير بلوس انجيلوس.. وظل ريجان يحاول الابتعاد عن الأضواء إلى أن تمكن منه مرض الزهايمر تمكناً تاماً في عام ١٩٩٤، ورغم أن ريجان كان لايزال في هذا الوقت يلعب الجولف ويؤدى التمارين الرياضية البسيطة ويذهب إلى مكتبه في لوس انجيلوس، إلا أنه لم يعد اجتماعيا، ولم يعد يشعر بالعالم من حوله ولايفهم لماذا يلقى الناس عليه التحية حينما يسير بينهم في الشارع.. ويبدو أنه نسى أنه طوال ثمانية سنوات كان أقوى رجل في العالم..

ومرض الزهايمر ALZAHEIMER'S هو مرض يصيب ذاكرة الإنسان ويجعله غير قادر على تذكر الأحداث الهامة في حياته.. وهو مرض مخادع INSIDIOUS ومن الممكن أن يصيب الإنسان على غرة في منتصف العمر، ولكن معدل الإصابة به يرتفع في فترة الشيخوخة وعندما يتقدم العمر بالإنسان، وربما ترجع الإصابة بهذا المرض إلى عوامل وراثية، ولكن المعروف طبيا أن تنامي المرض يصبح بطيئا إذا آصاب الإنسان في سنوات الشيخوخة في نفس الوقت الذى يزداد فيه تدهور الوظائف الإدراكية في عقل الإنسان بصورة سريعة ومقلقة، ومن أعراض هذا المرض حدوث ضمور واسع في خلايا المخ وبالتحديد في لحاء الدماغ CORTEX وخلايا أخرى متفرقة في الجهاز العصبي المركزى، والفحص المجهرى للخلايا المصابة يكشف عن وجود خلايا عصبية تالفة، وعقد عصبية ضامرة، وترسبات وتكلسات غير طبيعية بأنسجة المخ، بالإضافة إلى بعض التغيرات الكيميائية في الخلايا العصبية بما فيها ندرة في إفراز الاستيل كولين ACETYLCHOLINE وهو موصل كيميائي هام وله دوره الحيوى في الجهاز العصبي في الإنسان..

والمعروف أن هذا المرض أصاب العديد من المشاهير في العالم ومن بينهم الممثلة الأمريكية الجميلة ريتا هيوارث والتى أصيبت في شيخوختها بهذا المرض.. وفي العالم يوجد أكثر من ٢٠ مليون مصاب بمرض الزهايمر الذى ترجع تسميته إلى مكتشفه العالم الألماني الويس التسهايمر، وتنطق بالانجليزية الزهايمر.. بينما يوجد في أمريكا وحدها ٥ ملايين

مصاب بهذا المرض، وفي كل عام يتم تسجيل ٥٠ ألف حالة يصيبها المرض في الولايات المتحدة الأمريكية، وربما هذا هو الذي دفع الرئيس الأمريكي بيل كلينتون إلى تخصيص ٥٠ مليون دولار للأبحاث المهتمة بالبحث عن علاج لهذا المرض، والتمكن من القضاء عليه..

ويذكر أن الرئيس ريجان يعالج من مرض الزهايمر في عيادة طبيب متخصص في المخ والأعصاب بسانتا مونيكا في كاليفورنيا بعد أن اضطربت ذاكرته للغاية إلى الحد الذي لم يعد يفرق فيه بين أفراد أسرته، كما اختل توازنه في الفترة الأخيرة وتغير سلوكه بصورة فاضحة، مما يخشى معه من إصابته بالجنون كنوع من مضاعفات هذا المرض الميئوس من شفائه..

وقد شكت نانسي ريجان كثيرا من أن أبناء ريجان لايولون أبيهم الرعاية اللازمة له، وهو في هذه المرحلة الحرجة من المرض.. ولكنها أكدت أن الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش دائم السؤال على ريجان.. وليس غريبا على بوش أن يفعل ذلك وهو الذي يدين لريجان بأشياء كثيرة في حياته وقال عنه في إحدى المناسبات: ريجان أستاذي ومعلمي ولولاه ما أصبحت رئيساً لأمريكا..

الدوافع المرضية لسياسة ريجان

يمكننا الدفع بأن الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان كان مصاباً بالسرطان منذ فترة طويلة، وربما تعود الإصابة إلى أول جراحة أجراها في عام ١٩٦٧، والتي استأصل الأطباء فيها جزء من البروستاتا.. وطبيعي أن تتضخم البروستاتا في رجل يبلغ من العمر ٥٦ عاماً.. ولكن تكرار شكوى ريجان من الأعراض المؤلمة التي تسببها البروستاتا يجعلنا نشك في أن الأمر لم يتوقف عند حد الاصابة بتضخم عادى في البروستاتا، والذى عادة مايصيب الذكور في سن الشيخوخة.. ولايمكن القول أن وصول الإنسان لسن الخمسين يدفع به إلى زمرة الشيوخ والكهول والمسنين.. ثم تأتي الجراحة التي أجريت للرئيس ريجان في عام ١٩٨٧ لاستئصال الجزء المتبقى من البروستاتا، وإزالة أورام سرطانية مصاحبة بالوجه، لتوضح لنا كثير من التفسيرات والألغاز.

وأغلب الظن أن سرطان القولون الذى عانى منه ريجان لفترة طويلة وتضاربت حوله الآراء، كثيراً كان سرطاناً ثانويا منتشرا من مصدره الرئيسي في البروستاتا وخلال الفترة من عام ١٩٨٤ وحتى عام ١٩٨٦ أجرى الأطباء للرئيس رونالد ريجان أربعة جراحات بالقولون لإزالة زوائد وأورام سرطانية متباينة في الحجم والطبيعة ولايمكن في هذه الفترة الزمنية القصيرة أن تعود الأورام المستأصلة للكشف عن نفسها مرة أخرى، إلا إذا كانت أورام سرطانية وفي مرحلة متأخرة، وأن حجمها كان بالدرجة التي يمكن أن تعوق وظيفة الأمعاء أو تتسبب في حدوث إنسداد معوى لذلك كان استئصالها أمرا حتمياً وواجباً..

والمعروف أن مرض السرطان هو المسبب الثاني للوفاة في دول أمريكا وأوروبا بعد قصور الشرايين التاجية لعضلة القلب، ومن أشهر الأعضاء التي تصاب بالسرطان في جسم الإنسان الرئتين والأمعاء الغليظة والثدي وأن ٧٠٪ من الإصابات الجديدة بالسرطان تكون فوق سن الستين، وعندما يصيب الأطفال يكون سببا للوفاة في المرحلة السنية مابين ٣ و١٣ سنة حيث يصاب بعض الأطفال بسرطان الدم في بداياته، ويحتاج لفترة زمنية طويلة حتى يستطيع أن يعبر عن نفسه وهذا هو سبب خطورته إذ لا يتم اكتشافه إلا عندما يصل الإنسان في أغلب الأحوال إلى مرحلة يصعب فيها التغلب على المرض بالوسائل العلاجية المعروفة، ولكن هذا لايمنع أن هناك حالات كثيرة من المرضى المصابين بالمرض قد تتحسن حالتهم الصحية باستخدام العقاقير الكيميائية والمواد المشعة..

وإذا سلمنا بأن رونالد ريجان قد تأثر بمرض السرطان منذ وقت طويل، ولكنه لم يعلن عن نفسه إلا مع نهاية حكم ريجان للولايات المتحدة الأمريكية، فيجب أن نضع في الاعتبار أن ريجان قد عولج علاجاً قوياً تمكن معه الأطباء من محاصرة المرض سواء بالعقاقير أو التدخل الجراحي بين الحين والآخر، وهذا ما يجعل رونالد ريجان الآن يتم عامه التسعين دون ان نسمع عن إصابته بمضاعفات جديدة لمرض السرطان.

أما في الفترة من بداية الثمانينات وحتى نهاية حكم ريجان وهي الفترة التي شهد فيها ريجان صراعاً كبيراً مع المرض يمكن القول بأنه عاني من بعض الأعراض المصاحبة لمرضى السرطان والتي تعرف بـ Paraneoplastic Features حيث يقوم العضو المصاب بالسرطان بإفراز بعض نفاياته التي عادة ماتكون عبارة عن هرمونات ذات تركيب كيميائي متعدد POLYPEPTIDE HORMANES والتي تقوم بدورها بالتأثير على بعض الوظائف الأساسية لأعضاء وأجهزة الجسم، ومن ضمنها الجهاز العصبي للإنسان "NEUROLOGICAL PARANEOPLASTIC SYNDROME" وقد يتسبب عن ذلك حالات من الوهن والضعف العضلي وضمور بخلايا المخ والذي يمكن أن ينتج عنه تغير في سلوك الإنسان وعاداته، فيصبح في بعض الأحيان قاسياً وصلداً أو متبلداً وعنيداً وهو ما يتيح لنا الفرصة لتفسير جزء من سياسة ريجان التي كانت قائمة في حد ذاتها على العناد والمناطحة وتحقيق الأهداف مهما كانت النتائج والتضحيات..

كما يمكن لهذه الهرمونات المفروزة من الأورام السرطانية أن تحض الغدة الدرقية على إفراز هرمونات (T3 & T4) بصورة غير طبيعية من وقت لآخر، وهو ماقد يجعل الإنسان في حالة من العصبية والضيق، والتي تدفعه إلى اتخاذ قرارات عنيفة مثل التي اتخذها رونالد ريجان تجاه المذابح الشيوعية في أمريكا اللاتينية، ورغم أن ريجان كان يتشدق بالرحمة تجاه الشاب جون هينكلي الذي حاول اغتياله إلا أنه لم يعفو عنه خاصة وأن هناك شكا قوياً في سلامة القوى العقلية لهذا الشاب..

وقد كانت لريجان قرارات كثيرة تتسم بالعنف والقوة خاصة في سياسته الخارجية

وصفقاته العسكرية، وربما لم يحاول ريجان التدخل بجدية لإنهاء الحرب العراقية الإيرانية، والتى استمرت قرابة ثمانية سنوات بقدر ماحاول أن يساعد العراق فى هذه الحرب الشرسة بحجة عداءه للثورة الإسلامية فى إيران، ولكنه فى نفس الوقت سمح لنفسه بأن يحاول أن يمد إيران بصواريخ هوك الأمريكية عبر إسرائيل، ولكن محاولته انتهت بفضيحة إيران ـ كونترا الشهيرة..

ولايمكن أن نرمى بأن قرارات ريجان القاسية كان وراءها كلها دوافع مرضية فقط.. بل أن هناك عوامل أخرى كثيرة منها على سبيل المثال عوامل شخصية ونفسية، وعوامل أخرى ترجع لأسباب سياسية.. ومعروف عن ريجان أنه كان متطرفا فى وطنيته وحبه للولايات المتحدة الأمريكية، وقد يرى البعض أن هذه ميزة فى شخصية ريجان.. ولكن إذا تحول هذا التطرف فى الوطنية إلى رغبة عارمة فى السيطرة على العالم سياسياً وعسكرياً وتشجيع بيع الأسلحة الأمريكية وفرض الهيمنة العسكرية الأمريكية على تلك الدول كما ذكرت من قبل، فإن التطرف فى الوطنية فى هذا الوقت يصبح سلاحا ذو حدين، ويمكن أن يشكل على المدى البعيد خطراً على السياسة الأمريكية التى روجت لدمار الحروب أكثر مما روجت للسلام..

ولايجب أن نغفل مرض الزهايمر الذى أُعلن عن إصابة ريجان به بعد تركه البيت الأبيض بسنوات قليلة.. لكن هناك حقيقة طبية تؤكد أن المرض قد لايأخذ طبيعته الفجائية إذا أصاب كبار السن والمسنين، وأن الإصابة تكون تدريجية إلى أن يفقد الإنسان ذاكرته إلى حد كبير، ويصبح غير قادر على تحديد الأشخاص من حوله وهذا مايجعل هناك احتمال بإصابة الرئيس الأمريكى رونالد ريجان بمرض الزهايمر فى أواخر فترة حكمه، خاصة إذا سلمنا بدور الهرمونات السرطانية فى تآكل المخ وضموره، كما أن بعض المصادر الصحفية ذكرت أن ارتطام رأس ريجان بسقف سيارته الرئاسية عند محاولة الفرار به من المكان الذى أطلق عليه النار فيه أمام هيلتون واشنطن قد يكون سببا فى بعض الأعراض المرضية التى تعرض لها ريجان فيما بعد، وخاصة مرض الزهايمر....، وإذا ثبت بأن هذا المرض قد بدأ يزحف على عقل ريجان أثناء قيامه بمهامه الرئاسية، فإن هذا يجعلنا نؤكد أن بعض القرارات الأمريكية التى اتخذها ريجان فى أواخر فترات حكمه ربما يكون قد أصابها فقدان الذاكرة!!..

أما حادثة الاغتيال التى تعرض لها ريجان بعد حوالى ٧٠ يوما من انتخابه رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية، فلاشك أن الظروف المرضية التى تأثر بها ريجان نتيجة هذه الحادثة، قد ساهمت بشكل أو بآخر فى رفع أرصدته وجماهيريته لدى الشعب الأمريكى خاصة وأن الإعلام الأمريكى كان يتحرك لحظة بلحظة مع الرئيس الأمريكى ابتداءاً من لحظة تعرضه للإصابة بالطلق النارى، ومرورا بنقله إلى مستشفى جامعة واشنطن، ثم أثناء دخوله

لغرفة العمليات، وفي اللحظات التي خرج فيها من غرف العمليات بعد نجاح الجراحة وزوجته نانسي تطبع قبلاتها على وجناته..

ولاشكَ أن كل هذه الأحداث جعلت ريجان بطلاً شعبياً كاد أن يفقد حياته بعد أيام من دخوله المكتب البيضاوى بالبيت الأبيض الأمريكي.. وبالطبع فإن هذا الحدث كفيل بكشف تعاطف الجماهير وإلتفافهم حول رئيسهم الذى استطاع أن يستثمر بذكاء هذه الظروف المرضية فى تثبيت شعبيته لينال تأييد الأمريكيين فى اتفاقياته العسكرية، وبرنامج حرب النجوم الذى انفق من أجله مايزيد عن ٢٦ مليار دولار بعد ذلك..

وقد أنهى الرئيس الأمريكى رونالد ريجان رئاسته للولايات المتحدة بعد إنقضاء فترة حكمه الثانية عام ١٩٨٩، وكان يبلغ من العمر وقتها ٧٨ عاما ويبدو عليه الأعياء الشديد والنحافة، وتأثير المرض الذى لم يستطع السيطرة عليه إلا بسلسلة من الجراحات الخطيرة التى كان لايثق فى أنه سينجو منها، بدليل أنه كان يصدر قرارا بتفويض نائبه چورچ بوش للقيام بأعمال الرئاسة أثناء كل جراحة يجريها.. وبعد أن يفيق ريجان بدقيقة واحدة من أثر المخدر الذى تناوله أثناء إجراء الجراحة، يسحب هذه السلطات التى منحها لنائبه، بل يطلب الأوراق الرئاسية ليوقعها فى فراشه فى الوقت الذى لم يمر سوى ساعات قليلة على نجاته ونجاح العملية الجراحية التى أجريت له..

ولاشك أن المرحلة العمرية التى حكم فيها رونالد ريجان أمريكا من (٧٠ إلى ٧٨ عاما) تعتبر مرحلة خطرة حيث لايوجد رجل فى مثل هذه العمر لايعانى من أمراض الشيخوخة التىَ تتمثل فى فقدان القدرة على التركيز لفترات طويلة، واختلال التوازن وقصور فى الوظائف الحيوية لأجهزة الجسم المختلفة، بالإضافة إلى تصلب الشرايين وضيقها وانسدادها والذى يسبب مع مرور الوقت تأثيرا بالغاً على القدرات العقلية للإنسان، خاصة إذا ما تأثرت الدورة الدموية فى مخ الإنسان.. ولايمكن لأى إنسان أن يصل إلى سن رونالد ريجان دون أن يصاب بتصلب الشرايين لأنه مرض عادة ما يسبب تغيرات بجدران الأوعية الدموية والشرايين، تبدأ فى مرحلة مبكرة جداً من العمر، وتستمر ببطء شديد حتى تصل إلى ذروتها فى سن الشيخوخة، وتأخذ دورها فى التأثير على الإنسان وقوة تركيزه وقدرته على اتخاذ القرار..

وبالطبع فإن جلوس رجل فى عمر رونالد ريجان على مقعد رئاسة دولة عظمى مثل الولايات المتحدة الأمريكية لهو أمر بالغ الصعوبة فى مداه وتأثيره، ولكن رونالد ريجان حاول أن يتحدى شيخوخته وأن يثبت للعالم كله أن شيخوخته قادرة على التحكم فى قوة أمريكا التى لاتعادلها قوة على وجه الأرض..

فيدل كاسترو

«عقد... تركيبات... متناقضات»

عجيب أمر هذا الرجل.. الذى جمع فى شخصيته متناقضات كثيرة، يصعب أن تتوفر فى شخصية إنسان واحد.. فهو يجمع بين القوة والضعف والسالب والموجب.. والبناء والهدم.. والتصميم على الرأى لدرجة التعصب الأعمى.. ثم الإفراط فى الرأى لدرجة التنازل المذل وهو حالة خاصة جدا، تستحق الفحص والدراسة خاصة إذا عرفنا أنه يلقى معارضة شديدة داخل كوبا وخارجها بالإضافة إلى الحصار الاقتصادى، المفروض عليه منذ بداية حكمه والذى وصل بالبلاد إلى حد المجاعات!! وبالرغم من كل ذلك فمازال على عرشه قوياً وقوته تزداد يوماً بعد يوم..

وفيدل كاسترو ولد فى ١٣ أغسطس عام ١٩٢٦، وكان أبوه رجلاً موسراً، واسع الرزق يمتلك مزارع تنتج الدخان وتصدره، وقد ذكر أحد المغتربين اللبنانيين المقيمين فى كوبا عام ١٩٦٠ أن الرئيس كاسترو قد أنجبته أم لبنانية، تنتمى إلى عائلة «روس» المعروفة فى مدينة طرابلس بلبنان، وأضاف المغترب اللبنانى أن قصة زواج السيدة اللبنانية «لينا روس» من والد كاسترو معروفة فى هافانا وأنه قد شاهد لينا التى ولدت فى حى البغاطسية بشارع التربيعة فى طرابلس مع والدها وأعجب بها إعجابا شديدا، وأحبها وتزوج منها، وأنجبت له فيدل كاسترو... ورغم تداول هذه القصة فى معظم صحف العالم الصادرة فى الستينيات إلا أنه لايمكن الحكم على صحتها من عدمه..

وخلال سنوات الدراسة ظهرت مواهب فيدل كاسترو المتعددة، فاشتهر بين زملائه كبطل رياضى، كما عُرف بقدرته الفائقة على الخطابة أمام الجموع والحشود، فكان مجيداً لاستخدام الكلمات، ومتقنا فى نطقها وتوجيهها توجيها حماسياً، يؤثر فى المستمعين له ويجعلهم فى حالة أشبه بحالات النوم المغناطيسى.. ثم إلتحق بعد ذلك بجامعة هافانا عام ١٩٤٥ لدراسة القانون، وقد ساعدته قدراته الشخصية على الإتجاه إلى العمل السياسى، فكان من أنشط الطلاب من الناحية السياسية خلال دراسته الجامعية التى أنهاها فى عام ١٩٥٠..

وفى عام ١٩٤٧ وأثناء دراسته للقانون تعرف على زوجته الأولى «ليرثا دياز» شقيقة رافاييل ديازا، أحد زعماء الثورة الكوبية واقترن بها فى ١٣ ديسمبر من نفس العام وبعد تخرجه من الجامعة بفترة طلقها بدون أسباب واضحة.. وفى ذلك الوقت كان الديكتاتور فلوجنسيو باتيستا مسيطرا على مقاليد الحكم فى كوبا منذ عام ١٩٢٣ وكاد الشعب أن

يضج من صلفة وديكتاتوريته أكثر من مرة خاصة بعد أن تمكن الأمريكيون فى عهده من السيطرة على أكثر من ٩٠٪ من موارد وثروات البلاد، حتى أصبحت جزيرة كوبا تقريباً مستعمرة أمريكية، تخضع فى ولائها للسياسة الأمريكية والذى كان باتيستا واحداً من خدام هذه السياسة.

وقرر كاسترو فى عام ١٩٥٣ أن يشكل مع مجموعة من الثوار الذين يحملون نفس مبادئه، جماعة تعمل على خلع الديكتاتور باتيستا، والإطاحة به، وكان كاسترو وقتها يعمل محامياً ولكنه أصبح العضو الرئيسى بهذه المجموعة، والتى نجحت فى إعداد تخطيط محكم مستند على الإرادة الشعبية التى كان قد فاض الكيل بها بهدف الثورة على نظام الحكم الديكتاتورى.. وبالفعل بدأ كاسترو مع مائة وثلاثين من أتباعه أول هجماته المسلحة فى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٣ على ثكنات موناكادا، ولكنه فشل مع مجموعته فى الإنقلاب على نظام الحكم أو تغيير شئ من الواقع، بل على العكس فقد انتهى الأمر باعتقاله مع أخيه وشقيق كفاحه الثورى راؤول كاسترو، وعندما تم القبض عليه عثرت السلطات فى حقيبته على خطاب غرامى كتبه إلى السيدة ناتي ديفيولتا البرجوازية والمتزوجة من طبيب يدعى اورنالدو فرنانديز وأم لإبنة تدعى «ناتالى» وكانت هذه السيدة قد تشبعت بحب كاسترو وأفكاره بما جعلها تقيم معه علاقة غير شرعية، عاشرها خلالها معاشرة الأزواج..

وحُكم على كاسترو بالسجن لمدة ١٥ عاما لكنه فى عام ١٩٥٥ خرج من السجن بعد أن شمله عفو عام، فسافر إلى المكسيك للإعداد لمرحلة جديدة من المواجهة مع الحاكم الديكتاتورى، ورغم أن كاسترو قد فشل فى الجولة الأولى إلا أنه استطاع بهذه الخطوة أن يحرك القضية ويزيد من القاعدة الشعبية المؤيدة له، والناقمة فى نفس الوقت على سياسة الحكم الديكتاتورى فى كوبا، وفى المكسيك قابل رفيق كفاحه وصاحب المبادئ النضالية الأرجنتينى شى جيفارا الذى دعا كاسترو ورجاله إلى البقاء فى المكسيك للتدريب على فنون المواجهة العسكرية، وبالفعل قضى كاسترو ١٥ شهراً تدرب فيها مع رجاله على حرب العصابات بمساعدة جيفارا، ثم عاد إلى كوبا وعاود هجومه مرة أخرى عام ١٩٥٦ على نظام الحكم، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً أيضاً فى هذه المرة مما جعله يقرر اتخاذ وقفه، مع النفس ليتمكن من إعادة تنظيم قواته ومعالجة الأسباب التى تجعله يفشل فى السيطرة على الحكم فى كل محاولة للثورة على النظام الديكتاتورى، كما أنه كان يرغب فى اكتساب تأييد قطاع عريض من الفلاحين وطبقات الشعب التى تعانى من ظروف اقتصادية صعبة..

واستمرَ كاسترو فى نضاله الثورى ضد ديكتاتور كوبا إلى الحد الذى جعله يهدد فى أكتوبر عام ١٩٥٨ بأنه سيقتل كل المشاركين فى الانتخابات التى تنظمها حكومة باتيستا لأن الاشتراك فى هذه الانتخابات يعد خيانة عظمى للثورة، كما أنه دعى إلى تخريب الممتلكات البريطانية فى بريطانيا نفسها وفى كوبا بل فى كافة أنحاء العالم، لأن بريطانيا

باعت طائرات حربية لحكومة باتيستا التى ثار ضدها..

وكان كاسترو قد علم أن عشيقته «ناتى» قد وضعت ابنتها «إيلينا» من علاقتها الغير شرعية به، فى الوقت الذى كان يعيش فى منفاه بالمكسيك عام ١٩٥٦ لكنه قرر ألا يشغل باله بهذه القصة السخيفة من وجهة نظره، وكان يرسل أمه من حين لآخر لترى إبنته فى مقابلات سرية مع ناتى بعيداً عن أعين زوجها الدكتور أورنالدو، وظل كاسترو لمدة ثلاثة سنوات لايفكر فى رؤية ابنته إيلينا بحجة إنشغاله فى الثورة ضد النظام الديكتاتورى.. وبالفعل فقد استطاع كاسترو تضييق الخناق حول الديكتاتور فلوجنسيو باتيستا الذى تأكد من أن الثورة لن تتركه قبل أن تحرر البلاد من طغيانه وسوء حكمه، فآثر أن يترك الحكم ويغادر البلاد فى يناير عام ١٩٥٩ واستولى فيدل كاسترو على العاصمة هافانا فى بداية جديدة لإنشاء مجتمع مثالى ينعم فيه الجميع بتكافؤ الفرص.. وبدأ الإصلاح يتجه نحو الاهتمام بالتعليم ورفع مستوى المعيشة لمواطنى كوبا الذين يعانون من الفقر المدقع والمرض والجهل، وقد أطلق كاسترو على خطته الاصلاحية برنامج «الإصلاح الاجتماعى»، وتمكن من خلال العمل به من التصدى للأمية والجهل واحتكار الملاك ورجال الأعمال لسبل الرزق المختلفة، كما قام بتأميم المزارع والممتلكات الأساسية والاستراتيجية فى كوبا وأقام عدداً من المزارع التعاونية التى تستفيد منها طبقات الشعب المختلفة وخاصة الفلاحين.. ونجح برنامج «الإصلاح الاجتماعى» فى تحسين الظروف المعيشية اليومية للفقراء، ولكن كاسترو فى نفس الوقت لقى معارضه شرسة من الملاك ورجال الأعمال والأعيان الذين حاولوا بكل الأساليب وقف زحف الثائر الجديد نحو مصالحهم التى تتعارض مع مصالح الأغلبية من أفراد الشعب فى كوبا، وعندما فشلوا فى القضاء على الثورة غادر الآلاف منهم البلاد خلال السنوات الأولى لحكم كاسترو وتوجهوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية التى فتحت أبوابها إليهم..

وقد واجه كاسترو منذ بداية حكمه عداءاً أمريكياً لاحدود له لأن الثورة الاشتراكية التى قادها كان غرضها الأول هو القضاء على الهيمنة الأمريكية على جزيرة كوبا، والتخلص من تركه الرجعية والتخلف والجهل الناتج عن هذه الهيمنة الأمريكية المسيطرة على موارد البلاد وثرواتها.. وأولى المشاكل الصعبة التى واجهها كاسترو فى بداية حكمه كانت أزمة «خليج الخنازير» والتى دبرتها ومولتها الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب ماتكنه من عداء وحقد لكاسترو وثورته، خاصة بعد أن تأكدت أمريكا أن الطموح الثورى لدى كاسترو لم يكن مقصورا على كوبا بل إنه يحاول تصدير الثورة إلى دول أمريكا اللاتينية وهذا بالطبع سيضر بالمصالح الأمريكية فى هذه الدول، بالإضافة إلى أن كاسترو لم يكف يوماً عن مهاجمة السياسة الأمريكية وكشف أوراقها ومطامعها فى كوبا، والدول الأخرى الواقعة تحت الهيمنة الأمريكية..

وأزمة «خليج الخنازير» كانت محاولة فاشلة لخلع كاسترو وإقصائه عن حكم البلاد،

وقد اشترك في هذه المحاولة ١٥٠٠ شخص من المنفيين الكوبيين ونفذت في عهد الرئيس الأمريكي الراحل چون كيندى عام ١٩٦١، ولكن كاسترو العنيد ومعه قواته التي تدين له بالولاء تمكن من قمع الانتفاضة والثورة ضده وقام بالقضاء على الإنقلابيين، واعتقل من بقي منهم على قيد الحياة واضطرت الإدارة الأمريكية للتدخل لإنقاذ المعتقلين الذين تعتبرهم من رجالها ووافق كاسترو على الإفراج عنهم في مقابل مساعدات أمريكية لكوبا تشمل الأدوية وبعض المساعدات الغذائية والملابس، والتي كبدت أمريكا وقتها أكثر من ٥٣ مليون دولار..

وهذه الأزمة جعلت شوكة كاسترو تقوى خاصة بعد أن أصبحت الولايات المتحدة تصنع له ألف حساب، وتعيد دراسة مواقفها وسياستها في جزيرة كوبا بعد أن أيقنت أن عهد كاسترو بالطبع لن يكون كعهد سلفه فلوجنسيو باتيستا وخرج كاسترو المتحدى على شعبه من خلال شاشات التليفزيون وهو يعلن تحديه لأمريكا وسياستها، ويؤكد أنه قرر أن يكون ماركسيا لينينيا مدى الحياة وأطلق صيحته المشهورة التي مازال متمسكا بها إلى الآن «الاشتراكية أو الموت» وهذا التحدى كاد أن يجعل العالم للمرة الثالثة على مقربة من اندلاع حرب عالمية، ففي خريف عام ١٩٦٢ استطاع كاسترو أن يقنع نيكتيا خروشوف الزعيم السوفييتي في ذلك الوقت بأن الولايات المتحدة الأمريكية، ستعاود غزو كوبا التي لاتمتلك وسائل دفاعية للرد على العدوان الأمريكي في حالة وقوعه.. واقتنع خروشوف الذى كان يرى أن أمن كوبا الشيوعية هو امتداد طبيعي لأمن الاتحاد السوفييتي ونتيجة لهذا الاقتناع فقد أخذ خروشوف قراره بنقل صواريخ ذات رؤوس نووية إلى كوبا، وتسربت الأنباء إلى واشنطن التي بدأت في التحرى عن صحة هذه المعلومات عن طريق إرسال طائرات للتجسس فوق أرض كوبا.. ولكن إحدى طائرات التجسس الأمريكية سقطت في ظروف غامضة، وأدى ذلك إلى تصاعد الأزمة بين القوتين العظمتين في العالم الذى أصبح على شفا حرب نووية لولا الصفقة التي عقدها الرئيس الأمريكي چون كيندى مع الزعيم السوفييتي خروشوف، والتي تقضى بعدم تعرض أمريكا أو تفكيرها في غزو كوبا في مقابل تفكيك الاتحاد السوفييتي لرؤوسه النووية الموجودة على أرض كوبا.. وعلق كاسترو بعد ذلك على موقف خروشوف الذى وقع الصفقة مع چون كيندى قائلا: كنت سأوجه لكمة إلى وجه خروشوف لو فكر في زيارة كوبا بعد سحب الصواريخ، وعندما نشرت صحيفة لوموند الفرنسية هذا التصريح أنكر كاسترو أن يكون مثل هذا الكلام قد جاء على لسانه وأن الأمر مجرد تلفيق صحفي..

وفي ١٧ أكتوبر عام ١٩٦٢ وبعد مرور هذه الأزمة الطاحنة التي كادت أن تطيح بالعالم، وتلقى به في آتون الحرب تزوج كاسترو من إيزابيل كوثر وهي من سكان مدينة سانتياجو في نفس الوقت الذى تناسى فيه إبنته إيلينا التي أنجبها من عشيقته ناتي، ولم يكن قد رآها سوى مرة واحدة عندما بلغت الثالثة من عمرها ووقتها وقف يتأملها ضاحكا وهو

يقول «إنها تشبه الخروف الصغير» والعجيب أن إيلينا عاشت السنوات الثلاثة الأولى فى حياتها مع أمها وزوجها الطبيب الذى لم يكن يعلم أن إيلينا ليست إبنته، ولكن بعد أن تولى كاسترو الحكم علم بأمر العلاقة التى جمعت زوجته بالزعيم الثورى، وأن إيلينا التى نسبها إليه وحملت أسمه لم تكن سوى إبنة غير شرعية لزوجته الخائنة.. فأصيب بإكتئاب شديد وانفصل عن زوجته، واصطحب ابنته الأخرى ناتالى، وترك البلاد بعيداً عن بطش كاسترو، وفى نفس الوقت لم يعرض كاسترو على ناتى الزواج أو الاعتراف بإبنته وعندما فكر فى الزواج بعد مرور ثمانية سنوات من ميلاد إبنته لم يختار أمها زوجة له ولكنه اختار إيزابيل كوثر!!

وبالطبع لم تكن الولايات المتحدة قادرة فى ذلك الوقت على القيام بأى تحرش عسكرى ضد كاسترو بعد الاتفاق الذى عقدته مع الاتحاد السوفيتى، ولم يكن أمام الإدارة الأمريكية سوى فرض حظر اقتصادى على كوبا بسبب مشاغبات رئيسها المستمرة ـ على حد رؤية الإدارة الأمريكية ـ حتى يعيش شعبه فى حالة من الفقر والجوع والضياع، وبالتالى فمن السهل أن يثور الشعب على قائده ويخلعه، وهذا ماتريده أمريكا.. ولكن هذا الحظر دفع كاسترو للإرتماء فى أحضان خروشوف والاعتماد فى اقتصاده على المساعدات السنوية التى قدمها له الاتحاد السوفيتى والتى كانت تقدر بمليار دولار سنوياً، وكان هذا هو الخطأ الأكبر فى تاريخ الثورة الكوبية، حيث فشل كاسترو فى بناء اقتصاد قومى ولذلك كان من الطبيعى أن تشهد كوبا إنهيارا اقتصاديا بعد تفكك الاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٩، وتوقف المساعدات السوفييتية التى كان يعتمد عليها كاسترو اعتماداً كلياً فى إدارة شئون بلاده.

واستمر مسلسل التحدى الكبير بين ڤيدل كاسترو من جهة والولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى، واستطاع كاسترو أن يقف بمفرده أمام تحدى عشرة رؤساء أمريكيين عاصرهم منذ بداية حكمه وحتى الآن، وكانت دولته الشيوعية التى أسسها على مسافة ٩٠ ميلاً فقط من السواحل الأمريكية هى أكبر تحدى للأمن القومى الأمريكى، وللسياسة الأمريكية التى كانت تخطط للقضاء على الشيوعية فى كل أنحاء الأرض، ولذلك شددت أمريكا العقوبات والحظر الاقتصادى على كوبا، وخفضت من استيرادها لمحصول السكر الذى كانت تستورده من كوبا وهو محصول استراتيجى بالنسبة للاقتصاد القومى فى كوبا، وتعتمد عليه فى جزء كبير من دخل البلاد.. وهنا اشتعل غضب كاسترو، وأنذر أمريكا بأنها إذا استمرت فى تخفيض استيراد السكر فسوف يرد عليها بتقليص دور شركات البترول الأمريكية فى كوبا لاستبدالها بشركات من جنسيات أخرى.. وعندما لوحت أمريكا بالحرب صرح كاسترو لكل وسائل الإعلام قائلا: على أمريكا أن تتأكد بأننى سأبيد ٢٠٠ ألف أمريكى فى كوبا إذا قررت أمريكا أن ترسل مشاه أسطولها إلى كوبا..

وأثناء اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦٠ رفضت فنادق نيويورك

استضافة كاسترو رغم أنه حصل على تأشيرة دخول الولايات المتحدة وقال : أنه سينام فى حديقة سنترال بارك فى نيويورك، وسيربط قطعة من القماش بين شجرتين وينام عليها ! ! وعندما تدخلت الأمم المتحدة وأجبرت أحد الفنادق على استضافته لقى كاسترو أسوأ معاملة يمكن أن يلقاها رئيس دولة، فقد قدم له مدير الفندق طعاما فاسداً، وكان يطلب منه كل ساعة نقوداً، ويقدم كشوف حسابات غير معقولة، وفى إحدى المرات أرسل له صاحب الفندق يطلب منه سداد ١٠ آلاف دولار، فصرخ كاسترو فى وجهه : إنها ليست نقودى ولكنها نقود الشعب . . وترك الفندق على الفور وعندما سأله الصحفيون وهو يستقل السيارة من أمام الفندق : أين ستذهب ؟ ! أجاب : سأقضى الليلة فى الأمم المتحدة ! ! وظلت مشكلة المكان الذى يبيت فيه كاسترو تحلق على الأجواء من حين لآخر، حتى جاء اليوم الذى ألقى فيه خطابه أمام الجمعية العامة، وظل لمدة ٤ ساعات و٢٩ دقيقة يتكلم وكل كلمة يطلقها من فمه كانت بمثابة دانة مدفع قوية توجه نحو المصالح والكرامة الأمريكية . . وعندما عاد إلى كوبا طالب بنقل مقر الأمم المتحدة من أمريكا، وأصدر قراراته بتأميم البنوك الأمريكية فى كوبا، وقام بطرد ثلاثة أمريكيين منهم أثنان من موظفى السفارة الأمريكية بهافانا . .

ومشكلة كاسترو الحقيقية فى حكمه أنه إهتم بالتحدى الأمريكى ومحاولاته المستمرة لكسر الشوكة الأمريكية، والانتصار للشيوعية على حساب أبناء وطنه الذين لقوا المُر والهوان فى فترة حكمه . . والطبيعى أن كاسترو ماكان بقدرته أن يقف أمام الولايات المتحدة الأمريكية بكل قوتها وعظمتها وهو يقود دولة عرجاء فى اقتصادها وشعبها مكدود ومطحون ومهزوم نفسياً . . ولم يحاول كاسترو فى البداية أن يتنازل ولو قيراطا واحداً عن تحديه غير المدروس للولايات المتحدة والنتيجة بالطبع كانت مزيداً من الحصار الاقتصادى الأمريكى على كوبا ومزيداً من الفقر والجهل والمرض لأبناء الشعب فى كوبا، وهو مايخالف أهداف الثورة التى قام بها فيدل كاسترو، والتى كان من أهم أهدافها تطبيق برنامج «الإصلاح الاجتماعى» الذى يقضى على الفقر والجهل والمرض . . وأصبح فيدل كاسترو محاطاً بشقى الرحى فهو يلقى من جهة تحديا أمريكيا لايستطيع الصمود أمامه ولايتنازل عن مواجهته، ومن جهة أخرى بدأت المعارضة الشعبية تتعاظم ضد حكمه وسياسته التى أذلت الشعب وأهانته إلى الحد الذى جعل فلولا من المواطنين تهرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، التى اتخذت قرارها بمنح حق اللجوء السياسى لكل مواطن كوبى يرغب فى الهرب من جحيم كاسترو إلى نعيم أمريكا . .

ولم يستطع فيدل كاسترو أن يواجه المعارضة الداخلية إلا بمزيد من العنف والقسوة لإخماد ثورة معارضيه، فقد وقف فى المؤتمر الدولى للمهندسين بهافانا يقول لمعارضيه : لاتحاولوا . . فأنا مهندس العالم الجديد، وصرح بلسانه أنه لايوجد فى كوبا سوى ١٥ ألف سجين سياسى فقط ! ! وطلب من الشعب الكوبى أن لاينتظر إقامة انتخابات رئاسية فى

السنوات القادمة لأنه لن يتخلى عن الحكم.. فالثورى لايموت!! واتهمته أمريكا بأنه مهرب مخدرات محترف، وأنه يقوم بعمليات لتهريب المخدرات فى دول أمريكا اللاتينية، وأنه وشقيقه راؤول كاسترو وزير الدفاع قد سمحوا لمسئولين كوبيين على مستوى عالى بالاشتراك فى أنشطة تهريب المخدرات حتى تتسع دائرة هذه الأنشطة إلى الولايات المتحدة الأمريكية..

والمعارضة الداخلية ضد حكم كاسترو لم تكن من عامة الشعب فقط، بل إن أقرب الناس إليه قد عارضوه وثاروا عليه وفضحوا حكمه الديكتاتورى.. وكان من أشهر معارضيه شقيقته جوانا كاسترو التى لجأت إلى المكسيك عام ١٩٦٤ إعتراضا على سياسة شقيقها كاسترو، وهاجمته هجوماً عنيفاً، واتهمته بأنه ديكتاتور شيوعى يبنى مجده الشخصى على جثث الجائعين والفقراء والمعدمين من أبناء الشعب.. وقالت جوانا بعد وصولها للمكسيك أنها ساعدت أكثر من ٢٠٠ ثائر من خصوم كاسترو على الهرب بإتفاق مع المخابرات المركزية الأمريكية، وأنها كانت تمتلك بانسيونا بالقرب من هافانا، وكان جميع خصوم كاسترو يلجأون إليه، ويدبرون الخطط لخلعه وإقصائه عن الحكم، وحثت جوانا كاسترو دولَ العالم على إنقاذ الشعب المقهور فى كوبا وإطلاق أكثر من ٧٥ ألف معتقل فى سجون ڤيدل كاسترو وليس ١٥ ألف كما يصرح دائماً..

ولم تكنَ جوانا كاسترو هى المعارضة الوحيدة لڤيدل كاسترو من بين المقربين إليه، بل هناك أيضا إبنته إيلينا، وهى الأبنة الوحيدة ضمن ثمانية أبناء أنجبهم كاسترو.. وقد فرت من بطش أبيها وطلبت اللجوء السياسى للولايات المتحدة الأمريكية، حيث أقامت فى ولاية نيوجرسى الأمريكية وظلت تمارس نشاطاً سياسياً معاديا لوالدها من داخل الولايات المتحدة، ونظمت العديد من المظاهرات التى اشترك فيها المنفيون الكوبيون لفضح سياسة كاسترو.. بل أكثر من ذلك فقد خرجت للعالم على شاشات القنوات الإخبارية العالمية لتقول عن أبيها، أنه إرهابى ومهرب مخدرات، ويستلذ بتعذيب معارضيه، وأنه تسبب فى تدمير حياتها والقضاء على سعادتها الزوجية بعد أن رفض أن ترحل مع زوجها إلى المكسيك.. ولكنها استطاعت أن تستخدم جواز سفر مزيف كسائحة أسبانية للهرب من كوبا واللجوء إلى الولايات المتحدة.. وقالت إيلينا فى مذكراتها أنها لم تعرف أنها إبنة كاسترو إلا عندما بلغت العاشرة من عمرها عندما أعطتها صديقتها «توتا» إحدى المجلات التى كانت تراسلها إيلينا وتكتب لها بعض التجارب الشعرية، وفوجئت إيلينا وهى تقرأ بعض أشعارها المنشورة بالمجلة بعبارة «ملحوظة: كاتبة هذه الأشعار هى إبنة كاسترو»، وعندما جرت على أمها لتسألها عن الحقيقة أكدت لها الخبر وأطلعتها على رسائل الغرام التى كان كاسترو يكتبها إليها.. وكرهت إيلينا أبيها الذى يعتبر أقوى رجل فى كوبا، ومع ذلك يرفض تطبيع العلاقات الأبوية مع إبنته.. فلم تكن تعرف رقم تليفون أبيها المباشر ولم يدعوها لزيارته سوى مرة واحدة، وعندما فكر فى أن تحمل إبنته اسمه رفضت إيلينا ذلك وأصرت على أن

تظل تحمل اسم عائلة والدتها «ديفولتا» والتى مازالت تحمله حتى الآن..

وقد أدى الحصار الاقتصادى الذى فرضته الولايات المتحدة على كوبا إلى مزيد من الفقر والضياع الاقتصادى، وانتشار المجاعات والأمراض.. وقرر كاسترو أن يخفض من النسب المتزايدة فى استهلاك الطاقة والوقود، واستورد من الصين كميات هائلة من الدراجات كى يستخدمها الأهالى بدلا من السيارات والموتوسيكلات، وشرعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الكوبى فى إطفاء الأنوار خلال اجتماعاتها ليظل شعارها «الاشتراكية أو الموت»!!؟ وفى شوارع هافانا خفت حركة المرور، وقلت عدد الأوتوبيسات بلغارية الصنع، وسيارات اللادا الروسية التى كانت منتشرة فى شوارع كوبا من قبل.. وقد بلغت نسبة البطالة مداها بين الشباب الذين يمثلون ٦٥٪ من السكان وارتفعت نسبة الطلاق إلى ٥٠٪ بين الشباب المتزوجين بسبب سوء الأحوال الاقتصادية والمعيشية.. ورغم كل ذلك لم يفكر كاسترو أن يتخلى عن حكمه الشمولى أو يجرى انتخابات حرة.. فعمت الفوضى كل أرجاء البلاد، وهرب أهله بالجملة خوفا من سطوته وبطشه.. وخوت خزائن بلاده، وأغلقت أسواق العالم أمام صادراته، وازدادت المحلات التجارية خواءا.. والطوابير تزداد طولا، والمحاصيل تذبل فى الحقول، لأنها لاتجد وسيلة نقل.. وفى قلب هذه المجاعة التى كاد ان يتساقط أمامها أبناء الشعب فى الشوارع واحدا تلو الآخر وقف كاسترو يقول لشعبه المغلوب على أمره.. إذا تحلل الاتحاد السوفييتى أو أختفى من الوجود فإننا سنواصل بناء الاشتراكية أما الرأسمالية فلايمكن أن تعود إلى كوبا مادام هناك ثورى واحد.. قاوموا.. قاوموا قاوموا..!!

واتهم كاسترو واشنطن بأنها تشجع الكوبيين على اختطاف قوارب بحرية والتوجه بها إلى فلوريدا، وأنها تمنح حق اللجوء السياسى لأى كوبى يتمكن من الوصول للسواحل الأمريكية.. وقال أنه لن يتخذ أى إجراء تجاه قراصنة الجو فى حالة اختطاف طائرة أمريكية والتوجه بها إلى كوبا..

إلى هذا الحد يبلغ العناد مداه..؟

وإلى هذه القسوة يلعب الحاكم بأرواح رعيته؟!... وطبيعى أن يتعرض كاسترو لمحاولات عديدة لاغتياله، فقد صرحت وزارة الداخلية الكوبية فى ٢١ يوليو عام ١٩٩٩ أن كاسترو تعرض لـ٦٣٧ محاولة لاغتياله على مدى ٤٠ عاما منذ توليه الحكم وحتى الآن.. وأكدت وزارة الداخلية أن أمريكا متهمة بتدبير معظم هذه المحاولات، والتى استخدمت فيها طرقا مختلفة منها السيجار المسموم والقواقع البحرية المتفجرة، وتفصيل زى عسكرى لكاسترو مزودا ببكتريا سامة، بالإضافة إلى محاولات اغتيال عديدة باستخدام الأسلحة التقليدية ونفذتها الجماعات الكوبية فى المنفى..

وأغرب محاولة لاغتيال كاسترو كانت فى ١٣ مارس عام ١٩٦٤ باستخدام

ميكروفون مكهرب حيث وضع المتآمرون خطة لربط سلك كهربائى ذى ڤولت عال بالميكروفون الذى سيستخدمه كاسترو أثناء إلقائه خطاباً هاماً فى التليفزيون بمناسبة ذكرى هجوم الطلبة على قصر الديكتاتور السابق باتيستا عام ١٩٥٨، ويكون لهذا السلك مفتاح خاص حتى إذا أمسك كاسترو بالميكرفون أدير المفتاح ليصعقه التيار.. ولكن تم اكتشاف هذه المؤامرة عندما قام ممثل بالتليفزيون بالابلاغ عن الحادث قبل وقوعه بـ٤٨ ساعة وقام البوليس باعتقال ١٧ شخصاً من الفنيين وممثلى التليفزيون وأعدم اثنين منهم وصدر الحكم بالسجن على باقى المتهمين، والغريب أنه كان يوجد ٦ سيدات من بين مجموعة المتآمرين!!.

وكشفت وثائق سرية نشرتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية عام ١٩٩٣ أن حكومة الرئيس چون كيندى طلبت من الوكالة تشكيل وحدة متخصصة لاغتيال قادة أجانب، وأن هذه الوحدة حاولت اغتيال كاسترو ثمانية مرات من بينهم مرة باستخدام رصاص ملوث بسم سيانيد البوتاسيوم الذى يقتل فى الحال ومرة أخرى كما ذكرت مجلة ساترداى إيفننج بوست الأمريكية عام ١٩٦٧ عندما حاولت المخابرات الأمريكية قتل كاسترو أثناء وجوده فى دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦٠ باستخدام سيجار يحتوى على مواد شديدة الأنفجار وعندما فشلت المخابرات الأمريكية فى اغتيال كاسترو لجأت إلى الاستعانة بعصابات المافيا وبالتحديد فقد قام رجال المافيا سام جيانكانا وجون روسيلليني بالتخطيط لقتل كاسترو أكثر من مرة ولكن دون جدوى أيضاً، وفى النهاية أعدت المخابرات الأمريكية ثلاثة خطط للتخلص من كاسترو، كما ذكرت مجلة ديتكتيف الفرنسية... الأولى، كانت تهدف إلى دفعه إلى حالة من السكر من خلال احد العقاقير التى تجعله يهذى بكلام غير مسئول أمام شعبه.. ولكن تم الاعتراض على هذه الخطة لأن الكوبيين لايستمعون عادة إلى خطب كاسترو..، والخطة الثانية كانت تهدف إلى وضع الماريجوانا فى السيجار الذى يدخنه حتى يهذى بالكلام أمام مجلس الوزراء ولكن هذه الاقتراح أيضا لقى الرفض لأن كاسترو كان معتاداً دائماً على الهذيان أمام وزرائه دون أن يبدو عليهم الضيق، أما الخطة الثالثة فكانت عن طريق تنويم كاسترو وحلاقة لحيته حتى يفقد هيبته أمام شعبه وهذا أمر كفيل بالقضاء عليه...، ولكن.. كل هذه المحاولات للتخلص من فيدل كاسترو لم تتحقق وعاش الرجل إلى يومنا هذا.. مثل القطط بسبعة أرواح..

والغريب أن كاسترو الذى دفع بشعبه إلى الهاوية من أجل مبادئ الشيوعية التى مازال يدافع عنها حتى الآن.. هو نفسه الذى بدأ يناقض مبادئه الثورية ويحاول أن يمد جسور التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة بعد أن ضيقت أمريكا الخناق عليه.. وأصبح مهدداً من شعبه الجائع فى كل لحظة ودقيقة.. فقد تفتق ذهن كاسترو عن حيلة للخروج من الأزمة الطاحنة التى تعرضت لها بلاده بعد إنهيار الاتحاد السوفييتى، حيث سمح بتبادل الدولار وتشجيع الاستثمارات الأجنبية بما فيها الاستثمارات الأمريكية، وأطلق على حيلته

الذكية «تحديث النظام الشيوعى» وفى نفس الوقت دعا إلى تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية، وفتح صفحة جديدة فى العلاقات الأمريكية الكوبية، بل أكثر من ذلك فقد أعلن عام ١٩٩٤ أنه لن يقف أمام هجرة الكوبيين إلى الولايات المتحدة، وأن أى كوبى يبلغ ١٨ عاماً يستطيع أن يهاجر إلى أمريكا دون أى محظورات، ولكن الرئيس الأمريكى بيل كلينتون رد على تصريح كاسترو رداً قوياً وعملياً حين أصدر قراره بمنع لجوء الكوبيون إلى أمريكا، وإيقاف تبنى أمريكا لهذا الإجراء الذى استمر لمدة ٢٨ عاما وأكد فى تبريره لهذا القرار أن أمريكا كانت تسمح باللجوء بسبب الحصار الاقتصادى الذى تفرضه الولايات المتحدة على كوبا، وأعلن كاسترو انه مستعد لمقابلة الرئيس الأمريكى، ولكن بيل كلينتون لم يبد تعليقاً على إعلان كاسترو، وبدى واضحاً أن الإدارة الأمريكية ليست على استعداد لتغيير نظرتها إلى كوبا قبل رحيل كاسترو..

هكذا قذف كاسترو بكوبا فى مياه المحيط الأطلنطى من أجل الدفاع عن مبادئه الثورية التى ضحى من أجلها بأحلام شعب كامل، وعندما غرقت فى قاع المحيط.. هرول ضعيفا نحو عدوه الذى حطم نفسه فى حربه معه.. ليدعوه لإنقاذه والإمساك بيده.. ولكن العدو كان أذكى من أن يعطى هذه الفرصة لكاسترو حتى يطفو على السطح وينجو أمام شعبه ويصبح بريئا أمام محكمة التاريخ..

فيدل كاسترو على فراش المرض

من الطبيعى أن رجلا فى عناد كاسترو لابد وأن يخفى الأحداث المرضية التى سيتعرض لها من حين لآخر.. لأن المرض - كما ذكرت من قبل - يكون مؤشرا أمام القوى المعادية على ضعف الحاكم، بل يمكن ببعض الحسابات الدقيقة أن تستدل هذه القوى على التوقيت الذى يمكن فيه أن يصبح الحاكم غير قادر على تسيير أمور البلاد، وبالتالى فمن السهل تشجيع القوى المعارضة للإنقلاب عليه.. ولذلك كان كاسترو حريصاً كل الحرص على عدم الدفع بحالته الصحية أمام الرأى العام حتى لاتزيد فى وجهه فلول المعارضة وتطيح به فى أى فرصة ممكنة..

ولكن هناك بعض الأخبار التى تسربت عن حالة كاسترو الصحية والعضوية، بالاضافة إلى تركيبته الشخصية التى سأفرد لها مساحة من التحليل، والتى كان لها الأثر الكبير فى توجيه عقلية وقرارات كاسترو وإصراره على المضى فى مواجهة التحديات الأمريكية على حساب شعبه.. وقد ذُكر أنه فى ٤ يوليو عام ١٩٦٠ أصيب كاسترو بالتهاب رئوى حاد عندما كان يشغل منصب قائد الثورة الكوبية ورئيس وزراء كوبا، ولكن الولايات المتحدة أعلنت أن كاسترو مصاباً بالسل الرئوى فى رئته اليسرى وأن طبيباً سويسرياً شهيراً متخصصا فى أمراض الصدر قد توجه إلى كوبا للكشف على كاسترو.

وفى ٣٠ يوليو من نفس العام أجرى كاسترو عملية جراحية وتم التعتيم عليها تماما، وفى ٢٦ يونيو عام ١٩٦٦ نشرت الولايات المتحدة الأمريكية خبرا - غير موثوق فيه - يؤكد أن كاسترو فقد صوته نتيجة لصدمة عصبية حادة تعرض لها وأنه موجود فى مستشفى للأمراض العقلية حيث يعالج بالصدمات الكهربائية لإصابته بإضطراب عصبى، وأن شقيقه راؤول كاسترو يخلفه فى منصبه..

وفى نفس الشهر أعلنت إحدى المنظمات المعادية لحكم كاسترو أنه سافر للعلاج فى الاتحاد السوفييتى وتشيكوسلوفاكيا سراً، ولم يعلن عن طبيعة المرض أو أسبابه..، وفى ٢٤ أكتوبر عام ١٩٧١ ذكرت صحيفة الصنداى تلجراف أن كاسترو أدخل المستشفى متأثراً بمرض خطير فى الصدر وأنه يقع الآن تحت الفحص الدقيق.. وفى اليوم التالى ذكرت صحيفة أخرى أن ڤيدل كاسترو مريض للغاية، ويعالج سراً من مرض تمكن من رئته اليمنى فى أحد مستشفيات هاڤانا، وأغلب الظن أنه مصاب بسرطان الرئة، ويجرى علاجه بالأشعة.. وأن هذه الاصابة تعود إلى الخمسينيات حينما كان يقاتل فى جبال سيبرا مايسترا إبان الثورة الكوبية ضد باتيستا.

وفى ٧ يونيو عام ١٩٧٢ قام كاسترو بإعادة النظر فى زيارته إلى بولندا والتى كان من المقرر أن يزورها، وقالت مصادر بولندية أن كاسترو تعرض لأزمة قلبية حادة نتيجة إصابته بذبحة صدرية، وهى حالة تشبه الانسداد فى الشرايين التاجية لعضلة القلب والناتجة عن قصود حاد بالدورة الدموية التاجية.. ولكن كاسترو تحامل على نفسه ووصل إلى بولندا فى اليوم التالى، وعندما سأله الصحفيون عن قلبه قال: إن قلبى من حديد ومن يريد أن يراهننى فليبارينى فى مضمار السباق..

وفى عام ١٩٨٥ أقلع نهائيا عن تدخين سيجار هاڤانا الشهير، وكان ذلك رغما عن أنفه بناءاً على نصائح الأطباء، وقال كاسترو أنه كان من المفروض أن يتوقف عن التدخين منذ خمس سنوات، ولكنه احتاج إلى هذه السنوات الخمس حتى يتخلص من الرغبة فى التدخين، وأكد أنه لم يكن متصوراً أنه سيسمح لنفسه بالتدخين مرة أخرى، ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التدخين فى الحلم.. والمعروف أن ڤيدل كاسترو كان يدخن سيجاره وهو لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره.. وفى عام ١٩٨٩ توقف تماما عن تناول القهوة والخمور، ونصحه الأطباء بإنقاص وزنه باتباع ريچيم غذائى معين لكن حبه لأطباقه المفضلة من البط والمكرونة والموز ساهم فى زيادة وزنه خاصة بعد توقفه بأمر الأطباء عن ممارسة رياضته المفضلة وهى الغوص..

وفى نفس العام شكى كاسترو من آلام روماتيزمية حادة جعلته غير قادر على الوقوف لدرجة أنه أصبح يلقى خطبه وهو جالساً وعندما يفكر فى السير فإنه يسير ببطء شديد، وقد أرجع أطباؤه سوء حالته الصحية فى السنوات الأخيرة إلى شعوره بالإكتئاب عندما فقد

صديقته سيلسا سانشيز التى ماتت بمرض السرطان..

ورغم أنه لم يتم التصريح رسمياً بأن كاسترو مصاباً بأحد أمراض القلب إلا أن التعليمات الأخيرة التى إلتزم بها كاسترو بناءاً على نصائح أطبائه تجعلنى أجزم بصحة ما أكدته المصادر البولندية فى السبعينات من أن كاسترو مصاباً بقصور حاد فى الدورة الدموية التاجية بالقلب ولهذا التأكيد أسباب كثيرة، فقد كان كاسترو مدمناً للخمور بدرجة شرهة، كما أنه بدأ تدخين سيجاره الشهير فى سن مبكرة، ومن المعروف أن التدخين هو العدو الأول للقلب، ومسبب رئيسى لحدوث الأزمات القلبية، بالاضافة إلى أن كاسترو كان مصاباً بنسبة من الفشل فى وظائف الرئتين نتيجة إصابتهما بمرض خطير تضاربت فيه الأقوال مابين السل الرئوى والسرطان، ولكن فى أى الأحوال كان فشل الرئة فى أداء بعض وظائفها التنفسية يشكل حملاً كبيراً على القلب الذى تتأثر وظائفه بالتبعية عندما تتأثر وظائف الرئتين.. كما أن كاسترو كان شرها فى تناول الأكلات الدسمة وكان يعشق لحم البط بدرجة كبيرة، وهو مسبب أساسى لترسب الدهون بجدران الأوعية الدموية والشرايين وحدوث ارتفاع فى نسبة الكوليسترول بالدم.. وقيام الأطباء بمنعه من التدخين وتناول الخمور وعدم مزاولة رياضة الغوص واتباع ريچيم غذائى لهى تعلميات كلها ترتبط بتخفيف الإجهاد على عضلة القلب مع إيقاف جميع الأسباب التى أدت إلى تدهور القلب إلى هذه الدرجة..

وفى أغسطس ١٩٩٧، اختفى كاسترو لمدة ثلاثة أسابيع وتضاربت الأنباء حول أسباب إختفائه، ولكن كل الآراء أجمعت على أنه مريض وفى مرحلة حرجة، ولكن فى بداية سبتمبر من نفس العام ظهر كاسترو لأول مرة ونفى مرضه واتهم أعداءه بالإساءة إليه، ثم ألقى خطاباً بمناسبة بدء السنة الدراسية الجديدة استمر لمدة ٤٥ دقيقة تحت أمطار غزيرة..

وفى نفس العام أعلن كاسترو أنه ستخدم دواءا جديداً يحمل اسم بى.بى.چى ضد الكوليسترول، ومسببات أمراض القلب ومشاكل الأوعية الدموية، وذلك فى اجتماعه بأعضاء المؤتمر الرابع للحزب الشيوعى الكوبى..

وفى ٢٠ يوليو عام ١٩٩٨ أكدت طبيبة كوبية أن الرئيس الكوبى نجا من الموت بأعجوبة بعد إصابته بمرض خطير، ودخوله فى حالة أشبه بالغيبوبة وقالت فى تصريحاتها التى نشرتها صحيفة «ميامى هيرالد» الأمريكية أنه تم نقل كاسترو على وجه السرعة إلى مستشفى «سيميك» بهافانا فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٩٧ لعلاجه من التهاب دماغى مصحوب بإرتفاع شديد فى ضغط الدم، وهى أعراض تؤدى غالبا إلى الإصابة بالسكتة الدماغية وشلل جزئى، وأكدت الطبيبة الكوبية مسئوليتها عن هذا التصريح حيث كانت ضمن الفريق الطبى الذى أشرف على علاج كاسترو..

وفى اليوم التالى أعلنت وزارة الخارجية الكوبية ـ على غير العادة ـ أن فيدل كاسترو البالغ من العمر (٧٢ عاما) يتمتع بصحة ممتازة وذلك ردا على التصريح الذى نشرته

الصحيفة الأمريكية بأنه مصاب بمرض خطير فى الدماغ..

ولكن الصحافة الأمريكية قامت بالرد فى ٢٤ يوليو عام ١٩٩٨ وأكدت أن كاسترو يعانى من مرض خطير فى المخ، يعوقه عن أداء مهامه الرئاسية ويؤثر على آلية اتخاذ القرار فى كوبا، ونشرت صحيفة التبفو الناطقة بالأسبانية والتي تتخذ من ميامي مقرا لها تقريراً عن حالة كاسترو الصحية أكدت فيه على اعتلال صحته وأنه تلقى علاجاً فى شهر أكتوبر عام ١٩٩٧ لإصابته بارتفاع ضغط الدم فى الشرايين الدماغية، وهو مرض يصيب وظائف المخ بشلل تام ويؤدى إلى الوفاة فى حالة الإصابة الشديدة، هذا بالاضافة إلى أن كاسترو فى السنوات الأخيرة قد بدأ يستعين بسماعة كهربائية لأذنيه تعينه على السمع..

ويجب أن نتوقف كثيراً أمام شخصية فيدل كاسترو وطبيعته النفسية فالمذكور عن كاسترو أن شخصيته صارمة تحب التصميم والانتقام والتحدى فى سبيل تحقيق أمالها، وهو دائما يشعر بالظلم وفى نفس الوقت يعبر عنه بسلوك انتقامى يجعله خشناً وعنيفا فى تصرفاته، ولذلك فهو يصلح لقيادة ثورة فقط ثم ينتهى دوره بعد نجاحها.. والمتتبع لشخصية كاسترو من البداية يلاحظ فيها كثير من المتناقضات، فهو ابن مزارع ثرى ميسور الحال ومع ذلك حلم كثيرا بالفقراء والمحتاجين!! وهو من الطبقة الثرية ولكن ثورته كانت ضد الأعيان والأثرياء ورجال الأعمال.. وبالرغم من أن مبادئه كانت ضد البرجوازية إلا أنه أحب ناتى ديفيولتا المرأة البرجوازية الثرية التى تعيش فى جنة أبيها التاجر الأسبانى الثرى وزوجها الطبيب الشهير.. والغريب أن كاسترو الذى ظل يطارد هذه المرأة الارستقراطية هو نفسه الذى كان يسعى لشحذ غضب الشعب للإطاحة بالارستقراطيين الذى أحب وعشق من بينهم..

وكاسترو وهو الذى تحدث عن القانون والشرعية، كان أول من تحدى القانون والشرعية، فقد أعدم أكثر من ٦٥ شخصا عقب إحدى المحاولات الفاشلة لاغتياله وزج بأكثر من ٧٥ ألف مواطن كوبى من معارضيه - على حد قول شقيقته جوانا - فى المعتقلات والسجون.. وأقام علاقة غير شرعية مع أمرأة متزوجة، ولها إبنة وأثمرت هذه العلاقة عن إبنته إيلينا.. وعندما ترك الطبيب زوجته الخائنة، وأصبحت الفرصة مهيئة لزواج كاسترو من عشيقته لم يفكر فى الزواج منها.. بل لم يعرض الاعتراف بإبنته أو منحها اسمه إلا بعد سنوات طويلة من ولادتها.. وقد قال الكاتب الصحفى الكبير مصطفى أمين فى مقاله فكره فى ١٢ مارس عام ١٩٨٠، أن كاسترو حول البلاد إلى سجن كبير.. فحتى عام ١٩٨٠ كان هناك مليون من أبناء كوبا قد هربوا من بطش كاسترو وطغيانه، ويذكر مصطفى أمين أنه فى يوم من الأيام قابل مهاجراً كوبياً فى لندن يعمل سائق تاكسى وقال له أنه كان يعمل وكيل وزارة فى كوبا ولكنه فضل أن يعمل سائق تاكسى فى بلد حر، وكاسترو الذى تشدق كثيراً بالقانون والمبادئ الثورية كانت ثورته هى أول من أغلقت النوافذ، وأقفلت الأبواب، وكممت

الأفواه، وأغلقت الصحف، وألغت المنابر وأنشأت السجون والمعتقلات، وتصورت أنها تستطيع أن تبنى فى الظلام أسرع مما تبنى فى النور.. فقد كان الظلام هو الأب الشرعى للخراب.

ولم تتوقف التناقضات عند خرق القانون والمبادئ.. بل إن كاسترو الذى مازال يتمسك بالدولة الشيوعية فى الظاهر فقط.. قد بدأ يطبق الكثير من مبادئ الرأسمالية فى بلاده بعد أن اكتشف أن الناس سوف يأكل بعضها البعض من المجاعات، وكانت ابنته إيلينا قد أعلنت فى خطاب ألقته أمام مجموعة من طلبة جامعة ولاية چورچيا الأمريكية أن لحم القطط أصبح مرغوبا فيه فى كوبا، ويمكن للعالم أن يتخيل عمق المأساة التي تصيب الشعب الكوبى ذو التراث العريق الذى اضطر لأكل لحم القطط، وأمام هذا الهجوم العنيف من الداخل والخارج على نظام الحكم فى كوبا أضطر كاسترو إلى فتح بلاده للاستثمار ورؤوس الأموال، وبدأ يمد يده طالبا الصفح من الولايات المتحدة خاصة بعد أن سقط رفاقه فى انتخابات نيكاراجوا ورأى بعينه نهاية هونيكر فى ألمانيا الشرقية وشاوشيسكو فى رومانيا..

وڤيدل كاسترو الذى تشدق بحقوق الفقراء، وطالب بها كثيراً لم يهمه يوماً حقوق هذه الطبقة كما يدعى، بل إنه عندما أطلق على نفسه فى فترة الإعداد للثورة «محامى الفقراء» كان يستجلب عطف الجماهير وتأييدهم.. ففى عام ١٩٩٤ احتفل بعيد ميلاده الثامن والستين فى شهر أغسطس فى نفس الوقت الذى أندلعت فيه المظاهرات الدامية فى هاڤانا، وثار أبناء الشعب الذين لم يعد باستطاعتهم إخماد نار الجوع فى بطونهم.. وكاسترو الذى يعيش شعبه فى عشش الفراخ، يعيش فى قصر خرافى بجزيرة كايو بيدراس التى تبعد عن جزيرة كوبا ٤٥ دقيقة فى القارب البخارى..

ومثل هذه الشخصية يمكن أن نطلق عليها فى عالم الطب النفسى Antisocial Personality أو الشخصية غير الاجتماعية.. وهى شخصية لاتؤمن بالعلاقات السوية كنوع من تحقيق العدالة الاجتماعية، بالإضافة إلى أنها لاتمل من الإساءة للقانون والبطش بالحريات والمبادئ، والغضب والإنفعال واستعمال القسوة مع الآخرين، وهذه الشخصية لاتشعر بمشاعر كاملة نحو الآخرين، وهذا يسبب لها مشاكل كثيرة فى العمل والزواج والعلاقات الشخصية، وكلما شعرت بالذنب سرعان ماتعود للإساءة والعصف بمن حولها من جديد.. وربما تكون هذه هى شخصية كاسترو التى مازالت تتحكم فى كوبا منذ قرابة الأربعين عاماً..

حكم كاسترو فى قفص الأمراض

هناك إشارات عديدة تجعلنا نؤكد أن شخصية ڤيدل كاسترو هى الشخصية غير اجتماعية ANTISOCIAL PERSONALITY.. وهذه الشخصية كما ذكرت من قبل يمكن أن تصلح

لقيادة ثورة ولكنها بالطبع قد لاتصلح لقيادة شعب على طريق المستقبل.. ومن هذه الاشارات التى تؤيد تحليلنا لشخصية كاسترو أنه تولى الحكم عام ١٩٥٩ بعد ثورة شعبية عارمة لقيت تأييداً واسعاً من طبقات الشعب الكادحة، ولكن كاسترو فى غضون خمس سنوات كان قد استطاع أن يكون ضده معارضة قوية لايمكن أن يلقاها أى زعيم شعبى جاء إلى الحكم بالإرادة الشعبية، وفى خلال هذه السنوات البسيطة من بداية حكمه.. والأغرب أن تكون هذه المعارضة من أقرب المقربين إليه.. شقيقته چوانا كاسترو.. وابنته إيلينا.. بل قد نفاجأ إذا عرفنا أن چوانا كاسترو كانت تفتح البانسيون الذى تمتلكه فى هاڤانا لمعارضى كاسترو منذ عام ١٩٦٠ أى بعد أقل من عام واحد فقط من توليه الحكم.. وأن شقيقها راؤول كاسترو الذراع اليمنى لفيدل كاسترو هو الذى قد ساعد شقيقته على الهرب من جحيم كاسترو..

فأى معارضة هذه التى تنشأ فى بلاط الحكم وفى أقل من عام من تولى الحاكم شئون البلاد!!؟ فلابد إذن أن كاسترو كان ديكتاتوراً منذ اللحظة الأولى لحكمه وأن شخصيته غير الاجتماعية جعلته سجيناً فى إطار رؤيته الشخصية للأحداث من حوله..

ومن السهل جدا أن تتحول أو تمتزج هذه الشخصية غير الاجتماعية أو عدوة المجتمع بالشخصية البارونية PARONOID PERSONALITY التى تتمسك بالمبادئ الخاطئة حتى لو ثبت لها بالدليل القطعى خطأ هذه المبادئ التى تعتنقها وتؤمن بها.. والدليل على ذلك أن فيدل كاسترو مازال إلى الآن يعيش فى حلم الإمبراطورية الشيوعية وهو لايدرى أن مظلة الشيوعية التى كانت تحميه من شمس الرأسمالية المحرقة قد هوت ولا أمل فى عودتها من جديد...، وهو يرى شعبه يأكل لحم القطط وينام فى العراء ويعانى من البطالة والفقر والجهل، ومازال مصراً على تحديه للعالم، وللقوى العظمى بغير سند شرعى وبغير تأييد شعبى...، وهو يناطح أمريكا فى كل وقت ويقول أنه يمتلك نصف مليون قطعة سلاح من أيام الاتحاد السوفييتى ولكنه لايدرى أن المواطن المصاب بالأنيميا لن يقدر على قيادة دبابة واحدة أو الإمساك بمسدس يقذف الرصاص فى وجه عدو قوى مثل أمريكا.. وعندما سألوه عن لحيته قال: أنه أطلقها على جبال كوبا وليس على البحر ولن يستطيع جنود الطاغية أن يحلقوها، لأنها رمز لحركته وثورته الشيوعية.. ولكن كاسترو لم يدرك أن المسألة ليست شيوعية أو رأسمالية ولكن المسألة استعباد أم حرية وديكتاتورية أم ديمقراطية. وحكم الفرد أم حكم الشعب.. وكان الأحرى أن يسأل كاسترو نفسه.. ماذا قدمت لكوبا بعد أربعين عاماً من الثورة؟ ولماذا يلجأ الشعب إلى الهرب نحو حصون العدو الأمريكى رغم أن الشعب يدرك أن أمريكا هى التى سلبت ثروات بلادهم فى عهد باتيستا؟ والإجابة ببساطة شديدة هى أن نار أمريكا أرحم من جنة كاسترو!!..

وتغيير المبادئ طبقا للمواقف والذى احترفه بجدارة الزعيم الكوبى يجعلنا أيضاً

نسأل عن تأثير شخصيته وحالته النفسية على اتخاذ قراره.. فهذا الرجل الذي قال عن عبدالناصر فى سبتمبر عام ١٩٦٠ عندما سجل كلمته للإذاعة العربية:

إن شخصية ناصر.. أمل ضخم لكل الشعوب، التى يجب أن تثور على المستعمرين.. وإننا لانعتبر الرئيس عبدالناصر ملكا لكم وحدكم ولكن هناك شعوب كثيرة تؤمن به وتنظر له على أنه رجل الحق والسلام».. هذا الرجل هو نفسه الذى قمع ثوار اريتريا حينما أرسل خبراء عسكريين فى عام ١٩٧٧ إلى أثيوبيا لتجنيد ٣٥ ألف فلاح للقتال ضد ثوار أريتريا، كما وعد ببحث الأمر مع العسكريين السوفييت لإيجاد حل يرضى أديس أبابا، ويقمع الثوار الإريتريين وبالرغم من تمسك فيدل كاسترو بالنظام الشيوعى فى حكم البلاد فإنه عاد مع انتكاسة الأوضاع فى كوبا إلى فتح الأبواب أمام الرأسمالية.. وحتى يفعل كمن يدارى سوءته أطلق على هذه المرحلة «تحديث النظام الشيوعى» وكان الأحرى به أن يطلق عليها «الشيوعمالية» حيث تلمع الرأسمالية فى عقول الشيوعيين وتلعب بها فيصبحون مثل الكرة، تارة فى ملعب الشيوعية وتارة فى ملعب الرأسمالية ويعيشون حياتهم فى صراع دائم بين مبادئهم الشيوعية التى لايمكن أن تتحقق إلا بأموال الرأسمالية..!؟

وكان يجب على كاسترو أن ينظر بعين العقل إلى مصلحة شعبه.. لأن كل راع مسئول عن رعيته.. ولايحق له أن يدفن ملايين من البشر فى مقبرة حكمه لمجرد اقتناعه بمبدأ سياسى يحقق له المجد الشخصى، ولايحقق لملايين البشر التى يحكمها إلا الفقر والذل والضعف.. ولكن كيف يشعر الحاكم بشعبه وهو يعيش فى نعيم القصور، ويترك شعبه يعيش فى جحيم القبور.. وللأسف فبعد رحيل كاسترو فالمطلوب من شعب كوبا أن يبدأ من جديد من الصفر فى نفس الوقت الذى يستقبل فيه العالم الألفية الثالثة بتطورات علمية وسياسية واقتصادية واجتماعية مذهلة تدفع به إلى مستقبل مشرق..

ومن المؤكد أن فيدل كاسترو كان مصاباً بقصور فى الدورة الدموية التاجية بالقلب وارتفاع فى نسبة الكوليسترول بالدم ويمكن التدليل على ذلك من اعتراف كاسترو نفسه أمام مؤتمر الحزب الشيوعى بأنه يتناول أقراص بى بى جى ضد الكوليسترول وأمراض القلب والأوعية الدموية.. وطبيعى أن رجلاً يبلغ من العمر الآن ٧٤ عاماً مدمن للخمور ومدخن شره وأكول لدرجة النهم أن يصاب بتصلب الشرايين بالإضافة إلى ترسب الدهون والكوليسترول على جدران الأوعية الدموية والشرايين ويتسبب ذلك فى ضيق هذه الأوعية والشرايين بالدرجة التى يصعب معها وصول الدم إلى أعضاء الجسم المختلفة.. خاصة وأن القلب الذى يضخ الدماء إلى أنحاء الجسم يعانى أيضا من مشاكل حادة قد تؤدى إلى قصور فى وظائفه وبالتالى فمن المحتمل أن الدورة الدموية فى مخ فيدل كاسترو لم تعد على مايرام، بالإضافة إلى أن الرئتين والجهاز التنفسى لم يكونا على مايرام فى أداء وظائفهما المختصة بتبادل الغازات وبالتالى يمكن القول بأن نسبة تشبع الدم بالأكسجين فى الدورة الدموية

لكاسترو لم تكن بالصورة المثالية التي يمكن معها لرئيس دولة مثله أن يتخذ قرارات هامة ومصيرية وربما يكون هذا السبب الذى جعله فى الفترة الأخيرة يعانى من ضعف فى السمع والشعور بنوبات من النسيان والدوخة وعدم التركيز.. ولعل حديثه الذى أدلى به إلى صحيفة بارى ماتش الفرنسية عام ١٩٩٤ أصدق دليل على تأثير المرض على قدرات كاسترو الذهنية.. فعندما سأله محررو الجريدة متى ستعتزل الحكم أو تقيم انتخابات حرة..؟ قال: لن اعتزل الحكم أبداً لأن الثورى لايحال إلى المعاش.. وعندما سأل عن هجرة مواطنى كوبا.. أجاب ببرود شديد: هذه هجرة طبيعية لأن الناس تهاجر من البلاد الفقيرة إلى البلاد الغنية وفى رده علي سؤال حول مصير المعتقلين السياسيين؟ قال: أنه لاوجود لهم فى السجون ووجود معارض للثورة في المعتقلات لايعنى أنه سجين سياسى!!

وسُئل لماذا لاتقيم نظام التعددية الحزبية؟ فقال أن الحزب الأوحد هو تركة الثورة ولامجال لتغييره..

وهنا سأله المحررون هل تعرف مصيرك؟ قال: أعرف أن الجحيم هو مصيرى وأن الحرارة هناك غير محتمله!!

فهل هذه الإجابات يمكن أن تصدر عن حاكم مسئول؟! بل هل يمكن أن تصدر هذه الإجابات عن رجل مدرك لما يقوله؟..

والمعروف عن فيدل كاسترو أيضا أنه كان يجيد الماراثون الخطابى خاصة عندما يهاجم أمريكا.. وكان أطول خطاب ألقاه مدته ٧ ساعات و١٥ دقيقة متصلة وكان عمره وقتها ٧١ عاماً وتحدث فيه عن الحصار الأمريكي وتعهده باستمرار النظام الاشتراكى فى الحكم.. ورغم إصراره علي إلقاء هذا الخطاب الطويل إلا أنه كان منفعلا وتبدو منه إيماءات غريبة وحركات مرتجفة ويتحرك ببطء شديد.. وقد ذكر أطباؤه بأنه أصبح فى الفترة الأخيرة سريع الغضب والإنفعال، وأنه يتناول حبوب مهدئة من نوع جراڤيتا.. وفى الفترة الأخيرة قلت خطب كاسترو الطويلة بل يكاد أن يكون قد امتنع عن الخطابة وعندما يضطر إلى إلقاء خطبة فأنها تكون مقتضبة، وأقل حدة وعادة مايلقيها وهو جالس على كرسيه.. وقد دفعه إعتلال صحته إلى الكف عن إتباع سياسة الصدمات القوية التى كان يتبعها فى الأوساط الدولية المختلفة لأنه ببساطة شديدة لم يعد يحتمل أن يصدر أى ردود أفعال قوية علي صدماته المتكررة وبالتالى فلم نعد نسمع الآن عن كاسترو ومشاغباته كما كنا نسمع عنها من قبل..

أما عن ما ذكرته الطبيبة الكوبية من أن الرئيس الكوبى قد تعرض لإلتهاب دماغى ENCEPHALITIS فى أكتوبر عام ١٩٩٧.. فيمكن أن نقول أن هذا الإدعاء من الممكن أن يكون حقيقيا خاصة وأن الرئيس كاسترو قد بدأ يتلعثم فى الحديث فى الفترة الأخيرة، بالإضافة إلي صدور حركات مرتجفة فى أطرافه العلوية والسفلية، وقد يكون هذا راجعا إلى مرض

باركينسون PARKINSONISM الذى يمكن أن ينشأ كنوع من المضاعفات المتأخرة للإلتهاب الدماغى.. وأغلب الظن أن كاسترو كان يعالج بالكورتيزون من بعض الأمراض الصدرية، التى سببت له حساسية بالصدر وتنشأ هذه الحساسية من تغير فى خلايا نسيج الرئتين، فيبدأ الجسم فى التعامل مع هذه الخلايا المتغيرة على إنها جسم غريب ويحاول طردها ولكن دون جدوى ويضطر الجهاز المناعى لإعادة تكرار هذه المحاولات المرة تلو الأخرى، وهنا يضطر الأطباء لعلاج المريض بالكورتيزون الذى يثبط جهاز المناعة وبالتالى يقلل من حساسية الصدر.. وقد يكون كاسترو قد أصيب بالأنفلونزا مع بداية فصل الشتاء، وتغيير الفصول حيث ينتشر فى هذا الوقت الإصابة بمرض الأنفلونزا.. والمعروف أنها تأتى نتيجة عدوى فيروسية لايتغلب عليها إلا مناعة الجسم.. ولأن مناعة الجسم عند كاسترو كانت ضعيفة فيبدو أن الفيروس قد تمكن من مهاجمة أغشية الدماغ، فيما يعرف باسم VIRAL ENCEPHALITIS أو الإلتهاب الفيروسى الدماغى والذى يتسبب فى حدوث حالة تشبه الغيبوبة كما ذكرت الطبيبة الكوبية، وكذلك ارتفاع ضغط الدم بالشرايين الدماغية RAISED INTRACRANIAL PRESSURE وما يقرب من ٥٠٪ من المرضى المصابين بالإلتهاب الفيروسى الدماغى يمكن شفائهم من هذا المرض إذا ما أحسن علاجهم.. ولكن يمكن أن يترك هذا المرض بعض المضاعفات الأخرى مثل التوهان الذى يفسر خطأ على أنه نوع من الإكتئاب وربما لهذا السبب قيل أن كاسترو قد أصيب فى الفترة الأخيرة بنوع من الإكتئاب حزنا على وفاة صديقته التى توفت متأثرة بمرض السرطان، وأيضا قد ينشأ كنوع من المضاعفات من الإلتهاب الدماغى.. مثل مرض باركينسون أو صعوبة الكلام أو السمع، والمعروف أن كاسترو اضطر فى السنوات الأخيرة إلى استخدام سماعة كهربائية تعينه على السمع.. بالإضافة إلى أن بعض الأعراض المرضية التي تظهر عليه والتى يمكن أن تتفق مع مرض باركينسون.. ولذلك من المحتمل بنسبة كبيرة أن يكون كاسترو بالفعل قد أصيب بالإلتهاب الفيروسى الدماغى وهذا بالطبع مايجعله أثناء فترة المرض غير قادر بالمرة على اتخاذ أى قرارات تخص إدارة البلاد.. وأن أى قرار أو رأى صدر عن كاسترو فى هذه الفترة يعتبر من وجهة النظر الطبية قرار صادر بغير خلفية صحية سليمة، وأن القرارات التي يتخذها بعد شفائه تتوقف على حدة المضاعفات التى تركها المرض.

وعموما فإن التركيبة الشخصية الشاذة لفيدل كاسترو والعوامل المرضية الأخرى المتمثلة فى إصابته بقصور فى شرايين القلب، وتصلب الشرايين، وارتفاع في نسبة الكوليسترول بالدم وقصور فى وظائف الجهاز التنفسى، والمضاعفات الناتجة عن الإلتهاب الدماغى الذى أصابه.. كلها أمور مرضية تدلنا عن طبيعة القرار الذى كان يصدره فيدل كاسترو وما هى الظروف المرضية التى تحكمت فى اتجاهات حكمه.. والتى مازلت مصمما على أن أقوى هذه الظروف هى شخصيته غير الطبيعية والتى أصيبت بعقد وتركيبات مرضية منذ أمد بعيد وكان ضحيتها شعب بأكمله..

الملك حسين بن طلال
«لغز في الحياة... ولغز في الموت»

الملك حسين بن طلال العاهل الأردنى السابق، كان أقدم حاكم عربى حتى فبراير ١٩٩٩، حيث رحل عن عالمنا متأثراً بمرض سرطان الغدد الليمفاوية أو «الليمفوما» عن عمر يناهز الرابعة والستين عاماً، قضى منها قرابة ستة وأربعين عاماً عاهلاً للأردن، وكانت سنوات حكمه حافلة بالأحداث والأهوال والمعارك، غير أنه قائد صقلته التجارب والمحن التى تعرضت لها بلاده فى فترات حكمه، فاكتسب الكثير من الخبرات الممزوجة بخلفية إنسانية وتاريخية فريدة.. وبلا أدنى شك فهو «داهية العرب» والزعيم المحنك الذى يعرف كيف يدير سفينة بلاده وسط الأنواء والعواصف والتقلبات والظروف العالمية المتغيرة فى كل وقت، خاصة إذا عرفنا أن الأردن مملكة فقيرة الموارد، وقليلة السكان، وتقع فى منطقة حافلة بالصراعات والتحديات فى الشرق الأوسط.. والملك حسين بن طلال تمتد جذوره إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.. فهو هاشمى، وكان يعتبر من أعمدة الشرفاء الذين ينتسبون إلى هادى البشرية، ومؤلف القلوب، وسيد الخلق رسولنا محمد الكريم.. وقد تولى الحكم فى البلاط الهاشمى عام ١٩٥٣، وكان عمره حينذاك ١٨ عاماً بعد وفاة جده الملك عبدالله.

وحين توفى جده لم يكن الملك حسين قد أتم الثامنة عشرة، فأُنشىء مجلس للوصاية على الحكم فى نفس الوقت الذى سافر فيه الملك حسين إلى انجلترا لتعلم العسكرية وفنون الحرب فى إحدى المدارس العسكرية الشهيرة هناك، وعندما أتم الثامنة عشرة عاد إلى الأردن، وتولى مقاليد الحكم، وكانت المسئولية أكبر من أن يحملها على عاتقه وهو فى هذه السن الصغيرة ولكن ذكاءه الشديد وقدرته الفائقة على فهم أمور الحكم، واستقاءه للعبر والدروس التاريخية جعله يثبت أقدامه فى وقت قصير فى بلاط الحكم، ويلم بكافة الخيوط والأمور فى يديه.

وفى سن العشرين تزوج ابنة عمه من فرع هاشمى آخر، وأنجبت له ابنة واحدة فقط، ولم تنجب البنين، ثم طلقت عام ١٩٥٧، وبعدها بثلاث سنوات تزوج من الملكة منى ذات الأصل البريطانى، والتى أشهرت إسلامها، وخلال زواج دام عشر سنوات أنجبت له ولدين وبنتين، وانتهى هذا الزواج أيضاً بالطلاق.

وفى عام ١٩٦٥ تزوج الملك حسين من «عالية طوقان» ابنة إحدى الأسر الفلسطينية، والتى توفيت إثر حادث طائرة وقد أنجبت له الأمير «على» عام ١٩٧٥، ثم تزوج بعد ذلك من ليزا حلبى «الملكة نور» وهى ابنة أسرة أمريكية سورية والتى أنجبت له خمسة أبناء، منهم الأمير «حمزة» ولى العهد الحالى.. وأكبر أبناء الملكة نور..

وفى عام ١٩٥٦ أعلن الملك حسين أخاه الأمير الحسن بن طلال ولياً للعهد مفضلاً إياه على أكبر أبنائه الأمير عبدالله الذى ولد عام ١٩٦٢ وقد اعتبره والده غير صالح سياسياً لإنتمائه لأم بريطانية، وفى عام ١٩٧٨ طلب الملك حسين من شقيقه أن يعلن ابنه الأمير حمزة من الملكة «نور» ولياً للعهد حين يصبح فى الثامنة عشرة من عمره.. وبعد ذلك اقترح الملك آلية جديدة لخلافته وهى تشكيل مجلس ملكى خاص من أعضاء الأسرة المالكة لتحديد من يحق له أن يتولى العهد وذلك لتجنب تضارب مصالح أبنائه الأحد عشر من الأربعة زيجات المختلفة مع أبناء الأمير الحسن الأربعة والذين يمكن أن يطالبوا بولاية العهد بعد تولى أبيهم الحكم، غير أن الأمير الحسن نفسه لديه مشكلة، فزوجته باكستانية الأصل ولكن ميزة الأمر أنه يلقى بعض التأييد لدى المعارضة الإسلامية كنوع من العرفان لزوجته الباكستانية المسلمة بالنشأة والأصل.

ولا يختلف اثنان على أن الملك حسين كان يعرف من أين تؤكل الكتف، ويستطيع أن يمر من عنق الزجاجة بسهولة ويسر، وأن دهاءه السياسى جعله يدير علاقاته الخارجية مع دول أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفيتى وآسيا وأفريقيا بجدارة لامثيل لها وذلك بما يخدم مصالح المملكة الأردنية الهاشمية.. وأحياناً كنا نتفق مع الملك حسين وأحياناً أخرى نختلف معه، ولكن لايستطيع أى محلل أو مدقق لموازين القوى فى الشرق الأوسط أن ينكر أن واحداً من أهم العوامل التى كانت تحافظ على تعادل الموازين فى المنطقة قد أهدر بوفاة الملك حسين، وأن العالم كله قد اهتز لوفاته، وكانت جنازته تعبيراً حقيقياً من العالم عن مدى احترامهم لشخصية وتاريخ عاهل الأردن إلى الدرجة التى جعلت أربعة من رؤساء أمريكا السابقين يقطعون آلاف الأميال إلى الأردن لتشييع جنازة الملك بالإضافة إلى الرئيس الأمريكى بيل كلينتون وزوجته هيلارى، ونخبة غير عادية من زعماء وملوك ورؤساء الدول العربية والإسلامية والأجنبية.

وقد تبنى الملك حسين السلام كخيار أساسى فى منطقة الشرق الأوسط، وكان راعياً روحياً لمفاوضات السلام الدائرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين خاصة بعد أن عقد معاهدة سلام مع إسرائيل منذ سنوات قليلة، وقد رشح الملك حسين لجائزة نوبل للسلام، ولكن القدر لم يمهله الفرصة، وترك الساحة العربية والعالمية تاركاً تراثاً ضخماً من الخبرات والتاريخ السياسى لابنه الملك عبدالله الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه فى سيناريو درامى مؤثر..

الملك حسين صديقاً للأمراض

حين اطلعت على التاريخ المرضى للملك حسين.. وقفت بعض الوقت مذهولاً مع نفسى لطول ما قرأت عن رحلة الملك مع المرض؟! وعرفت أنه دخل المستشفيات للعلاج مرات كثيرة بعدد شعر رأسه.. وسألت نفسى.. كيف يمكن لأى حاكم فى أى بقعة من بقاع الأرض، وفى أى حقبة من حقب التاريخ أن يعبر بوطنه إلى بر الأمان ويصل به إلى حالة من الاستقرار، وهو يملك تاريخاً مع المرض يمكن أن يدرس فى مدارس الطب.. مثلما فعل الملك

حسين ؟! فالملك حسين له رحلة طويلة وشاقة مع المرض، ولم تمر مرحلة فى حياته إلا وكان المرض مصاحباً له على الدوام إلى الدرجة التى يمكن أن نطلق فيها على الملك أنه كان «صديقاً للأمراض»، وكان مبتلياً دائماً فى جسده، وآخر هذه الابتلاءات هى محنة مرضه الأخير، والتى بدا فيها أمام العالم شجاعاً قوياً راضياً بامتحان الله.

ففى ٢ مايو عام ١٩٧٥ ذهب الملك حسين إلى الولايات المتحدة الأمريكية للقاء الرئيس الأمريكى فورد، وهناك شعر ببعض المتاعب الصحية، فقام بإجراء بعض الفحوصات الطبية والأبحاث المعملية، وفى ٢٠ أبريل عام ١٩٧٧ عاد الملك حسين إلى الولايات المتحدة بعد تكرار شكواه من بعض الأعراض المتعلقة بالجهاز الهضمى وقام بإجراء الفحوص الطبية فى أحد المستشفيات الكبرى بولاية هيستون..

وفى شهر فبراير عام ١٩٨٤ أصيب الملك بنزيف معوى حاد طار على أثره إلى الولايات المتحدة، حيث أدخل مستشفى كليفلاند بولاية أوهايو الأمريكية، وقد تم السيطرة على النزيف وعلاج أسبابه التى كانت تتعلق ببعض المتاعب فى الجهاز الهضمى..

وفى ١٦ أبريل ١٩٨٧ شكى الملك من بعض الأعراض المؤلمة فى أذنه اليمنى مما أدى إلى إجراء جراحة عاجلة وناجحة فى أحد المستشفيات المتخصصة فى بريطانيا.

وفى عام ١٩٩١ قرر الملك حسين عاهل الأردن إجراء بعض التعديلات السياسية فى الأردن، وإقرار نظام سياسى وديمقراطى جديد، وقد قام بإعداد ميثاق عمل وطنى للمرحلة الجديدة فى ضوء ما يواجه الأردن من تحديات سياسية واقتصادية واجتماعية، ووفقاً للمتغيرات الدولية والعالمية، وقد اضطره ذلك لعقد مؤتمر سياسى لإقرار الميثاق الوطنى وحضره ما يقرب من ٢٠٠٠ شخص وبعدها قام الملك باستقبال أكثر من ٤ آلاف مواطن أردنى توافدوا للتهنئة بيوم الجيش.. وفى نهاية هذا اليوم شعر الملك حسين باضطراب فى ضربات القلب، وعدم انتظام ملحوظ فيها مما جعل الفريق الطبى المشرف على علاجه يقرر سرعة إدخاله الرعاية المركزية للحالات الحرجة بمستشفى مدينة الحسين الطبية، وقد قام أطباء الملك بإجراء عدة رسومات للقلب وعمل الأبحاث اللازمة، وخرج الملك من المستشفى بعد تماثله للشفاء يوم ١٢ يونيو ١٩٩١.. وقد أعزى الأطباء المعالجون للملك ما حدث له للإرهاق وللجهد البدنى والذهنى الذى قام به خلال مؤتمر إقرار الميثاق الوطنى..

ولم تمر شهور بسيطة حتى بدأ العاهل الأردنى يشعر ببعض الأعراض الجديدة التى لم يكن معتاداً عليها من قبل.. فقد فوجىء بوجود دماء فى بوله عند قضاء حاجته، وشعر الملك بشىء من القلق الذى جعله يطير إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى فصل جديد من فصول قصته مع المرض، حيث أدخل عيادة مايو فى ولاية مينسوتا الأمريكية لإجراء الأبحاث اللازمة للكشف عن سبب وجود هذه الدماء فى بول الملك.

ولعيادة مايو هذه.. تاريخ طويل وحافل مع الرؤساء والملوك والشخصيات العامة والشهيرة فى عالمنا، فلا نسمع عن شخصية لها ثقلها وقد أشتد عليها المرض إلا ولجأت إلى

مايو كلينيك للعلاج ووضع حد لمعاناة المرض، ولهذا الأمر حكاية طويلة ودوافع كثيرة، فهذه المستشفى تقع فى مدينة روسشتر فى ولاية مينسوتا الأمريكية ولها فرعان فى كاكسونڤيل فى ولاية فلوريدا وفى سكونسديل بولاية أريزونا ويرجع اهتمام الزعماء والشخصيات العامة وحرصهم على العلاج بهذه المستشفى إلى توفر السرية وكتمان الأسرار بين العاملين فيها.. ولا يمكن مطلقاً أن يدلى مديرها أو أحد العاملين فى المستشفى من الأطباء أو غيرهم بأية أحاديث أو معلومات تتعلق بالحالة الصحية لأى مريض وهذا مبدأ معروف فى هذه المستشفى العريقة..

وقد أسس هذه المستشفى ويليام وارال مايو عام ١٨٦٠، ويذكر أنه ألحق ولديه ويل وتشارلز لدراسة الطب، ثم سرعان ما انضما لفريق العمل بالمستشفى وكانا حريصين، على السفر إلى كل أنحاء العالم لحضور المؤتمرات الطبية، والإطلاع على أحدث الوسائل فى علاج الأمراض المختلفة، والتطورات الجارية على الساحة الطبية فى الخارج ثم يعودون بعد رحلتهم العلمية ليقوموا بتطبيق ما تعلموه من أسرار حديثة فى الطب... وفى عام ١٨٨٥ أجريت ١٢ جراحة لاستئصال الزائدة الدودية بمايو كلينك وقد وصل عدد الجراحات بعد ذلك والتى تجرى بالعيادة إلى أكثر من ١٠٠٠ حالة جراحية فى عام ١٩٠٥.. وفى عام ١٩١٢ نجحت المستشفى فى علاج ١٥ ألف حالة مرضية فى مختلف الأمراض.. وقد ارتفع هذا العدد إلى ٦٠ ألف حالة عام ١٩١٩ وفى عام ١٩٩٧ وصل عدد المرضى المستفيدين من خدمات عيادة مايو إلى ١,٥ مليون مريض منهم ٧ آلاف مريض من خارج الولايات المتحدة الأمريكية ويعمل بالمستشفى ١١٢٦ طبيباً وأخصائياً.. وتقع على مساحة تبلغ ١٠٠٠ متر مربع تقريباً، وميزانيتها السنوية تبلغ بليون دولار.. وقد عولج فيها من المشاهير الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان، والبطل العالمى محمد على كلاى والروائى أرنست هيمنجواى، والممثل بيل كوسبى وسيدة أمريكا الأولى هيلارى كلينتون، وبربارا بوش وغيرهم كثيرين.

وقد كان الملك حسين يقدس هذه المستشفى، ويقدر العاملين فيها ويثنى بصفة دائمة عليهم.. وهذا بالقطع للأسباب التى ذكرناها، وفى هذه المستشفى تأكد للملك لأول مرة أنه مصاب بمرض السرطان الذى أثر على الحالب الأيسر وانتقل إلى الكلى اليسرى، وكان لابد من إجراء جراحة سريعة وعاجلة للملك لاستئصال الحالب والكلى اليسرى، وأخذ عينات من نسيجهما للوقوف على درجة شدة المرض، وحتى يتثنى للفريق الطبى المعالج محاصرة السرطان منعاً من انتشاره فى كافة أعضاء الجسم، وكان هذا فى شهر أغسطس عام ١٩٩٢، والجدير بالذكر أنه فور شعور الملك بوجود الدماء فى بوله لجأ إلى مستشفى تابع للجيش الأردنى فى المملكة، وبقى فترة تحت الملاحظة الطبية، ثم أخذ قراره بالسفر إلى مايو كلينك، وأعلن طبيبه الخاص بعد إجراء الجراحة إلى أن الأمر لن يحتاج بعد ذلك للعلاج بالأشعة أو العقاقير.

وقتها كانت الأزمة الطاحنة التى تعرض لها الوطن العربى من جراء احتلال العراق للكويت قد بدأت آثارها السلبية تظهر فى الأفق، أو بدأ الشقاق العربى ينفذ إلى قلب الأمة

العربية، وكان للملك حسين موقفه المساند للعراق والذى أذهل العالم العربى وجعل الأوساط السياسية تجزم بأن العاهل الأردنى قد خانه التوفيق فى قراره بمساندة العراق، وأن حنكته وخبرته السياسية لم تكنْ على طريقها الصحيح، ولكن سرعان ما تطايرت أخبار عن قيام الرئيس العراقى صدام حسين بإعطاء وعد إلى الملك بفرض سيطرته على المملكة العربية السعودية بعد أن يحتلها الجيش العراقى، كما كان يخطط صدام لذلك.. وأن الملك حسين قد يرى فى هذا الاتفاق ما يحيى داخله ذكرى أنه من الأسرة الهاشمية، وأنه الوريث الشرعى لحكم الأسرة الهاشمية على أرض المملكة العربية السعودية..ولكن هذه الأخبار لم تؤكد تفصيلاً، كما لم يسلم بدقتها أحد، وظل موقف الملك حسين غريباً ومدهشاً حتى وقت قريب، وقتها قالت صحيفة الفجر الجديد الكويتية أنه يبدو أن مرض السرطان انتقل من كلية العاهل الأردنى إلى مخه وأثر على تفكيره، وأن الله عاقب الملك على جرائمه فى الخيانة العظمى لأمته العربية أثناء حرب الخليج..

وعاش الملك بداية النهاية مع مرضه اللعين فى هذه الظروف القاسية، وفى ظل الشرخ العربى العميق، وإحساسه بالعزلة والحصار السياسى من الملوك والرؤساء العرب، وكان هذا بالطبع له أثره السيىء على حالته الصحية التى تدهورت شيئاً فشيء، وأضطره ذلك إلى السفر مرات إلى الولايات المتحدة الأمريكية للوقوف على تطورات حالته الصحية، وفى ٤ مارس ١٩٩٥، شعر الملك ببعض المتاعب فى الأنف والأذن وتطورت هذه المتاعب إلى مضاعفات، إلى الدرجة التى كان يشعر فيها بصعوبة فى التنفس من أنفه، وأمتدت معاناته بصورة مؤلمة، فآثر أن يدخل مستشفى مدينة الحسين الطبية بالأردن، وهناك إكتشف أطباؤه المعالجون وجود تكيس متحجر فى الأنف الخلفى، وهو الذى يسبب الصداع الشديد الذى كان يشعر به الملك، وتقرر أن يجرى الملك حسين جراحة لاستئصال هذا التكيس، وفضل هذه المرة أن يجريها فى مستشفى مدينة الحسين وعلى أيدى أطبائه الأردنيين.. وتماثل للشفاء وزالت شكوته بخصوص الأنف، لكنه فضل بعد ذلك ان يطير إلى مايو كلينك مرة أخرى لإجراء فحص شامل على حالته الصحية، ويبدو أنه كان يشعر بالقلق الشديد والخوف، وكان يرى رؤية ذاتية لايراها غيره فيما يتعلق بمرضه وحالته الصحية.

وبالفعل طار إلى أمريكا فى ٥ ابريل عام ١٩٩٥، وأجرى الفحص الشامل، وقيل وقتها أن الفحوصات أثبتت خلو الملك من الأمراض وبالأخص ما يتعلق بتطورات مرض السرطان، وأعلن الأطباء أن الحالة الصحية للملك تحت السيطرة وأن مرض السرطان قد إنهزم بفعل الإرادة القوية للملك وشجاعته فى مواجهة الأزمة.. ولكن يبدو أن هذا التصريح كان من قبيل التغطية الإعلامية فقط وإضفاء جو من التعتيم الإعلامى هذه المرة على حالة الملك، إذ لايمكن طبعاً أن يتماثل الملك تماماً للشفاء من السرطان وهو لايتناول أى عقاقير أو يتعرض للعلاج الاشعاعى بعد استئصال كليته اليسرى والحالب كما ذكر طبيبه الخاص من قبل، ثم يعود المرض مرة أخرى ليهاجم جسده فى غضون شهور بسيطة، كما سيتبين لنا لاحقاً، ويبدو أن العاهل الأردنى كان يعالج علاجاً مكثفاً خلال هذه المدة، ولكن لاعتبارات

سياسية كثيرة حدث تعتيم على حالته الصحية في هذه الفترة بالذات.

وفى ٢١ يوليو ١٩٩٦، طار الملك إلى لندن للوقوف من جديد على وضعه الصحى، وأعلن وقتها أنه ذهب إلى لندن لإزالة خراج بسيط كنوع من أنواع الالتهاب العادى التى لاعلاقة لها بمرض السرطان، ولكن يبدو أنه أجرى جراحة أزال فيها أطباؤه مضاعفات جديدة من مضاعفات السرطان بالأسلوب الجراحى.

ولم يلبث أن عاودت الملك بعض الأعراض الأخرى التى ليس لها علاقة بالفعل بالسرطان.. فشهور قليلة مضت وبدأ يشعر بآلام غير عادية في ركبته اليسرى، وكعادته فى الأمور الطبية التى يرى من وجهة نظره أنها بسيطة ومعتادة أن يدخل مستشفى مدينة الحسين الطبية لإجراء الفحوصات اللازمة، ولكن أطباؤه إكتشفوا اصابة غضروف الركبة اليسرى ببعض الالتهاب والتكلسات التى جعلته يشعر بآلام شديدة عند المشى لفترات بسيطة.. واستقر رأى الأطباء على إزالة هذا الغضروف جراحيا، ووافق الملك على إجراء الجراحة فى الأردن، وبعدها زالت شكواه من ركبته اليسرى إلى حد كبير.. ولانستطيع التوقف بالفعل عن حقيقة الأطباء الذين كانوا يجرون الجراحات للملك فى مستشفى مدينة الحسين الطبية، فبعض المصادر أكدت أن الفريق الطبى مكون كاملاً من أطباء أردنيين يثق فيهم الملك والبعض الآخر أكد أنه كان يستدعى أطباء أمريكيين متخصصين إلى الأردن لإجراء هذه الجراحات بمعاونة الأطباء الأردنيين.

ولكن يبدو أن مايو كلينك ـ كانت لاترغب فى أن يفارقها الملك حسين خاصة بعد أن بدأ يشعر بمشاكل صحية، وآلام عند تبوله، وطار مرة أخرى إلى أمريكا، حيث ظهر أن الملك يعاني من تضخم في البروستاتا، وأعلن طبيبه الخاص أنه تم استئصال جزء من البروستاتا، والذى كان ملتهبا ومتضخما، ولكن الأرجح أن مرض السرطان اللعين قد بدأ يهاجم هذا العضو الهام فى حياة الرجل، وكان ذلك فى ٥ أبريل ١٩٩٧.

وعاد الملك إلى الأردن.. لكن فحيصته هذه المرة كانت غير عادية.. فقد بدأ يلاحظ أوراماً فى أنحاء متفرقة من جسده.. ويبدو أن السرطان قد قرر كشف النقاب عن وجهه هذه المرة بصورة وقحة خاصة بعد أن وصل إلى مرحلة من القوة والتمكن من جسد العاهل الأردنى، فقد شاهد الملك تورماً كبيراً أسفل بطنه فى المنطقة ما تحت السرة، وكعادته طار إلى مايو كلينك فى ١٣ نوفمبر ١٩٩٧ وهو الشهر الذى يحتفل فيه الملك بعيد ميلاده.. وكان وقتها قد أتم الثانية والستين من عمره، وفى عيادة مايو اكتشف الأطباء أن هذا الورم ما هو إلا تضخم ليمفاوى أسفل السرة ولكنهم أصروا على استئصاله والقيام بتحليل خلاياه وأنسجته للوقوف على طبيعته، وقيل وقتها أنه ليس ورماً سرطانياً.. وصرح طبيب الملك الخاص بأن الأطباء المعالجين للعاهل الأردنى أكدوا بعد فحص خلايا وأنسجة التضخم الليمفاوى المستئصل بأنه ليس ورماً سرطانيا بأى حال من الأحوال.. ولكن الحقيقة على ما يبدو كانت غير ذلك!؟

وكانت هذه المرة هي البداية الحقيقية للفصل الأخير للملك حسين على مسرح الحياة..

وتبين إصابة الملك بالليمفوما أو سرطان الغدد الليمفاوية.. وتمكن السرطان بالفعل من الوصول إليها واحتلال أنسجتها.. ولا نستطيع أن نجزم بالدقة هل أصيبت الغدد الليمفاوية بالسرطان منذ بداية مهاجمة المرض لجسد الملك حسين أم أنه جاء في مرحلة ثانية، منتشراً من الكلية اليسرى والحالب والذى تم استئصالهما فى مايو كلينك من قبل؟!

المهم.. أن الليمفوما هى أخطر أنواع السرطان، ونستطيع أن نتبين هذه الحقيقة إذا عرفنا أن الغدد الليمفاوية هى أحد خطوط الدفاع الرئيسية عن الجسم عند مواجهته للأمراض المختلفة.. وهى شريك أساسى فى جهاز المناعة فى جسم الإنسان.. وتنتشر فى أجزاء متفرقة ومتعددة فى الجسم فى صور فردية أو متجمعة، والليمفوما تبدأ بتضخم ظاهر فى الغدد الليمفاوية وتغير فى أنسجتها وخلاياها، لتستبدل الخلايا السليمة بخلايا مسطرنة، ويبدأ المرض تباعاً بالانتقال من غدة إلى أخرى، ومن مجموعة إلى أخرى، حتى يتحطم جهاز المناعة وخط الدفاع الأول عن صحة الإنسان، وهنا يصبح الإنسان معرضاً للموت من أقل مهاجمة لأضعف ميكروب يهاجم الجسم.. وقد تكون هذه التضخمات الليمفاوية مؤلمة، أو غير مؤلمة وقد يصحبها تضخم متزايد فى الكبد والطحال، ويصل بعد ذلك إلى درجة الفشل فى أداء وظائف الكبد، وينتشر هذا التضخم ليشمل العقد اللمفاوية فى الجلد وبالقرب من العظام، وفى الرئتين والجهاز التنفسى والمخ، ويصاب المريض عادة بإرتفاع متكرر فى درجة الحرارة والتهابات مختلفة سطحية وغائرة فى أماكن متفرقة من الجسم، بالإضافة إلى نقص شديد فى الوزن وضعف عام ونزول كميات كثيرة من العرق من مسام المريض، مما قد يسبب له حالة جفاف شديدة، ويتعرض المريض بعد ذلك لنوع من الأنيميا الحادة، وإختلال شديد فى مكونات الدم..

وللسرطان الليمفاوى نوعان كما هو معروف فى الأوساط الطبية وهما مرض هودچيكين، ومرض السرطان الليمفاوى العادى، والأول يمكن أن يصيب مراحل عمرية مختلفة تبدأ من سن الشباب إلى سن الشيخوخة أما الأخير فإن معدل الإصابة به يتراوح دائماً حول سن الخمسين عاماً، ويكون تشخيص النوعين عن طريق بعض صور الدم والتحليل الخلوى والنسيجى للغدد الليمفاوية بأخذ عينات مختلفة، وبفحص النخاع الشوكى وتحليله وأخذ عينة من المادة الدهنية الصفراء بنخاع العظام والوقوف أيضاً على وظائف الكبد.. وبعدها يمكن بسهولة تشخيص المرض وتحديد نوعه.

وفى حالة العاهل الأردنى الملك حسين فقد إنتقل المرض إلى مصانع مكونات الدم فى جسم الإنسان مثل نخاع العظام، وفقد الملك جهازه المناعى وأصبح يتعرض لنوبات قاتلة من ارتفاع درجة الحرارة والالتهابات المتقيحة بجسده، إلى الحد الذى جعله يرسل برقية لشقيقه وولى عهده الأمير الحسن بن طلال من مرقده فى مايو كلينك فى ٢٢ يوليو ١٩٩٨ يشرح له فيها أنه أصيب بسرطان الغدد الليمفاوية، وأنه يعانى من هبوط حاد فى قدراته الدفاعية، وأن

الأطباء سوف يقومون بتجديد نوع الليمفوما بشكل قاطع بعد الحصول على نتائج التحاليل المعملية الكاملة على الشرائح والعينات التى أجريت له، وقال له: إن ارتفاع درجة الحرارة يعاودنى بمعدل ثلاث مرات فى اليوم الواحد، والعلاج بالمضادات الحيوية مستمر وبلا توقف.

وكان الملك قد وصل إلى المستشفى معانياً من إصابته بحمى ونزلات برد متكررة وشديدة، عجز أطباؤه عن وضع حد لها.. وفور وصوله إلى الولايات المتحدة الأمريكية أمر الرئيس الأمريكى بيل كلينتون بوضع أطبائه الخصوصيين تحت تصرف الملك ومتابعة حالته الصحية أولاً بأول وإبلاغ تطوراتها فوراً إليه فى أى وقت من أوقات الليل أو النهار وتناقلت وكالات الأنباء الإسرائيلية أخبار الزيارة التى قام بها إريل شارون وزير الخارجية الإسرائيلى فى ذلك الوقت للملك حسين فى مستشفى مايو كلينك فى شهر أكتوبر ١٩٩٨ وقالت إن الملك حسين يتعرض لمرض الموت، وأن حالته الصحية متدهورة للغاية، وانتقدت الأردن بشدة ما أذاعته الوكالات الإسرائيلية ونشرته فى صحفها ووصفت تلك الأنباء بأنها دس صحفى، واضطر إريل شارون إلى إرسال خطاب إلى الحكومة الأردنية ينفى فيها قيامه بنشر معلومات حول حالة الملك الصحية فى أعقاب زيارته له بمستشفى مايو كلينك..

وفى ١٤ ديسمبر ١٩٩٨ تم زرع نخاع للملك حسين بنفس المستشفى بعد أن تبرعت شقيقته بجزء من نخاعها لإنقاذ حياة الملك، والذى كان يحتاج لجراحة زرع نخاع كنوع من تحسين مكونات الدم التى كانت قد تدهورت كماً وكيفاً مما أدخل الملك فى نوع من الأنيميا الخبيثة.. وكان الملك يتعرض لجرعات شديدة ومكثفة من العلاج الكيميائى والإشعاعى على مدى ستة مراحل، مما أصابه بالإرهاق الشديد والضعف العام، وتساقط شعره عن آخره، وغارت عيناه إلى الداخل، وبدا شاحباً وقد ظهر ذلك واضحاً فى حفل توقيع الاتفاق الفلسطينى الإسرائيلى فى واى بلانتيشن فى شهر أكتوبر ١٩٩٨ بالولايات المتحدة الأمريكية.. وذكرت صحيفة التايمز البريطانية أن العاهل الأردنى قد أخطر المسئولين فى الأردن إلى احتمال وفاته فى غضون ثلاثة شهور، وذكر تقرير الصحيفة أن الملك أعلن ذلك قبل توجهه مباشرة إلى واى بلانتيشن للانضمام إلى مفاوضات السلام.

وهناك حقيقة مهمة يجب أن نعترف بها!؟ أن الملك حسين بدا شجاعاً وقوياً فى مواجهة المرض، وبمدى حجم خبرته وتاريخه السياسى العريق كان حجم هدوئه وصلابته فى الاعتراف بأنه يواجه محنة مرضية غير عادية وسيكون لها تأثيراً قوياً على حياته فى غضون ثلاثة شهور..

والملك حسين كان أقوى الملوك والزعماء ممن واجهوا مرضهم ببسالة على مر التاريخ إلى الحد الذى جعل كل المحللين يؤكدون أن الملك كان يودع العالم فى كلمته القصيرة الرائعة التى ألقاها فى واى بلانتشن أثناء توقيع اتفاق السلام الفلسطينى الإسرائيلى.. بل أكثر من ذلك أن الملك اتخذ قرارات قوية وعميقة أثناء مرضه وهو ما سأتعرض له بعد قليل، ولكنه كان مهموماً بترتيب البيت من الداخل، خاصة وأنه بدأ يشك فى التوجه السياسى لطبيعة الأمير الحسن ولى عهد الأردن والذى سيختلف شكلاً وموضوعاً عن ما كان يريده الملك

حسين بعد وفاته، وأعطى الملك حسين الإشارة إلى البرلمان الأردني قبل دخوله في غيبوبة المرض في الفصل الأخير من حياته إلى الاجتماع الطارئ لإجراء تعديلات دستورية تتفق وغياب الملك.

وغاب الملك.... ورحل عن العالم في ٥ فبراير ١٩٩٩

وقبل غيابه... فجر أخطر قراراته وهو على مقربة مسافة متر واحد من قبره..

فقد عزل شقيقه الأمير الحسن ولي عهده.. وعين ابنه عبدالله ولياً لعهده.. وهو الذى قال عنه من قبل أنه لا يصلح سياسياً لأنه من أم إنجليزية.

ومات الملك...

ومازال قراره الأخير.. أثناء المرض... موضع تساؤلات كثيرة ودقيقه!!؟.

الملك حسين وأخطر قرار أثناء المرض

إختلف نبض الشارع العربي كثيراً على موقف الملك حسين من شقيقه الأمير الحسن ولي عهده على مدى أكثر من أربعة وثلاثين عاماً والذى كان كاتم أسراره ونائبه المطيع الذى لم يخذله يوماً في أى موقف من المواقف التى تعرضت لها الأردن طوال فترة حكم الملك حسين.

والعلاقة بين الملك وولي عهده لم تكن علاقة أشقاء فقط بل كانت علاقة احترام وتقدير من الأمير الحسن وحب ورعاية من الملك حسين.. وهذا الذى جعل الشارع العربي يضرب كفاً بكف فور سماع خبر تنصيب الأمير عبدالله أكبر أبناء العاهل الأردني ولياً للعهد، وإسدال الستار على الأمير الحسن كولي للعهد في صورة أشبه بالعزل الدبلوماسى الهادئ الذى كان بمثابة إعدام سياسي، خاصة بعد أن أسقط في يده وهو يرى شقيقه الأكبر يلفظ أنفاسه الأخيرة ولم يكن من المناسب أن يعارضه أو على الأقل يناقشه في قراره في ظل وضعه المأسوى الذى سبق وفاته بأيام.

وعلى الرغم من أن الأمير الحسن بن طلال كان متمرداً في توجهاته السياسية فيما يتعلق بآرائه المتشددة ضد إسرائيل، إلا أنه كان ينزل دائماً على رأى شقيقه الأكبر.. وكانت سياسة الأردن تتحدد برؤية الملك حسين نفسه وزاوية بصره في القضايا السياسية المختلفة، وخاصة التى تتعلق بقضية السلام في الشرق الأوسط وعلاقات إسرائيل مع الدول العربية بصفة عامة، ودول الطوق بصفة خاصة، وهذا ما جعل الأمير الحسن يتخذ نفس زاوية البصر التى كان يتخذها الملك حسين في الأمور الدولية والسياسية إلى الحد الذى جعله يعلن عندما كان رئيساً للمنتدى الفكرى العربي أن إسرائيل ليست هى العدو الحقيقى للدول العربية وإنما العدو للحكومات العربية وإسرائيل إنما هو موجة التعصب الدينى، وينبغى قيام تعاون مشترك بين الحكومات العربية وإسرائيل لمواجهة هذه الموجة حتى لاتشهد المنطقة حرباً من

باكستان إلى المغرب العربى.

ومن هنا نتأكد أن الأمير الحسن كان على وفاق سياسى تام مع شقيقه العاهل الأردنى، وأنه تبنى تأييد المواقف السياسية للملك حتى تلك المواقف التى كان لايتفق فيها مع وجهة نظر الملك حسين.. ولهذا فإن صدمة قوية أحدثها التغيير السياسى الأخير فى ولاية العهد فى الأردن تركت آثارها الواسعة فى وجدان الرأى العام العربى والعالمى..

والمعروف أن الملك حسين كان مرابطاً فى الفترة الأخيرة من حياته فى المستشفيات، وفى حجرات الرعاية المركزة للحالات الحرجه، وأن رؤيته فيما يتعلق بولاية العهد فى الأردن، تبلورت وهو يعيش فى ظروف مرضية وعلاجية غير عادية، حيث كان محاطاً بعشرات الأجهزة الطبية، ويجرى له فى كل يوم تحاليل وأبحاث معملية للوقوف كل ساعة على تطور حالته الصحية، كما كان واقعاً تحت الإشراف الطبى لعشرات من مشاهير الأطباء العالميين الذين حاولوا معالجته بالمحاليل الكيميائية والمضادات الحيوية وأجهزة العلاج الاشعاعى المكثف، وكل هذا من شأنه أن يفقد الإنسان قدرته على التركيز وإتخاذ القرار.. وبعد أن عاد الملك حسين من رحلته العلاجية بالولايات المتحدة الأمريكية، وعين أكبر أبنائه ولياً للعهد ظهرت آراء مختلفة وكثيرة فى الأوساط السياسية والطبية والشعبية العالمية، تتساءل عن أحقية الملك فى اتخاذ قرار خطير مثل هذا، وهو يعتبر من وجهة النظر الطبية الشرعية فاقداً لقدرته على إصدار التعليمات والقرارات الهامة أو الإدلاء بتصريحات خاصة فى الفترة الأخيرة من مراحل علاجه، وهو ما دفع السلطات التشريعية والتنفيذية فى البلاد إلى إتخاذ الإجراءات اللازمة والتى تتفق مع غياب الملك وفقدانه السيطرة على إدارة أمور البلاد لظروفه الصحية رغم أن الملك كان مازال حياً يرزق.

ونحن الآن لسنا بصدد مناقشة الفرق بين الملك عبدالله أو الأمير الحسن بن طلال فيما لو تولى الأخير السلطة ووطأت أقدامه أرض البلاط الهاشمى كملك للبلاد، لأن الملك عبدالله فى النهاية جاء إلى الحكم محاطاً بالإرادة الشعبية، وموافقة الجماهير المتمثلة فى تأييد ممثلى الشعب للملك الجديد تحت قبة البرلمان الأردنى.. ولكننا نتكلم عن وجهة النظر الطبية فى تحليل قرارات الملك حسين فى فترة المرض الأخيرة..، والطبيعى أن مريضاً مصاب بسرطان الغدد الليمفاوية فى حالة متأخرة للغاية، لايمكن أن يكون فى وضع يسمح له بإتخاذ قرارات مصيرية وصعبة، بالاضافة إلى تأثير المرض نفسه وتأثير العلاج الكيميائى والإشعاعى الذى يضعف الإنسان ويجعله فى حالة هزال كلية، كما ان الملك أصيب بأنيميا حادة وخبيثة، ومعناها وجود تغيير باثولوجى فى مكونات الدم وهو ما يؤثر على وظائفها، وبالذات فيما يختص بنقل الأكسجين إلى أعضاء الجسم البشرى، وبالأخص المخ الذى يتأثر بغياب الأكسجين عنه لثوانى معدودة، وقد يضر ذلك بالوظائف الحيوية والهامة التى يقوم بها المخ والأجهزة العصبية المركزية والطرفية، وكل هذا جعل الكثير من الأوساط السياسية والطبية، تشكك فى قدرة الملك على التصدى للقرارات الحاسمة التى اتخذها قبل وفاته بأيام معدودة.. ولنا أن نتصور ما الحالة الذهنية التى يمكن أن يكون عليها إنسان تحطم جهازه المناعى وأصبح

قشة فى مهب الريح بالنسبة لأضعف جرثومة مرضية فى الكون وخاصة إذا عرفنا أن كل الأجهزة فى جسم الملك قد تهاوت فى أداء وظائفها الحيوية فى الأيام الأخيرة من حياته وهذا أيضاً ما يجعل الدم يصاب بحالة من التسمم التى قد تؤثر بدورها على قدرة الملك على التركيز والإدراك.

ولكن يبدو أن الملك حسين كان متشبساً بالحياة حتى آخر اللحظات قبل أن يفقد وعيه تماماً.. وكان يشعر بقلق شديد على مستقبل الأردن من بعده وهذا جعله يبدو فى حالة من التماسك والإدراك تجعله مسئول على إتخاذ قراره على الأقل أمام التاريخ الذى ستقرأه الأجيال فيما بعد وسوف تحكم حكمها وتدلى بدلوها فى هذا الأمر.

والمعروف أن تطورات مرض الملك حسين كانت تشغل الأوساط السياسية ودوائر صنع القرار فى مختلف دول العالم، وخصوصاً فى الولايات المتحدة الأمريكية والدول العربية وإسرائيل وليس خافياً أن أمريكا كانت تتابع الموقف لحظة بلحظه وكانت تخشى على مستقبل منطقة الشرق الأوسط بعد وفاة الملك مما يؤثر بصورة مباشرة على مصالحها فى المنطقة وأن إسرائيل كانت تولى إهتماماً خاصاً بصحة الملك، وقد ذكرت جريدة بديعوت أحرونوت الإسرائيلية أن تدهور الحالة الصحية للملك الأردن، كان له آثار سلبية على تطورات الأوضاع بالمنطقة وهذا ما جعل أطباء الموساد يفحصون بإمعان التقارير الطبية الصادرة عن حالة الملك، وذلك من خلال الشعبات المتخصصة بالمخابرات وقسم البحوث بالموساد الإسرائيلى والذى يقوم بمتابعة دقيقة لتفاصيل خطة علاج الملك،.. ولا شك أن الملك الضعيف صحياً والذى يرى شبح الموت أمامه فى كل دقيقه كان متأثراً من الناحية النفسية بالشقاق الذى كان يمكن أن يحدث بين أفراد عائلته بعد رحيله إذا ما حدث صراعاً على السلطة وبدا كمن يترك خلفه حملاً ثقيلاً على من يخلفه بالإضافه إلى أن مسألة الخلافه كانت شغله الشاغل على فراش المرض.. وهنا نجد سؤالاً هاماً يطرح نفسه بقوة شديدة... لماذا لم يفكر الملك حسين طوال رحلته المرضية فى القيام بهذا التعديل فى ولاية العهد خاصة عندما كان مرضه فى بدايته، وكان الملك مازال قوياً ومتماسكاً وقادراً على مواجهة أى تبعات لهذا القرار.؟ ولماذا لم يعين الملك حسين إبنه عبد الله بن الحسين ولياً لعهده منذ بلوغه الصلاحية السياسية التى تؤهله لهذه الولاية خاصة وأن أسهمه الشعبية كانت فى تزايد مستمر عندما كان قائداً فى الجيش الأردنى؟..

الأمر إذن تعلق برؤية الملك الحاسمة لنهايته الأكيدة، والتى خشى معها أن يخرج الحكم من بلاط أسرته الصغيرة إلى بلاط عائلته الهاشمية الكبيرة خاصة إذا قام الأمير الحسن بتعيين أكبر أبنائه الأمير «راشد» ولياً لعهده بعده لتولى حكم الأردن، ثم يطالب الأخير بعد وفاة والده بحكم الأردن!!!

ولم يكن أمام العاهل الأردنى وقتاً لكى يفكر أو يتدبر هذا الأمر، وقرر أن يفاجئ العالم بتنصيب أكبر أبنائه ولياً للعهد فى المملكة الأردنية الهاشمية...

وقد أسرف المحللون فى تصور عدة سيناريوهات لخطة إنتقال السلطة فى الأردن، فالبعض قال أن الملك حسين أثناء رحلته العلاجية فى أمريكا وقع تحت ضغط أمريكى شديد لإجراء هذا التغيير السياسى فى الأردن خاصة وأن الإدارة الأمريكية لم تكن مستعدة للترحيب بتولى الأمير الحسن حكم الأردن، كما قالت بعض المصادر أن الملك حسين كان قد توفى بالفعل فى أمريكا وأن وكالة الإستخبارات الأمريكية «سى.أى.إيه» قد أعدت شبيهاً له تماماً وأرسلته إلى الأردن ليقوم بتنفيذ التعديلات السياسية التى تخص تنصيب إبنه عبدالله ولياً للعهد وعزل أخيه الأمير الحسن ولى العهد الشرعى للبلاد، وإعتمدت وكالة الإستخبارات الأمريكية على أن أى تغيير طفيف فى ملامح الشخص البديل، والذى قد يلحظه البعض يمكن أن يعزى إلى العلاج الكيميائى الذى كان يعالج به الملك حسين، والذى أحدث تغييرات كثيرة فى ملامحه الشكلية ومواصفاته الجسدية، وهذا وحده كفيل بدفع الشكوك نحو حقيقة هذا البديل الذى يعود بعد ذلك للولايات المتحدة كأنه الملك الذى طار لإستكمال العلاج وبعد أيام يرسل جثمانه الحقيقى للأردن للقيام بمراسم دفنه.

ولكن هذه القصص والتحليلات لايمكن التكهن بصحتها أو حقيقتها، ومن البديهى أنها يمكن أن تكون من قبيل التلفيق الصحفى لبعض الصحف والمجلات العالمية التى تشيع أجواء الإثارة فى أوساط الرأى العام المحلية والعالمية، وبالتالى تشهد هذه الصحف والمجلات أرقاماً خيالية فى التوزيع.. وعموماً فإن التاريخ سيكشف فى المستقبل الكثير والكثير من الحقائق والأحداث والآراء التى لايمكن الجزم بصحتها فى الوقت الحالى.. والظاهر أن الأمير الحسن بن طلال، وافق على رغبة شقيقه العاهل الأردنى بنقل ولاية العهد منه إلى أكبر أبناء الملك فلم يكن فى إستطاعة الأمير الحسن أن يفعل شيئاً، أو يصدر أى رد فعل فى هذا التوقيت بالذات، خاصة وأن أخيه يحتضر وفى ساعات عمره الأخيرة..

وكان إستسلام الأمير الحسن لرغبة أخيه التى جاءت على حسابه شخصياً موقفاً يحسب له ويظهر لنا مدى ولائه الشديد لشقيقه العاهل الأردنى الراحل، وكان بوسعه أن يفعل الكثير والكثير خاصة وأن له رجاله ومؤيديه فى بلاط السلطة الهاشمية، والذين كانوا سيحمون أى قرار يتخذه الأمير الحسن لو فكر أن يعارض أخيه ويدفع بعدم صلاحيته صحياً لإتخاذ قرارات مصيريه فى حكم البلاد كهذا القرار الذى دفع ثمنه... وكان بوسع الأمير الحسن أيضاً أن يلقى بعض التأييد من الرأى العام العالمى الذى كان سيتعاطف معه ومع قضيته ولكنه أراد أن ينآى بالبلاد عن أتون الحرب الأهلية وصراع السلطة الذى كان سيلقى بالأردن فى الجحيم المحقق..

وتبدو لنا فى النهاية حقيقة هامة فى كافة الأحوال، وهى أن الملك عبدالله بن الحسين قد تولى حكم الأردن بناءاً على إرادة شعبية مستمدة من جماهيريته بين أبناء الأردن وعلى انصياع الأمير الحسن لقرارات الأسرة الهاشمية التى تبنت بالكامل إرضاء الملك حسين فى أيامه الأخيرة..

ويبقى الملك حسين لغزاً فى حياته.. ولغزاً فى مماته.!!

فرانسوا ميتران
«رئيس بلا حدود»

ولد الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران في ٢٦ أكتوبر عام ١٩١٦ في قرية جارانك بمقاطعة شارانت بفرنسا، حيث كان ترتيبه الخامس من بين ثمانية أبناء نصفهم من الذكور والنصف الآخر من الإناث، وكان والده رجلاً فقيراً معدماً بدأ حياته «كمسارى» في قطار، وانتهى المطاف به كناظر لإحدى محطات السكك الحديدية في فرنسا، ويقول فرانسوا ميتران نفسه عن والده: «أنه كان ذكياً ولم أر في حياتي إنساناً على هذا القدر من الذكاء.. لقد كان روحاً كبيرة».

ولكن فرانسوا تأثر أكثر بوالدته إيفون ميتران المتدينة التي تنهض كل يوم من نومها في السادسة صباحاً للتأمل والصلاة، وإعداد شئون المنزل، وكانت امرأة مثقفة وواعية وتعددت قراءاتها تحت ضوء لمبة جاز، فقرأت لبلزاك وشاتو بريان ولامارتيه، وقد ترك هذا الاتجاه الأدبي عند والدته بصمة كبيرة على نفسيته وقدرته العقلية.. ويذكر ميتران أنه كان فخوراً باسم جده «ميتران»، لأن هذا الاسم يعنى «وسط أو منتصف الأرض» مما كان يعطيه الأحساس بأنه صاحب جذور قوية لها علاقة حميمة بالأرض والوطن والمكان..

وكان فرانسوا ميتران صبياً خجولاً يفضل الإنعزال وقد إلتحق عام ١٩٤٥ بمدرسة القديس بول الداخلية، وكان يرفض النشاط الجماعي في المدرسة ما عدا كرة القدم التي كان يعشقها، ويحب ممارستها في كل وقت، وكان يلعب في مركز حارس مرمى فريقه، ويجيد الدفاع عن مرماه، ويصد عنه قذائف المنافسين.. وكعادة كل الإنطوائيين فقد كان يمقت الامتحانات الشفهية أيام الدراسة، لأن بها نوع من المواجهة التي قد تجعله يتعثر في الإجابة عن أسئلة أستاذه، بالرغم من أنه يعرفها ويحفظها عن ظهر قلب، وقد ورث فرانسوا ميتران عن أمه حب القراءة، فقرأ العديد من المجموعات القصصية والأدبية ولأندرية جيد وفاليرى، وكتب عنه أستاذه في البكالوريا أنه طالب مجتهد وملتزم ومنتظم في دروسه ولكنه يظل غامضاً في أحيان كثيرة.. وترك ميتران قريته «جارانك» بعد أن قرر والده أن يرسله لدراسة القانون وعمره ١٧ عاماً، وأقام في بيت الطلبة بشارع فوجيرار بالقرب من الحي اللاتيني وهو نفس الحي الذي كان يوجد به مسكنه حتى وهو على كرسي رئاسة فرنسا، وقد بدأ نشاطه السياسي عندما أكمل الثامنة عشرة من عمره كعضو في جماعة يمينية، وذلك بحكم أنه ينتمي إلى أسرة كاثوليكية محافظة من أصول وجذور ريفية، ولكنه بعد ذلك تحول من اليمين إلى اليسار.

وقد إتجه ميتران إلى كتابة القصص خاصة بعد أن شعر بموهبته الأدبية تتفجر، وبدأ القلم ينزف الكلمات أمامه على صفحات الورق، وقد شجعه على ذلك أنه وجد الفرصة

لينشر قصصه ومؤلفاته في مجلة مغمورة، وكان سعيداً أن يرى عملاً له وقد كتب عليه عبارة «من تأليف فرانسوا ميتران»، وساعده اتجاهه الأدبي في التعمق أكثر وأكثر في القراءة، حتى قرأ يوماً عن «ليون بلوم» مؤسس التيار الإشتراكي بفرنسا فأعجب به إعجاباً شديداً، واقتنع بمبادئه الاشتراكية، وبدأت ملامحه السياسية تتبلور، ولكنه لم يكن يريد تصنيف نفسه في البداية سوى أنه معاد للفاشية..

وبعد انتهاء دراسته الجامعية التحق بالخدمة العسكرية.. وكان مثل كل الشباب لا يميل إلى قضاء فترة من حياته في الجندية والتدريب، ولكنه في عام ١٩٣٨ أصبح مجنداً في سلاح المدفعية.. ودفعته كراهيته للحياة العسكرية إلى أن يرفض أن يكون ضابطاً مثل كثير من زملائه الذين يحملون شهادات جامعية، واكتفى فقط بأن يكون «صف ضابط».. ووقتها كان وطيس الحرب العالمية الثانية مشتعلاً وكان العالم كله يضج من آلة الحرب الألمانية التي استخدمها هتلر بوحشية ضد أعدائه.. وفي ميدان الحرب أصيب ميتران وهو في الثالثة والعشرين من عمره بجرح في صدره، فظل لمدة يومين راقداً فوق نقالة ودمائه متحجرة فوق منطقة جرحه المكشوف.. ثم نقل بعد ذلك إلى مركز استقبال الجرحى في باريس حيث تم علاجه وتضميد جرحه النازف.. وفي ١٤ يوليو عام ١٩٤٠ دخلت الدبابات الألمانية باريس، وتمكنت قوات النازي من فرض سيطرتها السريعة على العاصمة الفرنسية وقبض الألمان على ميتران الذي شعر لأول مرة بطعم الهزيمة وفقدان الأمل.. خاصة بعد أن تم ترحيله، إلى مقاطعة «هيس» في ألمانيا، وهناك قابل صديقاً كندياً في الأسر قال له: هناك جنرال فرنسي موجود الآن في لندن سمعته يقسم في الراديو أنه سينظم المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال..، وكان هذا الجنرال هو شارل ديجول الذي أصبح بعد ذلك أول رئيس لجمهورية فرنسا بعد تحررها من النازية..

ويذكر ميتران أن معسكر الأسر كان يعيش فيه أكثر من أربعين ألف أسير فرنسي، يتصارعون ويتشاجرون كل يوم حول الوجبة الوحيدة التي يقدمها الألمان يومياً إلى الأسرى.. ولكن ميتران استغل الوقت في تعلم اللغة اليونانية، كما بدأ في التحضير لكتابه الأول «هضاب باريس السبع» وقد حاول الهرب أربعة مرات وفي المرة الأولى سار على قدميه لمدة ٢٢ ليلة فوق الثلوج والطين، ولكن الجنود الألمان استطاعوا أن يلحقوا به ويقبضوا عليه بالقرب من الحدود السويسرية، وأعادوه من جديد إلى معسكر الأسر.. لكن محاولاته لم تتوقف يوماً واحد.. وكان معظمها يفشل بسبب الحصار الأمني الشديد الذي فرضه جنرالات الجيش الألماني حول معسكر الأسرى الفرنسيين، ولكن «فرانسوا ميتران» تمكن من الهرب في محاولته الرابعة، وعاد إلى منزل عائلته ولم يروى لأفرادها شيئاً مما تعرض له، فقد كان بادياً عليه أنه قد قرر الإقدام على خطوة مهمة في تاريخ فرنسا..

وبالفعل فقد بدأ في تجميع فلول الأسرى الهاربين من معسكر الأسر في مقاطعة هيس بألمانيا، وقام بتشكيل خلايا متعددة منهم لمقاومة الجيش الألماني.. ووقتها أطلق على نفسه

إسماً حركياً هو «مورلاند» حتى يستطيع أن يتخفى من متابعة الاستخبارات النازية لنشاطه وتحركاته، وأصبح ميتران أو «مورلاند» رئيساً لتنظيم شعبى كبير، يقوم بعمليات انتقامية ضد الأهداف والمعسكرات الألمانية على أرض فرنسا.. حتى جمعته الأقدار بالزعيم الفرنسى شارل ديجول الذى حدثه عن صديقه الكندى فى معسكر الاحتلال، وكان اللقاء على أرض الجزائر، ووضح أن ميتران كان معجباً بشجاعة شارل ديجول، ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن، فقد طلب شارل ديجول من ميتران أن ينضم إليه بقواته وأن تكون إمارة هذه القوات وقيادتها لشارل ديجول نفسه وشعر ميتران بأن ديجول يريد أن يفرض عليه مبدأ الطاعة العمياء فرفض الاستجابة إلى طلبه بالانضمام إليه، وانصرف ميتران الذى عاد إلى مقاومة الألمان بمجموعته من فلول الأسرى الهاربين بينما استمر ديجول أيضاً فى مقاومة الاحتلال بقواته التى كونها من أبناء الشعب الفرنسى..

وكان ميتران يعقد اجتماعات خليته السرية فى منزل إحدى السيدات الفرنسيات الوطنيات، التى وافقت على استضافة هذه الاجتماعات خاصة بعد أن احترق المكان الذى كان يجتمع فيه ميتران برجال المقاومة.. وفى شقة هذه السيدة عرضت عليه أن يتزوج من اختها الصغيرة دانييل.. ولكن ميتران رفض فى البداية، حيث كان مهموماً بقضية بلاده ولكن أمام إلحاح السيدة اضطر أن يوافق على رؤية دانييل.. وبالفعل رتبت السيدة لقاءاً بينهما وكانت المفاجأة أن دانييل نفسها هى التى رفضت الزواج من ميتران، فقد دخل عليها مرتدياً قبعة وكوفية وبالطوا قديماً وبدى كما لو كان كهلاً عجوزاً، لكن ميتران نفسه الذى كان معترضاً على المبدأ فى البداية لم يستطع أن يتحكم فى قلبه ومشاعره فطلب من دانييل أن تسمح له بتكراراللقاءات فيما بينهما... ووافقت حتى تمكن الحب من قلبيهما بدرجة كبيرة وانتهى بهما المطاف إلى قفص الزوجية ليكتبا سوياً فصل جديداً من حياتهما مع فرنسا وهمومها..

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتحرير فرنسا.. لم يستطع شارل ديجول أن ينكر دور ميتران فى المقاومة الشعبية رغم اختلافه معه فى وجهات النظر فاختار ديجول فرانسوا ميتران للإسهام فى بناء الجمهورية الجديدة، وفى لقائه معه تنبأ له بمستقبل سياسى كبير، وأنه سيكون له دور فى حكم البلاد.. ومنذ ذلك الوقت قرر ميتران أن يتبنى الاتجاه الاشتراكى الذى ظل منتمياً إليه حتى آخر أيام حياته.

وعندما أتم سنوات عمره الثلاثين وكان وقتها، قد حصل على ليسانس الأداب ودبلوم الدراسات العليا فى القانون والعلوم السياسية والصحافة.. بجانب شهادة القانون التى حصل عليها من قبل، عين وزيراً للداخلية فى حكومة منديس فرانس فى عهد شارل ديجول، وكان أصغر وزير للداخلية فى تاريخ فرنسا وبلغ تأثيره على منديس فرانس مدا كبيراً إلى الحد الذى كان يستشيره فيه فى كل كبيرة وصغيرة، وكان ميتران يبدو كما لو كان رئيساً للوزراء فى الظل.

وفى حكومة جي موليبه عين وزيراً للعدل، وكان من أشهر قراراته أنه طالب بإصدار عفو عن المجاهدين من الثوار فى البلاد التى احتلتها فرنسا والذين صدرت ضدهم أحكام بالإعدام مبرراً بأن هؤلاء هم الذين سوف تتفاوض فرنسا معهم غداً.. ثم ذهب ثائراً إلى موليبه عندما أمر بخطف طائرة بن بيلا زعيم المقاومة الجزائرية الذى كان فى طريقه إلى المغرب، وتم القبض عليه ورفاقه الخمس بعد إجبار الطائرة على الهبوط، وقال فرانسوا ميتران لموليبه: لقد فعلتوها من وراء ظهرى.. إن العار يغطى فرنسا كلها..، ثم عين «ميتران» بعد ذلك وزيراً للمحاربين القدامى.. وفى عام ١٩٥٠ عين وزيراً عبر البحار وفى عام ١٩٥٢ عين وزيراً للدولة.. وتم اختياره عام ١٩٥٣ وزيراً بالمجلس الأوروبى..

وكان من الطبيعى أن ينشأ بينه وبين شارل ديجول كثير من الخلافات حيث كان ميتران يناطح ديجول فى الزعامة، وكان له ثقلاً شعبياً لا يستهان به.. وعندما اشتد الخلاف بينه وبين ديجول فضل فى عام ١٩٥٤ أن يتفرغ للمحاماة، ولكن لم يلبث أن عادت المياه لمجاريها بعض الوقت، فعين من جديد وزيراً لداخلية فرنسا فى أعوام ١٩٥٤ و ١٩٥٥.. وفى عام ١٩٥٨ بدأ هجومه العلنى على حكومة شارل ديجول، واتسعت دائرة الخلاف فيما بينهما والتى لم يعد ممكناً معها أن يظل التعاون قائماً بين ديجول وميتران.. وهنا قرر فرانسوا ميتران أن يسير فى طريق آخر لا تطأه أقدام ديجول ونصب نفسه زعيماً للمعارضة فى مايو من عام ١٩٦٨، واستطاع بعزيمة وإصرار أن يوحد صفوف الفصائل الاشتراكية المعارضة، وأن يرشح نفسه فى انتخابات الرئاسة، وهو يعلم أنه لن يفوز بها، ولكنه كان يسعى للحصول على شعبية تؤهله لإرساء دعائم وجوده السياسى على أرض فرنسا فى المستقبل وبالفعل حصل على ٣١,٧٪ من أصوات الناخبين مقابل ٤٤,٦٪ لشارل ديجول الذى لم تعلن رئاسته للبلاد لعدم حصوله على أغلبية مطلقة.. وفى الجولة الثانية فاز شارل ديجول بالرئاسة، ولكن كان لميتران ما أراد فقد حصل على ٤٤,٨٪ من أصوات الناخبين فى هذه المرة فى ظل ظروف سيئة، واضطهاد سياسى مدبر من حكومة ديجول، واستطاع ميتران هذه المرة أن يصبح بلا منازع المنافس الوحيد لديجول على زعامة البلاد.. وفى عام ١٩٧٤ قام بترشيح نفسه عن المعارضة كلها فى مواجهة جيسكار ديستان، وحصل على ٤٩,٣٣٪ فى مقابل ٥٠,٦٦٪ لديستان الذى تمكن من الفوز بمقعد الرئاسة، فى حين ظل ميتران رئيس الحزب الاشتراكى الفرنسى وزعيم المعارضة متربصاً فى الظل ليعاود من جديد الاشتراك فى سباق الانتخابات على رئاسة فرنسا بعد انقضاء الفترة الأولى من حكم ديستان، وبالفعل رشح ميتران نفسه أمام ديستان عام ١٩٨١ واستطاع هذه المرة أن يفوز بمقعد الرئاسة، وأن يعيد اليسار إلى الحكم بعد غياب دام ثلاثة وعشرين عاماً..

ولا يمكن أن يسقط التاريخ من ذاكرته أن أول اجتماع لمجلس الوزراء برئاسة جاك شيراك بعد فوز ميتران فى الانتخابات الرئاسية، كان اجتماعاً غير عادى، وبدى فيه ميتران رجلاً شامخاً وقوياً، وهو يجلس بمفرده فى مواجهة ٤٥ وزيراً يختلفون عنه فى العقيدة والهدف، ويشكلون اتجاهاً سياسياً مخالفاً، ولكنهم بعد عامين من التعايش مع ميتران أيقنوا

أنه رجل غير كل الرجال مهما اختلفت الرؤى السياسية، ولم ينسوا أن ميتران هو الذى تحدى شارل ديجول وهو فى قمة مجده عندما وقف يقول وسط حشود الجماهير من أبناء الشعب الفرنسى «أنا فرنسا».. فارتفع صوت مواطن من أبناء فرنسا وقال: لا يوجد كائن أو شخص مهما كانت امكاناته أو إنجازاته يستطيع أن يدعى أنه فرنسا، إن شعب فرنسا بأكمله هو الذى يستطيع أن يقول أنا فرنسا...

وكان هذا المواطن هو فرانسوا ميتران....

وميتران رغم ما أخذه شعبه عليه من تحفظات بعد وفاته.. كان رجلاً شجاعاً استطاع أن ينال ثقة مرشحيه لرئاسة فرنسا دورتين متتاليتين من عام ١٩٨١ وحتى مايو ١٩٩٥، وحقق الكثير من الإنجازات لشعبه على مدى الأربعة عشرة عاماً التى حكم فيها فرنسا.. فقد حدد ساعات العمل، وأرسى قواعد جديدة للتأمين على العاملين، كما أنه ألغى عقوبة الإعدام والتى كانت تنص عليها القوانين الفرنسية، من قبل، وهذا القرار وجد استحساناً كبيراً بين أفراد الشعب الفرنسى.. واهتم ميتران بالثقافة والفنون، وأقام حركة ثقافية كبرى فى فرنسا أطلق عليها المتخصصون «النهضة الثقافية»، والتى ركزت على تطوير الفنون المختلفة والإهتمام برعاية الأدباء والمثقفين، وبالطبع فقد انعكست أثار هذه الحركة على فئات الشعب مما جعل ٧٢٪ من المواطنين يدفعون بتأييدهم للنهضة الثقافية التى قادها ميتران..

ولا شك أن فرانسوا ميتران قد نظر للمرأة نظرة أخرى ودفع بها للأمام على ساحة التواجد والعمل والإبداع، والمعروف أن التقاليد الفرنسية كانت تمنع عن المرأة الاشتراك فى الحياة السياسية، فلم يكن يسمح لها بدخول البرلمان وفى العصور الأولى لم ينقل إليها العرش مرة واحدة حتى لو كانت وريثته الشرعية ولكن ميتران أطلق قنبلته الحارقة على تلك التقاليد البالية، حينما اختار امرأة لرئاسة الوزارة فى مايو عام ١٩٩١.. وهذه المرأة هى إديث كريسون، وظلت على مقعد رئيس الوزراء لمدة عام كامل حتى أبريل عام ١٩٩٢، وقد بدا هذا الاختيار غريباً على الشعب والتقاليد الفرنسية، خاصة إذا عرفنا أنه على مدى أكثر من ٢٠٠ سنة لم تظهر المرأة فى أى منصب وزارى سوى مرة أو مرتين..

وعلى صعيد السياسة الخارجية كان ميتران ركيزة لا يستهان بها على الساحة السياسية العالمية، واستطاع أن يقف موقف الشجعان الأشداء فى كثير من المواقف السياسية الحازمة التى كان من الممكن أن تسبب له أزمات دبلوماسية وسياسية ذات عيار ثقيل.. بل كان من الممكن أن يفقد حياته ثمناً لدفاعه عن القضايا الإنسانية لشعوب العالم التى قهرها البطش والاستعمار.. ومواقفه مع القضية الفلسطينية لا يمكن أن ينكرها إنسان، فقد ذكر المؤلفان إيف ازيرول وإيف دايراى فى كتابهما «ميتران وإسرائيل واليهود»، أن ميتران عندما وصل إلى الحكم كان مقتنعاً بتحويل دفة السياسة الفرنسية لصالح إسرائيل.. ولكنه بعد سنوات من التعسف الإسرائيلى مع الفلسطينيين، وانتقاده للسياسة الإسرائيلية قال: إن على إسرائيل أن تفهم أن سياسة فرنسا تحدد فى باريس، وليس فى تل أبيب.، وفى عام

١٩٩١ فجر قضية مهمة عندما أعلن أن قرارالأمم المتحدة بإقامة إسرائيل، نص أيضاً على إقامة دولة فلسطين، وهو القرار الشهير بقرار التقسيم، وأكد أنه لا يجوز رفض حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته وتقرير مصيره.

وكان هذا الإعلان بمثابة لطمة على وجه إسرائيل حيث تنبه العالم إلى حقيقة قرار الأمم المتحدة الذى تم تنفيذ شطره الأول، ولم يتم تنفيذ شطره الثانى، وفى أواخر عام ١٩٩٢ أكد أن فرنسا ستكون أول من يعترف بإقامة الدولة الفلسطينية عند إعلانها، وأنه سيشارك منظمة التحرير الفلسطينية في عملية السلام وسيساند موقفها دائماً.. وربما هذا يفسر لنا سر الحملة المعادية التى تعرض لها فرانسوا ميتران فى أواخر فترة حكمه، وبعد خروجه من الحكم، فقد ذكر أحد الصحفيين اليساريين فى كتاب UNE JEUNESSE FRANCAISE أو شباب فرنسى، أن ميتران متهم بأنه انضم فى شبابه إلى معكسر الأعداء أثناء الحرب العالمية الثانية والمقصود بالأعداء الألمان النازيون الذين حكموا فرنسا، واذاقوا الشعب الفرنسى صنوف الذل والهوان.. ولكن ميتران دافع عن نفسه مؤكدا أنه كان له الشرف أن يشترك فى الحرب العالمية كجندى فى جيش فرنسا الوطنى، إلى أن اجتاح الألمان خط ماجينو وسحقوا الدفاعات الفرنسية، ووقع ميتران فى أسرهم ضمن عشرات الآلاف من أبناء الأسر الفرنسية ولكنه تمكن من الهرب من معسكر الأسر، ولما عاد إلى فرنسا، عمل فى ظل حكومة فيشى، ولم يكن يعلم أن هذه الحكومة عميلة للألمان النازيين.. ومن الأكيد أن هذه الحملة كانت مدبرة من قبل إسرائيل والحركات الصهيونية العالمية لتشويه صورة فرانسوا ميتران الذى كان من أشد المعاديين لإسرائيل ومن أقوى المناصريين للحقوق الفلسطينية..

وفى شهر يونيو عام ١٩٩٢ قام بمغامرة سياسية شجاعة حين وصله نداء استغاثة عبر رسالة من رئيس البوسنة يقول فيها لميتران: سنموت وليس لدينا خيار آخر..، فقرر فرانسوا ميتران أن يعود على الفور إلى المبادئ التى حملته إلى الإليزيه، وكان عائدا على متن طائرته بعد انتهاء أعمال قمة الاتحاد الأوروبى والتى عقدت بلشبونة، حين قرر أن يهبط بطائرته على مطار سراييڤو التى تحاصرها قوات الصرب منذ ثلاثة أشهر، وأكد قبل وصوله إلى سراييفو أنه يأمل فى إعادة فتح المدينة أمام العالم الخارجى، وعندما علمت القوات الدولية فى سراييفو أن ميتران سيهبط بعد قليل على أرض المطار مفاجئا العالم، وفرت القوات الدولية الحماية لطائرة الرئيس وعندما وصل إلى المطار وجد القتال على أشده والسماء تمطر من حوله قذائف ثقيلة وخفيفة، وأن الدمار قد أطاح بنضرة هذه المدينة الجميلة الحالمة، وأفقدها عذريتها وبساطتها.. ولم يكد يخطو ميتران خطواته الأولى على أرض المطار حتى أصاب وابل من الرصاص أحد الجنود الذى كان يسير على بعد خطوات منه فسقط قتيلاً، وهنا دفعه حراسه دفعا إلى استراحة المطار، ثم اقنعوه بأن يرتدى قميصا من الرصاص، وبالفعل وافق ميتران، ولكنه أصر على أن يسير على أقدامه فى شوارع سراييڤو ليجذب أنظار العالم كله إلى حالة الدمار التى أصابت المدينة، وإلى أشلاء آلاف الجثث والضحايا التى غفلت عنها عيون العالم.. وقتها كان الرئيس حسنى مبارك فى داكار ليشارك فى أعمال القمة الأفريقية الثامنة

والعشرين وأرسل رسالة إلى ميتران قال فيها : نشكر لك موقفكم البطولى ونفخر بشجاعتكم التى لفتت أنظار العالم إلى هذه المأساة . . ، وقد نقلت كل وكالات الأنباء العالمية زيارة ميتران إلى سراييفو ، وأفردت الصحف العالمية صفحاتها الأولى لنشر صورة ميتران ، وهو يسير تحت سماء تمطر الرصاص والبارود ، وكتبوا تحت صورته . . «فرانسوا ميتران . . رئيس بلا حدود . .»

وميتران صاحب الفكر الاشتراكى ، أو شيخ الاشتراكيين كما كان يُطلق عليه ، قد تسبب كثيراً فى استفزاز الولايات المتحدة الأمريكية وإثارة قلقها . . فقد كانت الإدارة الأمريكية متوترة من فكره الاشتراكى الذى يعادى بالطبع الرأسمالية الأمريكية ويهدد فكرها وهويتها واستراتيجيتها التى تمس أمنها القومى بالتبعية ، وازداد قلق أمريكا بعد أن أعلن ميتران آراءه المناصرة لحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره ، والحصول على استقلاله وحريته ، فى الوقت الذى كان ميتران قد تحالف فيه مع الشيوعيين ، وعين ثلاثة منهم فى الوزارة ، ولما اختلف معهم فقدوا مقاعدهم الوزارية فى الحكومة الفرنسية . .

وقد كثر الحديث عن حياة فرانسوا ميتران الاجتماعية والشخصية وعن علاقاته الغرامية ، والمعروف أنه تزوج من دانييل عام ١٩٤٤ التى أحبها كثيرا ووقفت بجواره وقفة صامدة أثناء مقاومته للجيش الألمانى فى فترة الحرب العالمية الثانية ، بل كانت تشاركه الرأى والفكر والتخطيط ، وعاشت معه لحظات النجاح ولحظات الفشل ، وأنجب منها أولاده جان كريستوف وجيلبير والذين كانوا بالنسبة لهما ثمرة هذا الحب ورمزا لقصة كفاحهما سوياً . . ولكن ميتران كانت له علاقة غير شرعية بإمرأة تدعى آنا بينجو ، والتى تعمل أمينة لمتحف أورساى بفرنسا ، وأنجب منها عام ١٩٧٤ أبنة غير شرعية تدعى مازارين . . وظل فرانسوا ميتران يرفض الاعتراف بإبنته حتى قبل شهور بسيطة من مفارقته لقصر الإليزيه . . ولكن الأيام والظروف التى أحاطت به جعلته يعترف بها لتصبح مازارين هى الحقيقة الوحيدة فى آخر أيام فرانسوا ميتران . .

والمعروف أن ميتران كان عاشقا لمصر . . ومغرما بها ومتيما بآثارها ، وكان لابد أن يحضر كل عام لقضاء اجازته فى أسوان ، حيث كان يقيم بفندق أولد كاتراكت المطل على جزيرة فيله الساحرة . . وفى آخر زياراته لأسوان اصطحب ابنته مازارين وأمها آنا بينجو ، وكان ميتران فى أسوأ حالاته المرضية . ولكنه كان مُصراً على الإنتهاء من كتابة مذكراته ، وساعدته مازارين فى كتابة آخر جزء من هذه المذكرات بشرفة حجرته فى فندق أولد كاتراكت بأسوان ، وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى يزور فيها ميتران أسوان وبعد أقل من عشرة أيام مات فرانسوا ميتران فى ٨ يناير ١٩٩٦ فى شقته بشارع فريدرك لوبلاى بباريس . .

ميتران يُخفي مرضه عن الشعب الفرنسي

كان ميتران بارعاً في إخفاء مرضه.. وهو الرجل الذى استطاع أن يسجن آلامة خلف قضبان الجسد قرابه أكثر من عشر سنوات دون أن يشعر واحد من أفراد الشعب أن رئيسه مريض بأخطر الأمراض التى قد تنهى حياته فى أى لحظة ودون سابق إنذار.. لقد استطاع رجل واحد ان يخدع عشرات الملايين من البشر ويقنعهم بأنه معافى وسليم من الناحية الصحية، فيدفعهم ذلك إلى إعادة الثقة فى شخصه، وانتخابه دورة ثانية رئيساً لفرنسا.. وهذه الحقيقة ذكرها طبيب ميتران الخاص كلود جوبلر فى كتابه السر الكبير والذى نشره بعد وفاة ميتران، وأكد فيه أنه ظل لمدة ١١ عام يصدر نشرات طبية باطلة عن حالة ميتران الصحية.. وأن بياناتها التى كانت تشير إلى أن الرئيس يتمتع بحالة صحية جيدة كانت بعيدة عن الواقع، ويكتنفها التزوير والتلفيق.. خاصة وأن ميتران على حد قول طبيبه الشخصى، كان مصاباً بالسرطان منذ عام ١٩٨١ وليس مع بداية عام ١٩٩٢ كما كان ميتران يدعى.. وقد دفع جوبلر ثمن كشفه لحقيقة الكذب السياسى، والذى استمر فترة طويلة لإخفاء حقيقة مرض الرئيس الفرنسى خاصة وأن ميتران كان قد وعد شعبه أثناء حملته الانتخابية عام ١٩٨١ أنه سيقدم تقرير فور توليه السلطة عن حالته الصحية.. وأن اخفاءه حقيقة مرضه ساعده على ضمان فترة رئاسة ثانية لمدة سبع سنوات، رغم أنه كان يموت من المرض..

ومشكلة الطبيب كلود جوبلر أن الدنيا قامت فوق رأسه ولم تقعد بعد إذاعته هذا السر الخطير.. والذى أدى بطبيعة الحال إلى إنهيار صورة ميتران أمام شعبه الذى اعتبره خائنا ومخادعاً، وأنه ضلل المواطنين لينال أصواتهم.. وكان رد فعل أرملة الرئيس ميتران هو إقامة دعوة قضائية ضد جوبلر، تطلب حظر نشر كتابه ومصادرته لأنه أفشى أسرارا مرضية خرق بها شرف المهنة واعتدى على قوانين حظر نشر الأسرار الطبية.. وبالفعل حصلت دانييل ميتران على أمر قضائى بحظر نشر الكتاب الذى باع ٤٠ ألف نسخة فى أول يوم لنشره، كما تلقى جوبلر أمرا بالسجن وغرامة ٦ آلاف جنيه استرلينى لانتهاكه الثقة الطبية، ومنعه مجلس الأطباء الفرنسيين من ممارسة مهنة الطب، كما أغلقت الحكومة أبوابها فى وجهه ونزعت منه أوسمة الشرف وميداليات الاستحقاق التى نالها فى عهد ميتران.

ويذكر جوبلر فى كتابه «السر الكبير» أن الأمر بدأ فى مؤتمر كانكون بالمكسيك وهو أول مؤتمر يحضره ميتران بعد فوزه برئاسة فرنسا عام ١٩٨١، وشعر بآلام شديدة فى الظهر والركبة حتى ظهر أثناء سيره كمن يعرج قليلاً وقرر كلود جوبلر وطبيب آخر يدعى دورن كان اصطحبه ميتران فى زيارته للمكسيك أن يفحصا ميتران بعد العودة إلى فرنسا مع بعض أطباء مستشفى ڤال دوجراس العسكرى.. وفى المستشفى رأى الجنرال طبيب توماس أن حجم البروستاتا غير عادى وأنها صلبه قليلا وأن الرئيس ميتران لابد وأن يخضع لسلسلة من الأبحاث والفحوصات التى تستلزم تواجده بالمستشفى.. ولكن ميتران رفض بشدة فكرة دخول المستشفى من الأساس، وتم الاتفاق على حل آخر وهو أن يأتى ميتران إلى المستشفى

لاتمام الفحوص فى أيام السبت، وهو عطلة رسمية فى فرنسا حتى لاينتشر الخبر، وكان جوبلر يصطحب ميتران فى عربته القديمة دون أى حراسة من قصر الإليزيه إلى مستشفى فال دوجراس العسكرى لإجراء الأبحاث اللازمة، ثم يعود معه مرة أخرى إلى الإليزيه، وتأكيدا للسرية فقد تم تسجيل ميتران فى سجلات المستشفى تحت اسم ـ البيربلوت ـ وهو الاسم الخاص بزوج شقيقه الجنرال طبيب توماس مدير المستشفى، وأظهرت التحاليل التى قام بها الأطباء العسكريون فى فرنسا أن ميتران مصاباً بسرطان البروستاتا، فتم على الفور استدعاء أدولف ستيج وهو طبيب عالمى متخصص فى المسالك البولية، ويعمل فى مستشفى كوشان، وبعد أن قام بفحص ميتران ومراجعة الأبحاث الطبية التى أجريت له أخذ جوبلر جانباً وقال له: هناك إصابة بسرطان العظام وأصلها إصابة فى البروستاتا، وأن ميتران لن يعيش أكثر من ثلاثة سنوات فى أفضل الأحوال، وثلاثة أشهر فقط إذا لم يستجب جسمه للعلاج..

وتذمر الرئيس ميتران من هذا الحديث السرى فطلب أن يعرف الحقيقة فقال له ادولف ستيج إن واجبى يحتم على ألا أخفى عليك الحقيقة أنت مصاب بمرض سرطان العظام وهو منتشر بالبروستاتا...، فأظهر ميتران قلقه وفزعه وسأل ستيج: معنى ذلك أننى انتهيت؟ فرد عليه الدكتور ستيج بأنه لايستطيع أن يجزم بذلك، ولايمكن أبدا أن يقول أن الأمر قد انتهى ولكنه طلب من ميتران أن يستجيب لكل التعليمات العلاجية التى سيحددها مع الدكتور جوبلر طبيب ميتران الخاص. ووافق ميتران ورد آسفا: أنتم لاتتركون لى خيارا.

وعندما خرج ادولف ستيج سأل جوبلر الرئيس: هل أبلغ السيدة دانييل فأجاب ميتران بالرفض.. فقال جوبلر: إذن من يجب على أن أبلغه؟ فقال له ميتران بكل شدة: لا أحد.. لقد قررت أن يكون ذلك أحد أسرار الدولة وأنت ملتزم بهذا السر.. وكان هذا على حد قول جوبلر فى ١٦ نوفمبر عام ١٩٨١ الساعة الثامنة مساءاً أى بعد شهور قليلة من تولى ميتران حكم فرنسا..

وكان ميتران حريصا كل الحرص على عدم إفشاء هذا السر، خاصة بعد أن أصدر نشرة طبية طمأن فيها الشعب الفرنسى على صحته.. كما أنه كان يعرف أن هناك محاولات كثيرة للتجسس عليه خاصة وأن انتخاب رئيس اشتراكى لفرنسا ساعد فى إدخال الشيوعيين إلى الوزارة، وأثار هذا قلق الولايات المتحدة الأمريكية التى كانت ترصد بدقة كل تحركات وقرارات فرانسوا ميتران.. وبالطبع فإن إطلاع المخابرات الأمريكية على حقيقة مرضه سيجعلها تدرس كم من الوقت سيظل هذا الرئيس الذى يقلق أمريكا قابعاً على كرسى الحكم؟..

وفى إحدى المرات كان ميتران فى زيارة لإحدى دول أوروبا الشرقية وحاول جوبلر أن يهم بالحديث معه عن صحته فأشار بأصبعه على فمه طالباً من طبيبه أن يصمت.. وفى كل رحلة كان ميتران يطلب من كلود جوبلر أن يتوخى الحذر فى كلامه عن صحته، وأن يجمع كل المخلفات الخاصة بعلاجه مثل، الإبر الفارغة والقطن والامبولات ويحملها معه فى حقيبته

ثم يتخلص منها في باريس فور عودته، وظل ميتران حتى عام ١٩٩٢ يعالج في الخفاء واستطاع بمقدرة عجيبة أن يكتم هذا السر بذكاء شديد إلى الدرجة التي جعلته يفوز بفترة رئاسة ثانية فوزاً مضموناً.. ورفض ميتران فكرة العلاج بالعقاقير الكيميائية، لأنه كان يعلم أنها تسبب سقوط الشعر وتغيير ملامح الوجه والنحافة البالغة، بالإضافة إلى تأثيرها على الحالة الذهنية والعقلية، وبالطبع فقد نتج عن ذلك أن تفحل المرض في جسده فأصاب العمود الفقرى والمثانة البولية وعظام الحوض..

وفي ١١ سبتمبر عام ١٩٩٢ عانى ميتران من احتباس بولى حاد نتيجة زيادة في تضخم البروستاتا، ولم يكن هناك بد من إجراء جراحة عاجلة للرئيس ميتران لاستئصال جزء من البروستاتا، ووجد ميتران أن هذا الأمر سيكتشف وليس من السهولة إخفائه، فطلب من جوبلر أن يصدر نشرة طبية يذكر فيها حقيقة إصابته بسرطان البروستاتا بشرط أن يؤكد على أن السرطان قد انتهى باستئصال الورم من البروستاتا جراحيا.. وبالفعل تم إجراء الجراحة للرئيس ميتران، لكن الأطباء أكدوا فيما بينهم أن ميتران سيضطر لإجراء جراحة كل ٣ أشهر لمعالجة مضاعفات السرطان، وأن حالته سيئة ولن يجدى معه العلاج الهرمونى لوقف نشاط الخلايا السرطانية، بالإضافة إلى أن هيكله العظمى أصبح شديد الهشاشة.. وأعلن جوبلر أن الرئيس مصاب بسرطان البروستاتا والذى تم القضاء عليه باستئصال هذه الخلايا السرطانية جراحيا.. وأن الرئيس ميتران قرر شخصياً أن يبلغ شعبه، وشددت الرئاسة الفرنسية على أن البيان الطبى يعود لرغبة شخصية من ميتران لإطلاع شعبه على حقيقة حالته الصحية..

وفي ٢٥ ديسمبر عام ١٩٩٢ صرح أطباء الرئاسة بأن ميتران لايستجيب بدرجة كبيرة لعلاج سرطان البروستاتا، وسوف يقرر مصيره بعد الفحص الطبى القادم ومناظرة النتائج المعملية.. وأثار هذا التصريح جوا من البلبلة خاصة وأن الحزب الاشتراكى كان يناضل من أجل الفوز بالانتخابات العامة.

وفي ١٥ سبتمبر عام ١٩٩٣ تعرض ميتران لحالة دوار قيل بأنها تعود إلى الحر الشديد أثناء حفل الاستقبال الذى أقيم له عند وصوله سول بكوريا الجنوبية، وكاد ميتران أن يسقط مغشياً عليه لولا أن أحد مرافقيه أمسك بيده حتى لايقع على الأرض..

والمدهش أن شهر يوليو عام ١٩٩٤ كان شهراً مثيرا في حياة أسرة ميتران، فقد أدخل ميتران مستشفى كوشان بباريس لاستئصال ورم سرطانى جديد بالأجزاء المتبقية من البروستاتا، والتى لم يتم إزالتها جراحيا، واضطر الجراحون إلى التوسع في خطة الجراحة لتشمل الكلى، حيث تم استئصال بعض الأورام والألياف الصغيرة الأخرى باستخدام المنظار والتى كان يخشى منها على الكلى والمسالك البولية، وثبت أنها منتشرة من البروستاتا، وفي نفس الشهر كانت دانييل ميتران تجرى جراحة خطيرة في القلب لتغيير ثلاثة صمامات بالقلب والأوعية دفعة واحدة، وقد أعلن قصر الإليزيه أن دانييل ميتران تتماثل للشفاء بعد العملية الجراحية التى أجرتها بنجاح..

وفي يوم ٢٠ يوليو عام ١٩٩٤ صدرت نشرة طبية تؤكد أن حالة ميتران الصحية مطمئنة بعد الجراحة التى أجراها.. وأنه يقوم بمهام الرئاسة داخل المستشفى حيث عرض عليه أدوار بلادير رئيس الوزراء الفرنسى جدول أعمال مجلس الوزراء الذى كان مقرر اجتماعه فى نفس اليوم.. وأعلن البروفيسور ديبريه رئيس قسم المسالك البولية بمستشفى كوشان بباريس وهو فى نفس الوقت نائب برلمانى معارض، أن الحالة الصحية للرئيس ميتران لاتطرح أى مشكلة وأنه سيخرج من المستشفى قبل نهاية الأسبوع وأن الجراحة تمت باستخدام المنظار لاستئصال الأنسجة السرطانية المنتشرة من البروستاتا والتى كانت تلتف حول المسالك البولية..

ومنذ أن عرف العالم حقيقة مرض ميتران وأن شفاءه أصبح أمراً ميئوس منه نظرا لتقدم عمره وضعف جهازه المناعى.. ووسائل الإعلام لاتكف عن ملاحقته وتتبع أخباره واستضافته فى برامج المحطات الإخبارية والتليفزيونية العالمية وبدا ميتران شجاعاً فى مواجهة المرض.. صلبا فى الاعتراف بالحقيقة فى هذه الجولة الأخيرة من صراعه مع المرض ولم يخجل فى أن يظهر على شاشات التليفزيون شاحباً ومخيفاً وبعد أن أجرى عملية استئصال جزء من البروستاتا سأله الصحفيون: هل سيؤثر ذلك على قدرتك فى التفكير والحكم على الأمور؟ فأجاب ساخرا: أن العملية لم تتم فى مخى!! وليس هذا هو موضع ومكان البروستاتا، ولا أعتقد أنهم أزالوا جزءا من مخى.. وفى حديثه الذى أدلى به للقناة الثانية فى التليفزيون الفرنسى كان واضحا عليه الإعياء الشديد وقال: إننى لا أخاف الموت واستعد له دائما فهو حقيقة فى حياة كل إنسان، والخلود ليس للجسد وإنما للتاريخ فقط.. وعندما نصبت صحيفة لوفيجارو الفرنسية السيرك لميتران فى مقابلة معه نشرت على يومين، وحاولت الصحفية أن تحاكمه على فترة معينة فى تاريخه، وإتهامه بالتعامل مع حكومة فيشى ضد اليهود، قال ميتران فى رده على سؤال عن الوقت الذى سيترك فيه الحكم أننى أقاتل المرض وعندما اشعر أننى لم أعد قادراً على الاستمرار سأترك الحكم..

وفى لقاء تليفزيونى آخر.. سأله أحد المذيعين هل تشعر بآلام؟ فقال له ميتران فى ثبات: هذا شئ لايخصك.. ومع ذلك أقول لك أن المرض لم يقل رغم العلاج وأنا أمر بسلسلة مراحل من العلاج كل منها يستمر لمدة ٢١ يوما وسوف تتكرر ثلاثة أو أربعة مرات..

وقد قام ميتران بتخفيض برنامجه الأسبوعى لتقليل أعبائه ومهامه الرئاسية حتى يتفرغ قليلا لخطة العلاج، وبدأ يحضر جلسات نفسية خاصة لتخفيف الألم، وتسكين النفس، كما كان يتردد على الفليسوف جان جوليت الذى يبلغ من العمر ٩٣ عاما ليسأله عن الحياة بعد الموت.. بعد أن أكد له أطباؤه أنه لن يعيش أكثر من ستة شهور.. والمثير أن ميتران قد افتتح فى عام ١٩٨٦ عدداً من المراكز الطبية التى تؤهل المرضى المفقود الأمل فى شفائهم للموت.. وهو الآن واحدا من هؤلاء المرضى.. الذين يخضعون لتأهيل نفسى للموت تقوم به الطبيبة النفسية مارى دى هانزال..

والمعروف أن شعبية ميتران كانت قد انخفضت قبل إنهيار حالته الصحية، لكن

إصراره على البقاء فى الحكم والقيام بأداء دوره الرئاسى رغم ظروفه الصحية السيئة، جعل الشعب يتعاطف معه، ويتذكر ميتران صاحب المبادئ العظيمة وكفاحه المستميت ضد النازية أثناء الحرب العالمية الثانية.. وارتفعت شعبيته بصورة ملفتة إلى الحد الذى وافق فيه ٦٨٪ من أبناء الشعب الفرنسى على أن يكمل ميتران فترة رئاسته الثانية التى كان مقرراً لها أن تنتهى فى مايو ١٩٩٥..

ومع افتقاد الأمل فى الشفاء بالعلاج الدوائى المتعارف عليه لجأ ميتران إلى الباحث ميركو بلجانسكى الطبيب بمركز باستير للأبحاث والذى قضى ٣٠ عاما فى دراسة الطب الموازى، أو مايعرف بالطب البديل، بعد أن عرف ميتران من صديق له يعمل فى الشرطة أنه استطاع أن يتوصل إلى تركيبة خاصة من الأعشاب تساعد على رفع مناعة الجسم وزيادة درجة المقاومة والقضاء على الخلايا السرطانية، وتناول ميتران هذه التركيبة والغريب أنه بدأ يتحسن بصورة مذهلة وبدأ يبدو معافيا تماماً.. ولكن يبدو أنها صحوة الموت وأنه كان على ميعاد مع القدر.. والموت الذى لافرار منه، وكان آخر ماطلبه أن يزور أسوان فى احتفالات رأس السنة الجديدة لعام١٩٩٦ بصحبة ابنته مازارين وأمها وطبيب التخدير جان بيير تارو، وزوجته، فقد كان ميتران لايستطيع فى أواخر أيامه أن يعيش بدون مخدر لمدة ساعة واحدة خاصة بعد أن اشتدت عليه أعراض المرض، ووجد نفسه فجأة مصاباً بفقدان القدرة على تحريك ذراعيه وقدميه.. وقضى إجازته هذه المرة فى شرفة غرفته بفندق أولد كاتراكت، وعندما حضر طبيبه إليه بالدواء سأله ميتران: ماذا يحدث لو لم أتناول هذا الدواء؟ فأجاب الطبيب على استحياء بأن الوفاة ستكون أمرا حتمياً.. فسأله ميتران: وكم من الوقت يمكن أن أعيش بدون دواء.. فأجاب الطبيب: ثلاثة أيام فقط، فقال ميتران: سأتوقف عن تناول الدواء ولا تعطنى أقراصا بعد اليوم..

ومات فرانسوا ميتران بعد أسبوع واحد من زيارته الأخيرة لمصر، وكانت وصيته أنه لايريد إقامة جنازة رسمية له.. ومع ذلك حضر مراسم دفنه أكثر من ١٢٠٠ شخصية سياسية من بينهم ٦١ رئيس دولة وكانت آخر كلماته: «اسطورة الموت والحياة لاحل لها لكن علينا أن نعيش التجربة بعمق»..

ورحل فرانسوا ميتران.. مهندس الوحدة الأوروبية..

المرض يدفع ميتران ليصحح خطيئته

يقول هيوبرت فيدرين مستشار الرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران عن ميتران فى أواخر فترة حكمه فى قصر الإليزيه عندما اشتدت عليه أعراض المرض وأصيب بالأعياء والإجهاد الشديد: أنه كان يصل إلى قصر الإليزيه فى التاسعة والنصف صباحاً ثم يسرع بالذهاب إلى فراشه فى شقته الخاصة بالقصر، فتأتى له الصحف والمجلات فيقرأها ثم ينام حتى موعد

الغذاء.. وكان يستقبل وهو على فراشه عددا قليلا من المستشارين والوزراء وكان من الصعب ان يوقع على أى قرار فى وقته.. وأحيانا لم يكن يوقع على الكثير من خطابات الاعتماد، وتظل بالأسابيع حتى يفكر فى توقيعها مما كان يجعل رئيس البروتوكول بقصر الإليزيه يشد شعر رأسه على حد قول هيوبرت فيدرين، وقد وصل الأمر بالرئيس إلى استقبال أحد رؤساء الدول من فوق السرير!!..

وقد قال الطبيب كلود جوبلر فى كتابه «السر الكبير» أن الرئيس ميتران أهمل تماماً شئون البلاد اعتبارا من نوفمبر عام ١٩٩٤ وهذا ما دفع إدوار بالادير رئيس الوزراء الفرنسى فى ذلك الوقت أن يستغل هذه الفرصة لإدارة شئون البلاد والسيطرة على مقاليد الحكم، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع شعبيته تماما قبل انتخابات الرئاسة التى كان ينوى خوضها بعد انتهاء ولاية فرانسوا ميتران فى مايو ١٩٩٥، وقد نفى جيلبير ميتران الابن الثانى للرئيس ميتران هذا الكلام وقال أن أبيه لم يهمل أمور الرئاسة وأنه لم يشك لحظة فى قدرته بل ومهارته فى وزن الأمور وتحليلها، ويدلل على ذلك بأن ميتران قام قبل نهاية حكمه بيومين بجولة شملت لندن وبرلين وموسكو، واستند جيلبير فى دفاعه عن أبيه إلى أن شارل ديجول نفسه كان يعانى من مرض سرطان البروستاتا مثل ميتران تماما وقد أجريت له عملية جراحية فى ١٧ ابريل عام ١٩٦٧ لاستئصال جزء من البروستاتا، ولم يمنعه ذلك من ترشيح نفسه للرئاسة فى نوفمبر من نفس العام..

ومهما كانت المبررات والدوافع فى حديث الناقدين أو المدافعين عن الفترة الأخيرة فى حكم فرانسوا ميتران فلاشك أنه تأثر بشدة من مرضه فى الفصل الأخير من رحلته مع السرطان.. وليس هناك دليل أقوى من أنه كان يصطحب معه طبيبا للتخدير فى كل تحركاته ليكون مستعدا للقضاء على آلام ميتران التى كانت تلازمه ولاتفارقه إلا بفعل الأدوية المخدرة ذات التأثير القوى.. وقد ثبت أن ميتران كان يعالج الألم فى البداية ببعض المسّكنات التى تؤخذ عن طريق الفم أو بالحقن فى العضل أو الوريد، ثم أنتقل بعد ذلك إلى استخدام المورفين كمخدر قوى يمكن أن يستخدمه أى طبيب فى القضاء على الآلام دون الحاجة إلى استشارة طبيب متخصص فى التخدير، ولكن مع تكرار استخدام المورفين فى تسكين آلام فرانسوا ميتران ظهر أنه قد تعود عليه ولم يعد مؤثرا فيه، وكان لزاما أن يتم تخديره بأدوية مخدرة ذات فعالية سريعة وقوية، ولم يكن من الممكن أن يتناول ميتران هذه الأدوية والعقاقير إلا تحت إشراف طبيب متخصص فى التخدير، ولذلك كان القرار بتخصيص طبيب تخدير يرافقه فى كل تحركاته.. وهذا يؤكد أن ميتران لم يكن يستطيع أن يتحمل آلام المرض ،وبالطبع فإنه من المستحيل أن يصدر الرئيس أى قرار أو يكون تفكيره متوازنا، وهو مشغول بآلامه القاتلة ومرضه اللعين ويبحث بكل الطرق عن وسيلة يمكن أن يخرس بها صوت آلامه..

وعموما فأنا مقتنع أن فرنسا نفسها لم تتأثر بمرض فرانسوا ميتران كثيرا حتى لو كان

هذا المرض هو مرض الموت.. ومجرد تأخر توقيع الرئيس على أوراق شكلية مثل أوراق اعتماد السفراء لايصح أن تكون واقعة يتوقف عندها بعض الناقدين لعهد ميتران ليثبتوا بها أنه لم يعد قادرا على الحكم.. فدولة مثل فرنسا هي دولة ديمقراطية وليست دولة شمولية حيث تتلخص السلطات كلها في يد الحاكم فإذا إنهار انهارت معه الدولة.. ولكن ميتران نفسه هو الذى تأثر كإنسان إلى حد كبير بمرضه وبفقده الأمل فى العودة بشجرة الحياة إلى الإثمار من جديد..

وهناك قرار خطير اتخذه ميتران وهو على فراش المرض وعلى بعد شهور قليلة من يومه الموعود.. فقد قرر بمنتهى الشجاعة أن يعترف بإبنته غير الشرعية مازارين، والتى أنجبها من علاقة محرمة مع آنا بينجو التى كانت تعمل أمينة لمتحف أورساى بفرنسا.. وكان ميتران قد ظل لأكثر من عشرين عاما يرفض الإعلان عن حقيقة أن له ابنة غير شرعية تدرس الفلسفة فى السربون رغم أن هذه الابنة ذاقت من الذل والهوان مايكفى لأن يجعلها تمحو اسم والدها من وجودها وحياتها..

وفى كتاب «الشرف الضائع لميتران» يذكر مؤلفه جون آلييه أن مازارين كان يطاردها سؤال هام أثناء طفولتها عندما كانت تلميذة فى مدرسة جاك بريفير فى باريس، وهذا السؤال هو.... ماذا يعمل والدك؟ وكان هذا السؤال الذى تسمعه من زميلاتها يذكرها دائما بأنها مجهولة النسب، لكن أمها كانت قد أخبرتها أنها ابنة رئيس جمهورية فرنسا، وعندما كانت مازارين تسمع هذا السؤال يتكرر على مسامعها من جديد كانت ترد: والدى رئيس الجمهورية... فتصبح الإجابة مادة للسخرية بين زميلاتها وترد إحداهن باستنكار وهى تقول: أما أنا فوالدى هو الامبراطور شارلمان وهو ملك فرنسى قديم..

ورغم أن الحزب الاشتراكى الفرنسى بزعامة ميتران قد أيد عام ١٩٧٢ صدور قانون يقضى بالاعتراف بالإبوة للأبناء غير الشرعيين إلا أن ميتران ظل عازفا عن الاعتراف بمازارين حتى اشتد عليه المرض وبدأ يفكر فى نهايته.. وأحس فرانسوا ميتران الذى ضحى كثيرا من أجل الحقوق والحريات، بأنه لم يكن بالجرأة التى تجعله يرد الحق لإبنته، ويطلق سراحها ويمنحها حريتها بعد أن ظل بنفسه يقوم بمهمة سجانها فى معتقلات الذاكرة.. ولاشك أن ميتران أيقن أنه سيموت قريبا فمنذ خمسة عشرة عاما أكد له الأطباء أنه سيعيش ثلاثة سنوات فقط ولكنه عاش سنوات طويلة كاملة يحكم ويأمر وينهى وينهزم وينتصر ويسطع فى السماء ثم يندثر.. فقد عاش الحياة بكل ألوانها..

وأقوى الحجج على أن ميتران كان يفكر فى الموت قبل أن يترك قصر الإليزيه، أنه استعان بالطبيبة المتخصصة فى التحليل النفسى مارى دى هانزال لتقوم بتأهيله لفكرة الموت، وبعد أن خرج من قصر الإليزيه كتب لها مقدمة كتابها «الموت الحميم» والتى تكلمت فيه عن اللحظات الأخيرة فى حياة بعض الزعماء..

لقد كان الموت مسيطرا على عقل ميتران فى كل لحظة، ولم يكن هناك هما له سوى أن

يرد لإبنته بعضا من حقوقها، وقد تعمد ميتران قبل شهور من مغادرة قصر الإليزيه أن يسرب لأجهزة الإعلام معلومات عن مازارين كمحاولة منه للاعتراف بها أمام الجميع، بل لا أبالغ إذا قلت أنها احتلت المقام الأول بلا منازع في شهور حياته الأخيرة.. وبالفعل أعاد ميتران إبنته إلى حضنه الدافئ، وقام بتغيير اسمها في كل الأوراق الرسمية من مازارين بينيو نسبة إلى عائلة أمها إلى مازارين فرانسوا ميتران، وخصص لها ولأمها المبنى التابع لرئاسة الجمهورية على الضفة الثانية من نهر السين بالقرب من برج إيفل لتقيم فيه وتركته عندما غادر والدها قصر الإليزيه..

وبعد أن جمعت كل المعلومات عن شخصية فرانسوا ميتران وعن رحلته مع المرض استطيع أن أدفع بأن السبب الرئيسي في إصرار ميتران على استكمال فترة حكمه حتى نهايتها في ٥ مايو ١٩٩٥ رغم حصار المرض اللعين له هو رغبته في أن يعلن ابنته للعالم وهو مازال في قصر الإليزيه رئيسا لفرنسا، ومحط أنظار العالم وبؤرة أضوائها المسلطة على أخباره بصفة مستمرة، لكنه كان يقاتل المرض على حد قوله ـ لا من أجل فرنسا، فقد أعطى فرنسا الكثير ولكن من أجل ابنته مازارين التي خشي أن يموت دون أن يرد اعتبارها أمام العالم.. وقد جمع ميتران زوجته دانييل وولديها منه جان كريستوف وجيلبير في حضور مازارين ووالدتها وقد أوصى أولاده وزوجته بابنته مازارين وبحقوقها الشرعية في كل مايتركه..، وقد أبدت دانييل وأبناؤها استعدادا طيبا لتنفيذ رغبة ميتران..

ومازارين التي ولدت عام ١٩٧٤ عندما كان ميتران في الثامنة والخمسين من عمره، هي فتاة متواضعة ورائعة الجمال..، إذا فكرت أن تنظر في عينها فعليك أن ترتدى نظارة شمسية من طراز أصلي حتى تحمي عينيك من شعاع عينيها الرائعتين، وهي رقيقة وحالمة، وفي الأيام الأخيرة في حياة والدها كانت تعيش قصة حب كبيرة مع حبيبها المسلم (علي) وهو ابن سفير المغرب في السويد، والذي يدرس الفلسفة أيضا في السربون ويسكن بجوارها في حي سان جيرمان بباريس، والغريب أنه رغم اشتداد المرض على ميتران إلا أن حالته النفسية قد تحسنت كثيرا بعد أن اقتربت مازارين منه وبدأت تساعده في كتابة بعض مؤلفاته التي لم ينقطع لحظة عن الاستمرار في كتابتها، فقد كان يعكف على الانتهاء من تأليف كتابين الأول عن السياسة الدولية والآخر عن الوحدة في السلطة، وقبل أن يبدأ في تأليفهما وضع الخطوط الرئيسية وبعض الأفكار التي سيشملها موضوع الكتابين لتحتفظ بها مازارين حتى تستطيع إكمال المهمة إذا توفي ميتران قبل الانتهاء من تأليف الكتابين، كما أنها شاركته في كتابة وتسجيل مذكراته وكتبت معه العشرين صفحة الأخيرة من هذه المذكرات في شرفة فندق أولدكتراكت بأسوان أمام صفحة النيل الخالد في آخر زيارة له لأرض الحضارة حيث كان يحب دائما أن يعيش في عبق التاريخ..

ومهما قال المعارضون لفترة حكم ميتران بعد وفاته من أنه كان مخادعا وغشاشا ولم يحصل على وسام من جيش المقاومة السرى أثناء الحرب العالمية الثانية، ولم يكن مخلصا في

حياته الزوجية، ولم يكن صادقاً فى تقاريره الطبية، وأنه كان يستعين بالمنجمين والسحرة قبل إصدار القرارات الهامة.. وأنه أقام لشبكة تصنت على معارضيه، فسوف يظل قراره بالاعتراف بإبنته مازارين هو أهم قرار فى حياة ميتران يكون دافعه المرض..

وسيغسل هذا الاعتراف بعض السقطات التى يمكن أن يكون ميتران قد وقع فيها طوال عمله السياسى سواء كانت هذه السقطات تتعلق بحياته الشخصية أو سياسته العامة فى الحكم..

وقبل أن يترك ميتران الحكم اشترى مقبرة فى منطقة الغال القديمة فى وسط فرنسا تبلغ مساحتها مائة متر مربع. وشئ غريب أن يظل زعيم سياسى مثل فرانسوا ميتران، وصاحب باب كامل من أبواب التاريخ الفرنسى، كل هذه السنوات الطويلة من حياته التى تعرض فيها أكثر من مرة للموت الأكيد، وكان ينجو منه بأعجوبة ثم لايفكر أن يشترى مقبرة حتى يدفن فيها بعد موته إلا فى هذه المرة!!

ولا أجدنى كطبيب مجبرا على تفسير بعض الظواهر الطبية فى التاريخ المرضى الخاص بالرئيس الفرنسى الراحل فرانسوا ميتران ولا أن أحلل قراراته فى ضوء حالته الصحية تحليلا ينصب فى المقام الأول على تأثير فعاليات المرض على عقله.. ولن أتطرق للحديث عن العلاج الكيميائى وتأثيره على القدرة الذهنية لميتران بعد أن اضطر فى أواخر فترات حكمه للخضوع لسلسلة من جلسات العلاج الكيميائى فى محاولة أخيرة لحصار السرطان، لأن الأمانة تقتضىَ أن أؤكد للقارئ أننى لم أجد فى ملف الرئيس ميتران الصحى مايدفعنى أن أقول أنه فعل كذا لأن الغدة الدرقية على سبيل المثال أفرزت هرمونها فصدر منه كذا.. وكان تصرفا راجعا لتأثير هذا الهرمون على سلوكه العام.. ولكن فى حالة ميتران كان للمرض إنعكاس إيجابى على سلوكه وتفكيره وهو الرئيس الذى أقطع بأن المرض أرسى فيه مبادئ جديدة سيظل يحفظها التاريخ عن ظهر قلب.. وأن الإنسان الذى وجد على الأرض فى صورة جسد كامل الأعضاء ماكان سيصبح أعظم المخلوقات لو لم يدفع الله فيه نفسا وروحا تسيطر على هذا الجسد ومافيه من عقل.. وينبغى أن نعلم أن مرض السرطان سيطر على نفسية وشخصية ميتران كما سيطر على جسده ولكن كان تأثيره على النفس أكثر إيجابية من تأثيره على الجسد بل كان بمثابة تنشيط جديد لروح ميتران وتدمير أكيد لجسده.. ولكن ما فائدة الجسد بلا نفس عاقلة!!؟

وفى اعتقادى أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد للرئيس ميتران أن يكون معنا الآن وإذا كان قد أنعم عليه بنعمة الشفاء من هذا الداء، وكانت أمامه فرصة أخرى لرئاسة فرنسا ووجد ابنته مازارين فى أحضانه، وبالقرب من قلبه، فإن فرانسوا ميتران كان سيصبح فى فترة رئاسته الجديدة أعظم حكام الحقبة التى نعيشها، بل لا أبالغ إذا قلت أنه كان سيصبح بعد تجربة الشفاء من المرض واحدا من أعظم الحكام فى التاريخ..

بوريس يلتسين
« أسد جبلى يتحول إلى قطة »

الرئيس الروسى الأسبق بوريس يلتسين، كان بالفعل مثالاً حقيقياً للزعيم الذى لعب المرض والشيخوخة برأسه إلى الحد الذى أصبحت فيه حالته الصحية تشكل خطراً قومياً وأكيداً على مصلحة روسيا.. وفى اعتقادى أن بوريس يلتسين زعيم قوى للغاية.. ولو لم تشأ الأقدار لأن يتسلم الاتحاد السوفيتى صريعاً ومنهاراً على يد سلفه ميخائيل جورباتشوف لاستطاع يلتسين أن يجعل الاتحاد السوفيتى قوة أولى فى العالم بلا منازع.. بشرط واحد هو سلامة حالته الصحية وعدم تأثر قراراته بمضاعفات الأمراض التى تعرض لها..

وقد ولد يلتسين فى أول فبراير عام ١٩٣١ فى قرية بوتكو بمنطقة ناليتسكى فى مقاطعة سفيردلوفسك حيث كان أجداده يحرثون الأرض، ويبذرون الحبوب ويعيشون على الزراعة حتى انقضت حياتهم مثل حياة الآلاف من كل أهل الريف الآخرين، وكان من بين سكان القرية أسرة يلتسين وهى أسرة والده وأسرة ستاريجين، وهى أسرة والدته، وقد تزوج أبوه وأمه فى هذه القرية الصغيرة وسرعان ما أثمر هذا الزواج عن طفلهما الأول الذى تم تعميده فى الكنيسة الوحيدة الصغيرة فى منطقة ناليتسكى كلها، وقد قرر القس أن يطلق عليه اسم «بوريس».. ومرت طفولته صعبة للغاية.. فلقد كان الفقر صديقاً حميماً لأسرته.. وكان الإنتاج الزراعى فى أسوأ حالاته إلى الدرجة التى أصبحت معها آلاف الأفدنة لا تدر سوى محصول يمكن أن ينتج عن بضعة عشرات من أفدنة الأرض الزراعية فقط، وكان الغذاء قليلاً والحياة صعبة، واضطر أن يعمل مع أسرته كفلاحين أجراء فى أراضى الغير حتى يستطيعوا أن يحصلوا على قوت يومهم، وأن يسكتوا بطونهم التى تصرخ من الجوع والفقر.. وكلما عاد يلتسين وأسرته بحصيلة رزقهم بعد يوم عمل شاق وأجور تافهة، تعرضوا لهجوم عصابات المجرمين التى كانت تعيش فى ذلك الوقت على لحم المكدورين والمطحونين من أبناء الشعب الأذلاء..

وأمام هذا البطش والإجرام الذى لم يتوقف يوماً واحداً قرر والد يلتسين فى عام ١٩٣٥ مغادرة العمل فى المزرعة التى كان يأكل منها لقمة العيش للعمل فى أحد مواقع البناء فى الفترة التى أطلق عليها ستالين «فترة التصنيع» وأنتقل الأب إلى بريزنكى بمقاطعة بيرم حيث اشتغل عاملاً للبناء فى موقع تشييد مصنعاً لصناعة البوتاس، وفى هذا الوقت أقامت الأسرة فى كوخ جماعى يضم ٢٠ غرفة تقيم فيها ٢٠ أسرة تشترك جميعها فى مرحاض واحد.. وبلغ الفقر ذروته بأسرة يلتسين إلى الحد الذى جعل أمه تساعد جيرانها فى أعمال

المنزل مقابل نصف رغيف من الخبز أو أى نوع آخر من الطعام..

وكان يلتسين فى طفولته ولداً شقياً وعنيفاً للغاية، وقد حدث أنه تشاجر مع معلمته عندما كان تلميذاً فى الصف الأول الابتدائى، لأن هذه المعلمة كانت تأمر تلاميذها الصغار أن يحملوا تموين المنزل من كانتين المدرسة إلى مطبخ البيت.. وقد استاء الطفل بوريس لهذا الوضع وثار على معلمته، ورفض أن يعمل خادماً لهذه المعلمة المتسلطة، وشكاها إلى ناظر المدرسة الذى قرر أن يفصلها على الفور.. أما معاركه وصولاته فلم تتوقف يوماً واحداً.. فقد كان دائم التشاجر مع زملائه، وذات مرة أشتد وطيس المعركة بينه وبين زميلاً له يفوقه فى الجسم والقوة، واشتعلت نيران الكرامة وثارت الدماء فى رأس خصمه فتمكن من توجيه لكمة لبوريس تسببت فى كسر أنفه، ومازال هذا الكسر واضحاً حتى الآن... ويقول يلتسين نفسه عن أبيه أنه كان شديداً وصارماً على عكس أمه التى كانت رقيقة وحالمة بطبعها.. وعندما يخطئ الطفل بوريس لم يكن أبوه يعرف سوى الكرباج.. فكان يطلب من ابنه أن يرقد وينزع قميصه ويدلى بسرواله ثم يهوى بالكرباج على جسده، ولكن بوريس كان يضغط على أسنانه حتى لا يصدر صوتاً يزيد من ثورة والده.. ولم يكن ينقذ يلتسين فى هذا الوقت سوى تدخل أمه الحنون التى كانت لا تقبل أن ترى ابنها وهو يجلد مثل العبيد خاصة وأنه كان طفلاً ناعم الأظافر.

وما يقال عن شقاوة هذا الولد يمكن أن نرصد له كتاباً خاصاً، فقد عثر يوماً على قنبلة يدوية أثناء الحرب العالمية الثانية.. وحملها إلى مكان بعيد وهو لا يدرك خطورتها لو انفجرت فى وجهه... ولكن هذا الولد الشقى صمم على تحطيم هذه القنبلة بمطرقة صغيرة، وكانت النتيجة أنها انفجرت فى يده وطار معها أثنان من أصابع يده اليسرى، وبعد ذلك وجد ضالته فى الرياضة.. فقد كان يلتسين متميزاً بطاقة جسمانية غير عادية، فبرع فى لعبة القولى بول حتى أصبح مدرباً لفريق من الأنسات اللاتى تسابقن الواحدة تلو الأخرى لكسب وده وحبه ولكنه كان يزداد دلالاً مع كل محاولة جديدة للتقرب منه.

وقرر يلتسين بعد ذلك أن يلتحق بقسم الهندسة المدنية فى معهد العلوم التطبيقية فى سفيردلوفسك بمنطقة الأورال[1] وهو المعهد الذى يعادل معهد ماسوشتس للتكنولوجيا فى الولايات المتحدة الأمريكية.. ويقول يلتسين عن هذه الفترة: أنه حتى هذا الوقت لم يكن قد رأى معالم بلاده، ولا حتى شاطئ البحر.. بل لم يكن قد خرج من قريته أصلاً..

واضطر يلتسين أن يستقل القطار ليسافر إلى المعهد فى عاصمة المقاطعة، وفى القطار تعرض لبلطجة بعض الشباب المشاغبين الذين يكبرونه فى السن، ويتفوقون عليه فى القوة العضلية، وكان مطلبهم أن يلعب معهم لعبة البوكر.. ولكن يلتسين كان يرفض بشدة لأنه

(١) جبال الأورال هى الفاصل الجغرافى بين قارتى آسيا وأوروبا، ويعيش بها أهالى الجبال وتتصارع داخلها النزعات الأوروبية الآسيوية.

لم يتعود من قبل على لعب القمار.. ولكن رفضه هذا قوبل من شلة البلطجية بمزيد من البطش والضرب والأذى حتى تورم «قفا» يلتسين من الضرب، وانتشرت الكدمات فى سيقانه من الركل.. وكلما زاد اعتقاد هؤلاء البلطجية بأنه بطة سمينة مليئة بالكنوز كلما زادت سطوتهم، واشتعل بطشهم به وهم لايعلمون الحقيقة.. فهو لا يحمل روبل واحد فى جيبه!!.. واضطر يلتسين مجبراً فى النهاية أن يتعلم البوكر حتى ينقذ حياته من هؤلاء القراصنة خاصة بعد أن شهروا فى وجهه أسلحتهم البيضاء.. وخلال الرحلة إلى العاصمة كان الولد الشقى قد تعلم البوكر واتقنها.. بل فاز فى النهاية على شلة الضائعين ونزلوا من القطار فى سفيردلوفسك بملابسهم الداخلية رحمة وشفقة من العبقرى يلتسين..

واستمرت سنوات الدراسة على هذا النحو، فقد كان بوريس يلتسين دائم التنقل بين البلد التى استقر فيها مع عائلته، وبين مقاطعة سفيردلوفسك حيث معهد العلوم التطبيقية.. وفى سفيردلوفسك كون شلة من زملائه من الفتيان والفتيات المغتربين وقرروا أن يعيشوا فى مسكن واحد وأن يقتسموا شقتين متجاورتين لتقيم الفتيات فى شقة وليقيم يلتسين مع رفاقه فى الشقة المجاورة... وهناك دق قلبه لأول مرة فى حياته وأنجذب إلى نانيا جيرينا والتى كان اسمها الحقيقى أناستاسيا، وكان يحب أن يناديها دائماً بـ (ديفوشكا) أى يا فتاة.. وكانت نانيا متواضعة وساحرة ولها شخصية رقيقة وحالمة، وهذه بالطبع صفات متناقضة تماماً لطبيعة شخصية يلتسين ذات الأبعاد المختلفة..

وذات مرة كان بوريس عائداً إلى بلدته فى إجازة قصيرة.. لكنه كان مفلساً كالعادة فاضطر إلى اعتلاء سطح القطار والنوم على ظهره حتى يفر من المحصل الذى كان سيلقيه من شباك القطار لو عرف أنه لا يحمل تذكرة لركوب القطار.. وكانت النتيجة أنه أصيب بنزلة برد حادة واحتقان شديد باللوزتين، وارتفعت درجة حرارته، ونقل إلى المستشفى ثم أصيب بإلتهاب روماتيزمى، وهنا قرر الطبيب أن يلزم يلتسين الفراش لمدة أربعة شهور وإلا أصيب القلب بالروماتيزم..لكن يلتسين المتمرد دائماً رفض الفكرة شكلاً ومضموناً، وهرب من الطابق العلوى للمستشفى بعد أن صنع من ملاءات السرير حبلاً استخدمه فى الهبوط والهرب من شباك غرفته.

وكان طبيعياً أن يتخرج بوريس يلتسين فى معهد العلوم التطبيقية بتقدير ممتاز.. فقد كان ذكاؤه متوقداً وحماسه زائداً وعقله حاضراً بصفة دائمة.. ونظراً لطبيعة الخلاف والتناقض الموجود فى شخصية يلتسين ونانيا فقد قرر رغم الحب القوى الذى جمع بينهما أن يؤجلا زواجهما لمدة عام واحد حتى يستطيعا أن يقيما مشاعرهما، وتكون موضع اختبار فى هذه الفترة على أن يلتقيا فى العام القادم فى أرض محايدة.. وبالفعل التقيا بعد عام ولكن حرارة الحب كانت قد وصلت النهاية، وقرر بوريس يلتسين على الفور أن يتزوج نانيا لتبدأ معه رحلة الوصول إلى الكرملين.. وفى هذه الفترة عين كرئيس عمال فى اتحاد الأورال

لتصنيع الأنابيب الثقيلة، ثم سرعان ما أثبت نفسه وتفوق في مهام عمله حتى تم تعينه كبيراً للمهندسين في إدارة التشييد بنفس الاتحاد.. وقضى في هذا المنصب ١٤ عاماً اكتسب فيها خبرة كبيرة في مجال التشييد والمقاولات والتخطيط العمراني، ولما ذاع صيته وأصبحت كفاءته محل تقدير واحترام تلقى يلتسين دعوة ليرأس قطاع اللجنة الإقليمية للتشييد في الحزب الشيوعي بمقاطعة سفيردلوفسك، وقد ساعد على هذا الاختيار أن نضوج يلتسين السياسي قد بدأ في الظهور خاصة وأنه كان يشارك في العمل الحزبي بعد ساعات العمل- وكعادته في إثبات نفسه-فلم يمر وقت طويل حتى انتخب سكرتيراً للجنة كلها وبعد عامين ذهب إلى موسكو لحضور دورة في دراسة العلوم الاجتماعية لمدة أسبوعين في أكاديمية العلوم الاجتماعية، وكان يلتسين أنشط المشتركين في هذه الدورة وأكثرهم توقداً وذكاءاً.. وكان يناقش كل صغيرة وكبيرة يسمعها في المحاضرات التي كانت تلقى عليه في الأكاديمية، وعندما قرر المسئول عن الدورة التدريبية أن يقدم تقريراً عن الدورة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وقع اختياره على المهندس بوريس يلتسين ليقدم هذا التقرير الذى نال تقدير واحترام أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، مما جعل بريجنيف مصراً على رؤيته والتعرف على هذا الشاب الذى يسمع أخباره من حين لآخر، ويضرب بذكائه ونشاطه المثل..

وبالفعل ذهب بوريس لمقابلة الرئيس السوفيتي بريجنيف بصحبة اثنين من سكرتيرى اللجنة المركزية وهم كابيتونوف وريابيف، وبعد هذه المقابلة تم تعيين يلتسين سكرتيراً أول للجنة الحزب الإقليمية في سفيردلوفسك في الأورال وهو المنصب الذى يعادل في مصر أمين عام الحزب في إحدى محافظات الجمهورية.. واستمر يلتسين في نبوغه السياسي ونجمه يتصاعد يوماً بعد يوم.. فما لبث أن دفعته طموحاته السياسية إلى المقدمة ويصبح هذا الرجل حديث الحزب الشيوعي كله، بعد أن لفت الأنظار بالأفعال لا بالأقوال وبسياسته البارعة في إدارة لجنة الحزب في سفيردلوفسك..

وفي هذا الوقت تعرف يلتسين على ميخائيل جورباتشوف والذى كان يشغل منصب السكرتير الأول للجنة الحزب في ستافروبول، وهو المنصب الذى يناظر منصب يلتسين في سفيردلوفسك وتوطدت بينهما علاقة حميمة، فقد اتفقا على الأهداف والمبادئ وحلما سوياً بوجه آخر للاتحاد السوفيتي يخرجه من حالة الجمود التي يعيشها لينطلق نحو الانفتاح ولا يصبح قوة عظمة في قدراته التسليحية فقط، ولكن يتعدى الأمر ذلك لتكون له الصدارة أيضاً في الاقتصاد والصناعة والتجارة والدبلوماسية العالمية..

وبعد أن تولى جورباتشوف السلطة أقنع رفيقه يلتسين بأن يترك سفيردلوفسك وأن يحضر إلى موسكو ليشاركه العمل السياسي في العاصمة.. ولكن يلتسين كان متمسكاً بانتمائه إلى هذه المقاطعة، ويرفض أن يتركها بعد أن قضى كل حياته فيها وأنجب كل أولاده

بها وحقق وضعاً سياسياً يؤهله لأن يخوض الانتخابات النيابية.. ولكن ضغوط جورباتشوف كانت أقوى من أن يرفضها يلتسين.. مما جعله يصطحب أسرته إلى موسكو حيث اختاره جورباتشوف لرئاسة لجنة الحزب في موسكو، وعضواً احتياطيا بالمكتب السياسى عام ١٩٨٥ رغم أن جورباتشوف يعلم جيداً أن يلتسين بدأ يعارض بعض سياسات الحزب الشيوعى ويبدو ناقماً عليها وغير راض عن سياسة جورباتشوف نفسه.. ولكن الأخير كان يريد أن يتخلص من فيكتور جرلشين رئيس لجنة الحزب فى موسكو فأعد خطة للإطاحة به ونجح فى تنفيذها، ولم يكن أمامه سوى يلتسين ليشغل هذا المكان.. فهو يثق فيه رغم إختلاف الرأى بينهما فى بعض القضايا الهامة.. ولم يمر شهران حتى أصبح بوريس يلتسين عضواً معيناً بالمكتب السياسى ثم ترقى بسرعة ليصبح عضواً كامل العضوية فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى.. ومنذ ذلك الوقت ذاع اسم يلتسين..، وملأ صيته كل الأذان إلى الحد الذى جعله يفوز بانتخاب عضوية مجلس نواب الشعب عن دائرة موسكو فى شهر ديسمبر عام ١٩٨٥، وهى الدائرة التى لم يكون فيها مستقبله السياسى ولم يكن له رصيد شعبى عند أهالى موسكو كما هو الحال فى سفيردلوفسك.. ولكن يبدو أن سيرته وقوة شخصيته ومبادئه الجديدة التى يدعو لها كانت قد سبقته إلى موسكو قبل أن يترك سفيردلوفسك.

ولكن بوريس يلتسين كان الجواد الجامح على مسرح السياسة فى الاتحاد السوفييتى.. ورفض الخضوع لبيروقراطية الحزب الشيوعى، وهو فى أوج مجده وعنفوانه، وتحدى الزعيم ميخائيل جورباتشوف، وشن هجوماً عنيفاً وفاضحاً ضد الامتيازات التى يحوزها النخبة من قيادات الحزب لأنفسهم خاصة بعد أن اكتشف أنهم يعيشون فى القصور، ويغرقون فى الملذات والمتع وأفراد الشعب يموتون من الفقر والمرض وقسوة السجان الشيوعى.. ولم تسلم البروسترويكا أوحركة إعادة البناء التى تبناها جورباتشوف من نقد يلتسين اللاذع رغم أنه كان مقتنعاً بها ومؤيداً لها ولحركة الجلاستوت، أو المكاشفة والديمقراطية التى كان يدعو جورباتشوف أيضا لها.. وسبب معارضة يلتسين يأتى من إحساسه بأن جورباتشوف يسير بسرعة السلحفاء نحو طريق الإصلاح، وأن هناك بطئاً متعمداً من جورباتشوف فى المضى قدماً لرفع معدل تنفيذ البروسترويكا فى الاتحاد السوفييتى، والتى كان يلتسين يرى أنها المخرج الوحيد للاتحاد السوفيتى من أزماته... ولكن جورباتشوف الذى ضاق زراعاً بيلتسين وهو يشعر بهذا الأسد الجبلى يهدد زعماته ويناطحه القيادة.. قرر أن يطيح ببوريس يلتسين من الحزب والمكتب السياسى ،وأقصاه من رئاسة لجنة الحزب بموسكو عام ١٩٨٧ وقد تسبب ذلك فى إصابته بإكتئاب شديد وهو يرى طعنة الغدر تأتى من رفيق كفاحه والذى حلم معه لحظة بلحظة بميلاد الحرية والديمقراطية وشروق شمسها على أرض الاتحاد السوفيتى.

لكن الشعب المطحون والمكدود لم يسكت..ولم يرض أن تكون هذه هى نهاية الأسود

عندما تثور ضد الفساد.. وبعد عام ونصف أعادت الإرادة الشعبية بوريس يلتسين إلى البرلمان من أوسع الأبواب بعد أن خاض المعركة الانتخابية مستقلاً في مارس ١٩٨٩، حيث حصل على ٨٤,٥٪ من أصوات الناخبين في موسكو محققاً الفوز على منافسه وهو أحد كبار رجال الأعمال ومدير إحدى شركات إنتاج السيارات والذى يحظى بتأييد الحزب الشيوعى وجورباتشوف شخصياً، وقد ذكر وقتها أنه حصل على ثقة ٦ ملايين ناخب، وأن الجامعات والمؤسسات الرسمية والشعبية في الولايات المتحدة الأمريكية عرضت عليه إلقاء عدة محاضرات في أمريكا مقابل ١٢ ألف دولار عن كل محاضرة يلقيها، خاصة بعد أن أصبح المعارض الأول للحزب الشيوعى السوفييتى، والرجل الذى يهدد جورباتشوف في كل لحظة بمنافسته على زعامة البلاد.

ولم يهدأ بوريس يلتسين عن مهاجمته للبروسترويكا البطيئة والجلاسنوت الضائعة في قيود الشيوعية.. بل إشتد هجومه بعنف على جورباتشوف وإيجور ليجاشوف الرجل الثانى في الحزب الشيوعى السوفييتى...

ولم تمر أيام حتى تعرض يلتسين على حد قوله إلى واحدة من أشهر محاولات الاغتيال في تاريخ الزعماء.. بعدما انتهى لتوه من اجتماع مع أهالى دائرته الانتخابية، ثم قرر أن يذهب ليزور صديقاً قديماً له في قرية أوسبيتسكوى.. ولما وصل القرية صرف سائقه وقرر أن يأخذ المسافة سيراً على الأقدام حتى منزل صديقه ليستنشق النسيم الليلى الناعم بعد عناء العمل، وما لبث أن فوجئ يلتسين بسيارة تطارده ثم نزل منها مجموعة من الرجال الأقوياء وأوسعوه ضرباً وركلاً ثم ألقو عليه بشوال كبير غطى كل جسمه وربطوا فتحته بحبل قوى، وهو يصارعهم بشدته وعنفوانه ولكن دون جدوى حتى حملوه داخل الشوال وألقوا به في نهر «مسكفا على حد قوله في مذكراته التى نشر فيها سيرته الذاتية بعنوان Against The Grain أو «ضد مزاج الفرد» حيث أكد أنه استطاع أن يتخلص من الشوال قبل أن يسقط في الماء وأخذ يسبح ويصارع دوامات النهر وسط البرودة الشديدة حتى وصل إلى إحدى ضفتيه.. ثم وصل إلى مقر الشرطة وقد بدأ عليه إعياء شديد، وفي قسم الشرطة تعرف عليه الضباط بسهولة وأعطوه ملابس جديدة وبطاطين ليحمى بها نفسه من البرد القارس، ورغم أن يلتسين يتهم في مذكراته الحزب الشيوعى بتدبير هذه المحاولة لاغتياله، إلا أنه رفض أن يقوم الضباط بقسم الشرطة بالكشف عن شخصيته أو إبلاغ أحد المسئولين.. ولكن وزير الداخلية السوفييتى في ذلك الوقت أنكر هذه القصة ونفاها تماماً وأكد أنها من وحى يلتسين لاستدرار عطف الشعب نحوه...

ووقف يلتسين يقول في مؤتمر شعبى حاشد إن آلهة الحزب الشيوعى لن تهرب من مصيرها، ولابد أن يأتى اليوم الذى يواجه فيه هؤلاء الزبانية حساب الشعب، بل إن بعضهم بدأ يواجه الحساب فعلاً بعد الاخفاقات التى حققها الحزب.. واستجاب الناس لحملات

يلتسين لحشد تأييدهم حتى فاز برئاسة جمهورية روسيا فى ١٦ مايو ١٩٩٠.. وسوف نتأكد من مدى القلق والتوتر الذى سيطر على قادة الحزب الشيوعى وجورباتشوف بصفة خاصة والذى كان عائداً لتوه من قمة أمريكية سوفيتيه بالولايات المتحدة الأمريكية مع الرئيس الأمريكى جورج بوش.. إذا عرفنا أن جمهورية روسيا التى فاز يلتسين برئاستها تمثل نصف مساحة الاتحاد السوفيتى تقريباً ويعيش فيها ٥٢٪ من سكانه وتتركز بها المراكز الصناعية ومناجم الثروات والبترول..

ولم يوقف بوريس يلتسين ما أبداه جورباتشوف ورفاقه من غضب وتكشير عن أنيابهم فقد كان لهذا الأسد الجبلى أنياب أقوى من أنياب جورباتشوف وأظافر أكثر حدة من أظافر عواجيز الحزب الشيوعى.. وقاعدة شعبية حقيقية تضاعفت بعد أن نادى يلتسين بإنهاء زعامة الحزب الشيوعى للبلاد، وطالب بتعدد الأحزاب وحرية التعبير عن الرأى.. وقد ساهمت هذا الشعبية الطاغية التى حققها فى فوزه برئاسة مجلس السوفييت الأعلى (البرلمان) فى شهر يونيو عام ١٩٩٠ بعد حصوله على ٥٣٢ صوتاً من أصوات مؤتمر الشعب الروسى الأول والبالغ عددها ١٠٦٠ صوتاً..

ويبلغ تأثير بوريس يلتسين على الشعب أقصى مداه فى الاضطرابات التى حدث فى أغسطس ١٩٩١، ويبدو كما لو كان ساحراً ضليعاً فى سحره الذى يسيطر به على جماهير الشعب ويحدد اتجاهها، وفى نفس الوقت ظهر كأن لسان حاله يقول لجورباتشوف: أننى الرجل الأقوى فى هذه الدولة العظمى.. وأستطيع أن أحمى كرسيك الذى لا تستطيع أن تحميه وأنت رئيس إحدى القوتين العظمتين فى العالم....، وقتها قاد مجموعة من الانقلابيين تمرداً ضد جورباتشوف وانقلبوا عليه وساعدهم فى ذلك بعض قوات الجيش التى خرجت بدباباتها لتحيط الكرملين ومقر البرلمان ومقر الإذاعة والتليفزيون والوحدات والمؤسسات الحيوية فى موسكو، ووصلت إلى يلتسين الأنباء بأن الإنقلابيين قد إعتقلوا جورباتشوف بجزيرة القرم، وأنه قد استسلم لهم ووافق أن يتخلى عن السلطة.. فخرج بوريس يلتسين فى ملحمة نضالية سيذكرها التاريخ كثيراً إلى الانقلابيين ووقف فوق إحدى دباباتهم وجموع الشعب المسحور به تلتف حوله ليقول لقادة الإنقلاب: تستطيعون أن تأتوا إلى السلطة من فوق الدبابات ولكن لن تستطيعوا الجلوس طويلاً داخل برج الدبابة، إن الاشتراكية لا تصنع بالدبابة والدبابة لا يمكن أن تخيفنا ونحن الذين دفعنا ثمنها من عرقنا وكدنا وكان ينبغى على الانقلابيين أن يستخدموا الدبابات لحماية الشعب من أى عدوان خارجى أو تهديد أجنبى ولكنهم قلبوا الأمر وأطلقوا الدبابات إلى الشوارع والميادين لكى ترهب الشعب وتروعه،.... واستدار يلتسين لجموع الشعب وطلب منهم أن يجعلوا أجسامهم سياجاً تقف فى وجه الدبابات لكى تصبح كل دبابة مثل البطة العرجاء..وهكذا تحول جنود وقادة الإنقلاب إلى أسرى داخل دباباتهم وانهزم الإنقلابيون واستسلموا أمام

الرجل الأعزل الذى لا يملك سلاحاً سوى إرادة الجماهير وذلك بعد ٦٠ ساعة فقط من وقوع الإنقلاب . .وأمر بنفسه أن يُفك اعتقال جورباتشوف الذى أطاح به وخذله من قبل.

وترك جورباتشوف الحكم بعد أن قدم أعظم الخدمات إلى الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن يرحل . . فلقد فكك الاتحاد السوفييتي إلى دويلات صغيرة وأنهى الوحدة السوفييتية التي كانت القوة العظمى الأولى التي تواجه قوة الولايات المتحدة الأمريكية وبدد آلاف الرؤوس النووية في دول حلف وارسو . . وأطلق الرصاص من مسدسه على الشيوعين والحزب الشيوعي السوفييتي الذى كان يوماً زعيماً وقائداً له . . وأصبح بوريس يلتسين هو الرمز الحقيقي لجموع الشعب والمتحدث الرسمي بإرادتهم خاصة وأنه يحكم أكبر جمهوريات الاتحاد السوفيتي المفكك . . ، وكان يلتسين يعمل أكثر من ٢٠ ساعة يومياً فضلاً عن التزامه الشديد بالدقة والنظام وتمسكه بأرائه ومبادئه وحماسه فى الدفاع عنها .

يلتسين يتحول إلى النقيض

والمثير للدهشة فى شخصية يلتسين أنه تحول للنقيض تماماً بعد أن تمكن من فرض سيطرته وسياساته على البلاد . . وبلغ هذا التحول حداً غير عادى يفوق تصور العقل والمنطق . . فهذا الأسد الجبلى النازح من جبال الأورال ذات الطبيعة الخشنة تحول إلى دب روسي سمين . . ، وهذا المدافع الأول عن الحرية والديمقراطية والعدالة والرخاء كان أول من وأد الديمقراطية واخترق الدستور وكشر عن أنيابه ليصفع الحريات على وجهها ويدخل بالبلاد إلى حالة من الاقتصاد المتردى والمتهالك والذى هوى بروسيا إلى القاع لتبدو كما لو كانت تلفظ آخر أنفاسها . . وفى أواخر أيامه اتهم بالفساد والرشوة مع ابنته تاتيانا التى كان يثق فيها ويضعها فى منصب مستشاره الخاص، ورئيس الجهاز الإدارى بالكرملين ويترك فى يدها كثير من الصلاحيات وسلطات التصرف، ولكنها فى النهاية غرقت مع أبيها فى فضيحة «مابيتيكس» وهى الشركة السويسرية التى تولت أعمال تجديد مقر الكرملين وغيره من المبانى والقصور الرئاسية ، وثبت أنها تورطت مع أبيها يلتسين فى تقاضى رشوة لترسية أعمال الإصلاحات على هذه الشركة . . وقال مدير هذه الشركة : إن يلتسين وابنته تاتيانا أنفقا ما يقرب من ٨٧ ألف دولار على مدى ٤ سنوات باستخدام بطاقات الائتمان التى منحتها لهم الشركة مقابل ترسية أعمال الترميم والتجديد والإنشاءات لصالح شركته . . . بخلاف أن الأوراق الرسمية والفواتير تؤكد أنه أنفق على ترميم الكرملين ٢٥ مليون دولار وهو رقم غير حقيقى ومبالغ فيه بشكل كبير على حد قول مدير الشركة السويسرية . . . ، ولم تقتصر قضايا الفساد التى اتهم بها يلتسين عند هذا الحد فقط . . فقد احترفت عائلته لعبة توظيف الأموال لاغتصاب الثروات كما تم إدراج إبنتيه تاتيانا وإيلينا فى قضايا فساد ورشوة على أرض سويسرا .

وفي ٣١ أكتوبر ١٩٩٩ أدلى بافيل بورودين المدير السابق لمكتب الكرملين - وهو مكتب تابع للرئيس يلتسين - بحديث لشبكة تليفزيون روسية أكد فيه أن الكرملين في عهد يلتسين - كان يتحكم في أصول قيمتها ٦٥٠ مليار دولار.. وأن المكتب الذى كان يرأسه يدير ٦٠ شركة منفصلة من بينها ١٠ شركات للمقاولات و٨ مزارع ومصنع واحد للأثاث و١٠٠ مصحة ودار إيواء وفندق بريزدنت في موسكو وهو فندق الصفوة والرؤساء بالإضافة إلى العديد من الفنادق المنتشرة في البلاد وقال بافيل بورودين أن يلتسين أمره بصرف عائد هذه المشاريع على حملته الانتخابية الأخيرة.

وقد قام يلتسين أكثر من مرة بتقويم راتبه بزيادات طردية مستمرة كما أنه تملك ملكاً شخصياً أربعة استراحات ريفية منها واحدة تقع على البحر الأسود، وتحت إمرته طائرة بوشن ٩٦ تتكلف ٤٢ ألف دولار لكل ساعة طيران.. وأن هناك قوة مكونة من ٦٥٠ فرداً تحميه في كل تنقلاته وتحركاته.

وفي مارس ١٩٩٩ فجر الجنرال الكسندر كورجاروف الحارس الشخصي السابق للرئيس يلتسين وكاتم أسراره لأكثر من عشر سنوات فضيحة كبرى هزت الأوساط السياسية في روسيا وخارجها، حين أكد تورط يلتسين في العديد من العلاقات الغرامية غير المشروعة، وأنه إذا كانت مونيكا لوينسكي، إمرأة واحدة هزت البيت الأبيض بواشنطن فإن في موسكو أكثر من مونيكا في حياة يلتسين.. وفي تصريحات نشرتها صحيفة بارلمانت سكايا الروسية أكد الحارس الخاص أن يلتسين كان يمنح عشيقاته الشقق السكنية التي تمتلكها الدولة مقابل إقامة علاقة غرامية معهم.

وفي عهد يلتسين كان خرق الدستور والقوانين واضحاً.. وأطاح الدب الروسي السمين بكرامة البرلمان أكثر من مرة، وكلما أصدر قانوناً لا يلائم يلتسين كان يهدد بحل البرلمان.. حتى ثار البرلمان عليه في مارس ١٩٩٣ وأجرى محاولة فاشلة للإطاحة به، لكن يلتسين لم يكن مستعداً للتخلي عن السلطة ولا سيما بعد أن أيده الشعب في استفتاء رسمي.. ولكن المعارضة كانت قد ضيقت الخناق حوله بالإضافة إلى أنه وصل لأقصى درجات الضجر والغضب من معارضيه في البرلمان فأصدر قراراً في ٢١ سبتمبر عام ١٩٩٣ بحل البرلمان وكان هذا القرار غير دستوري، ولا يستند لأى أسباب قانونية، ولكنه اتخذه بحذر في منتجع خارج موسكو مع وزير دفاعه بافيل جراتشيف والعديد من مستشاريه، ولكن النواب رفضوا تنفيذ القرار واعتصموا داخل البرلمان وأقاموا المتاريس، وتجمع حولهم المؤيدون والقناصة التابعون وتعهدوا بحماية مبنى البرلمان من يلتسين وقواته، وكان بادياً عليهم الإصرار وأنهم لن يتراجعوا مهما كانت التضحيات وظل جراتشيف يطمئن يلتسين ويخفف من قلقه، ويؤكد له أن كل شيء مخطط وأن قواته على أهبة الاستعداد.. وعاد يلتسين سريعاً من منتجعه إلى الكرملين وثارت ثورته عندما عرف أن قوات الكرملين ذهبت لتحمي وزارة

الدفاع وقال: المفروض أن تحمى هذه القوات الرئيس.. وظلت الأمور معلقة بعض الوقت حتى قام أحد القناصة التابعين لقادة التمرد بإطلاق النار على أحد الجنود فأسقطوه قتيلاً.. وهنا وجد يلتسين المبرر لإقتحام مبنى البرلمان.. بل أكثر من ذلك فقد قذفه بوابل من دانات مدافع الدبابات، واستطاع أن ينهى الاعتصام وأن تقتاد قواته حسبالالاتوف والكسندر روتسكووى قادة التمرد إلى سجن ليفورتوفو.. وبعدها أقام يلتسين حفلاً ضخماً شرب فيه نخب الانتصار، ورقص حتى الصباح وهو لا يعرف أن الأرض التى يرقص عليها مليئة بأشلاء جثث الضحايا ودماء شهداء الدفاع عن القانون والدستور والمبادئ، وهى التى كان يلتسين يدافع عنها فى يوم من الأيام وكاد أن يفقد حياته غريقاً فى نهر مسكفا، مناضلاً من أجلها على حد قوله فى مذكراته.

وحاول يلتسين كثيراً أن يخترق القانون، فقد حشد مستشاريه ليبحثوا له عن مخرج يجعله يحتفظ بالرئاسة لأطول فترة ممكنة وتفتق ذهن مستشاريه عن عدم الاعتداد بفترة الرئاسة الأولى لأنها بدأت فى ظل النظام الشيوعى السابق، ولكن البرلمان وقف له بالمرصاد وأوضح أن الدستور ينص على فترتين رئاستين مهما إختلفت الأنظمة.. وفكر يلتسين أن يعلن الوحدة مع روسيا البيضاء للتحايل على الدستور والفوز بفترة رئاسية ثالثة.. وبدأ بالفعل يعد لهذا الاتحاد ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهى السفن.

ومنذ بداية الدورة الأولى لرئاسته اندلعت ثورة الشيشان وقابلها بمنتهى الوحشية فى استخدام الآلة العسكرية ضد الإنسان الذى يدافع عن قضيته ودينه وهويته.. وبعد يومين من استقالته نشرت مجلة نيوزويك أنه ربما تكون هناك علاقة بين يلتسين وعملية تسييل أموال فى ١٢ حساباً مصرفياً ببنوك سويسرا، خاصة بعدد من رجال الأعمال الروس والأجانب وتبلغ فى مجموعها ١٥ مليون دولار، ثم قررت الحكومة السويسرية أن تجمد هذه الحسابات لحين انتهاء التحقيق بشأنها.

ولم يكن بوريس يلتسين يفارق زجاجة الفودكا.. فقد كان سكيراً على الدوام وكانت صحته أشبه بورقة ذابلة سقطت من فرعها ولن تعود إليه أبداً لذلك لا يمكن أن تحيا من جديد.. وأمام حالة الغضب التى بدأ يواجه حدتها خاصة بعد أن عرف الشعب حقيقة يلتسين الذى نادى بما لا يطبق، وثار على الشمولية الشيوعية من أجل شموليته الخاصة..، لم يجد بداً من ترك الحكم، ولكنه كان يخشى أن يحدث معه ما حدث مع شاوشيسكو فى رومانيا.. ولذلك ناور من أجل ترك الحكم بأقل الخسائر فى صفقة سياسية قال عنها المحللون أنها انقلاب هادئ أراد به يلتسين أن يحتفظ بالسلطة وهو خارج الكرملين، ولم يكن أمامه سوى رئيس وزرائه وتلميذه النجيب فلاديمير بوتين ليتنازل له عن الحكم فى هدوء طبقاً للدستور الذى يقضى بأن يتولى رئيس الوزراء منصب الرئيس فى حالة استقالته حتى إجراء أول انتخابات رئاسية.

ولا شك فإن بوتين كان له شعبية لا يستهان بها وكان مرشحاً للفوز بانتخابات الرئاسة إذا ما فكر في خوضها، وهذا ماحدث بعد ذلك ووافق بوتين على صفقة يلتسين والتى طلب أن تصدر بمرسوم رئاسى لحين إقراره كقانون يتطلب التصديق عليه من البرلمان الروسى (مجلس الدوما) وكان هذا المرسوم يضمن لبوريس يلتسين ضمان نقدى شهرى مدى الحياة يقدر بـ ٧٥٪ من مرتب رئيس روسيا الاتحادية وحراسة شخصية مدى الحياة في أماكن وجوده الدائمة والمؤقتة بموجب كل الإجراءات التى ينص عليها القانون الاتحادى حول الحراسات الحكومية بما فى ذلك توفير أجهزة الاتصالات الخاصة، وسبل المواصلات.. ويتضمن المرسوم أيضاً احتفاظ يلتسين وأسرته المقيمة معه بحق التمتع بالخدمات الطبية التى كان يتمتع بها حتى لحظة توقفه عن القيام بمهامه، والتأمين الإجبارى على حياته وصحته خصماً من مصروفات الميزانية العامة للدولة بقيم تعادل المرتب السنوى لرئيس روسيا الاتحادية، وأيضاً شملت بنود الصفقة حق يلتسين فى الاحتفاظ بحصانته وعدم محاسبته جنائياً أو إدارياً وعدم احتجازه أو إعتقاله أو تفتيشه أو مسائلته بالإضافة إلى حق توظيف طاقم من المساعدين على حساب الميزانية العامة للدولة..

وتمت الصفقة.. ووقع فلاديمير بوتين على المرسوم الرئاسى بحماية يلتسين وتسلم منه مقاليد الحكم وسلطان الرئاسة ونجا يلتسين من مقصلة الشعب والمعارضين باستقالته فى ٣١ / ١٢ / ١٩٩٩ وهو يطلب من شعبه عبر شاشات التليفزيون أن يصفح عنه لأنه لم يستطع أن يفعل له ما يريد.

رحلة يلتسين مع المرض

كما ذكرت فى بداية حديثى عن الرئيس بوريس يلتسين أنه الرجل الذى كان يستطيع أن يقود الاتحاد السوفييتي لو بقى إلى اليوم دون انهيار أو تفكك وبشرط ألا يتعرض يلتسين لحملة الأمراض المستعصية التى أثرت بلا شك على قراراته.. ويمكننا القول بأن يلتسين هو رئيس الدولة الذى ينطبق عليه مقولة «ذهب عقله ثمناً للمرض وإدمان الفودكا»، والمعروف أن يلتسين فقد أصبعى الإبهام والسبابة فى يده اليسرى منذ طفولته عندما عبث بقنبلة يدوية ودمرها بمطرقة فإذا بالقنبلة ترد الصفعة فى عاهة مستديمة أثرت على نفسية يلتسين طوال حياته فظل يخفى يده اليسرى دائماً فى جيب بنطلونه حتى يبعد الأنظار وكاميرات المصورين وعيون الناس عن عاهته، كما أن الرئيس يلتسين قد تعرض مراراً أثناء طفولته وشبابه إلى حمى روماتيزمية وإحتقان اللوزتين، ودخل فى إحدى هجمات المرض الشديد إلى مستشفى القرية وأضطر أن يقيم بها أربعة شهور لخوف الأطباء من انتقال المرض إلى قلبه ولكنه تمكن من الهرب بخطة ذكية.

وخلال فترتى حكم يلتسين ساءت حالته الصحية جداً ويقول حارسه الخاص ألكسندر

كورزاكوف في مذكراته: أنه كان على طائرة الرئيس يلتسين في رحلة العودة من واشنطن إلى موسكو، وفوجئ بأن زوجة يلتسين تدخل عليه استراحته وتوقظه من نومه وتقول له: بوريس وقع وبلل نفسه.. استيقظ ليذهب للحمام لكنه يرقد هناك الأن.. وطلب منها الحارس الشخصي أن تستدعي أطباءه فوراً، وذهب إليه فوجده ملقى بجسده الثقيل على أرض الحمام، وفشل في حمله فاضطر إلى سحبه جراً على الأرض من أرضية الحمام وحتى حجرة نومه ثم، رفعه على سريره بمساعدة الأخرين وكان واضحاً أنه أصيب بأزمة قلبية وهو يواجه الموت.. وبسرعة شديدة تدخل أطباءوه وحاولوا إنقاذه وكان من المفروض أنه سيجرى مباحثات لمدة ٤٠ دقيقة مع رئيس وزراء إيرلندا في طريق عودته إلى موسكو والذى كان ينتظره في المطار.. وصرخ يلتسين في أطبائه: اجعلوني أبدو طبيعياً وإلا أذهبوا للجحيم.. وكان مرتدياً ملابسه الداخلية فقط فطلب ملابسه الخارجية ليستعد للمحادثات، ولكن حارسه الخاص على حد قوله يذكر أنه منعه، ولكن بوريس أصر على النزول لمقابلة رئيس وزراء ايرلندا بعد أن توقفت الطائرة تماماً على أرض المطار، وما يكاد يلتسين أن يفكر فى القيام ليرتدى ملابسه حتى يسقط مرة أخرى هاوياً على فراشه وقال له حارسه: لن أتركك تنزل من الطائرة مهما كان الثمن، فقال له يلتسين الذى كان ثملاً: الحقت بي العار أمام العالم كله بما فعلته.. فرد حارسه الخاص وصديقه المقرب: أنت الذى كدت أن تلحق بنفسك وبروسيا العار. وكانت هذه الواقعة في أكتوبر ١٩٩٤ على أرض مطار شانون بأيرلندا، حيث كان رئيس وزرائها ألبرت رينولدز في انتظاره.. وذكر هذا الحارس أيضاً أنه قبل هذه الواقعة كان كلينتون يودع يلتسين في حفل أقامه له في واشنطن، وظل يلتسين يشرب كافة أنواع الخمور حتى فقد وعيه، وبدأ يهزى بكلام خارج ونكات بذيئة، وترنح كثيراً، وكاد أن يسقط أكثر من مرة، وشعر الرئيس كلينتون بكثير من الحرج أمام ضيوفه الذى دعاهم على شرف بوريس يلتسين، وفى ٢٥ فبراير ١٩٩٥ شعر يلتسين لأول مرة بآلام شديدة بظهره وعموده الفقرى وقد نصحه أطباؤه بالخضوع لنظام دوائى يعتمد على المسكنات ومضادات الالتهاب.

وفى ١٤ يوليو عام ١٩٩٥ نُقل إلى المستشفى المركزى بسبب اضطرابات بالقلب وارتفاع حاد بضغط الدم وقام أطباؤه بالسيطرة على الموقف ومراقبة اضطرابات القلب بغرفة العناية المركزة حتى تماثل للشفاء وخرج من المستشفى في ٢٥ يوليو عام ١٩٩٥ متوجهاً إلى إحدى المصحات خارج العاصمة الروسية، وبعد ١٢ يوماً عاد لإجراء فحوصات طبية ومعملية بالمركز الطبى بموسكو، وفى ٢٧ أكتوبر ١٩٩٥ كان مجلس الدوما يناقش سحب الثقة من الرئيس يلتسين، وقد أثار ذلك غضبه وانفعاله فأصيب بأزمة قلبية حادة شخصت على أنها جلطة بشرايين القلب التاجية، وتم نقله إلى المستشفى المركزى بموسكو، وفى اليوم الثانى صرح أطباؤه بأنه يعانى من صعوبات فى تدفق الدم من القلب، وانتشرت الإشاعات بوفاة

يلتسين إلى الدرجة التى جعلت النائب باتريك كومارك عضو مجلس النواب البريطانى أن يعلن أثناء عقد جلسات المجلس وفاة بوريس يلتسين، وقد عقدت نانيا يلتسين زوجة الرئيس لقاءاً صحفياً فى ذلك الوقت انتقدت فيه هذه الإشاعات المغرضة التى يروجها أعداء زوجها ومعارضوه.

وفي نوفمبر ١٩٩٥ عاد يلتسين إلى المستشفى المركزى بموسكو مرة أخرى لإصابته بأزمة قلبية جديدة، واضطراب فى ضربات القلب، ولكنه تماثل للشفاء سريعاً وأثناء المعركة الانتخابية الرئاسية الثانية فى عام ١٩٩٦ أصيب يلتسين بأزمة قلبية حادة مرة أخرى، وفى ذلك الوقت أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية اثنين من أبرز خبرائها فى الدعايا الانتخابية لا لكي يروجا لانتخابه ولكن لكى يحجبا عن الرأى العام الروسى حقيقة حالته الصحية وأيضاً ليقنعاه أن يؤدى أمام الرأى العام رقصة الدببة التى لا يقدر عليها سوى شخص يعيش بقلب سليم، ولكن يلتسين اقتنع بأدائها وأصر على ذلك وقام بأداء الرقصة بقلب مصاب بالجلطة وانسداد بالشرايين التاجية، وفور إعلان النتيجة وفوزه بمنصب الرئاسة لفترة ثانية شرب عشرات الأنخاب التى لا يقدر على احتوائها سوى دب روسى سمين. وكان يلتسين مسرفاً إلى حد كبير فى شرب الخمر والكحوليات وتجرع الفودكا الروسية والنبيذ الفرنسى والجين الإسكتلندى والمارتينى الإيطالى بكميات غير عادية حتى أنه كثيراً ما كان يغيب عن الوعى ولا يستطيع أن يمارس مهام عمله كرئيس لدولة مهمة وقد كلفه سكره هذا كثيراً عندما دخل ذات مرة مكتبه وهو ثمل وعندما مر بإحدى سكرتيراته قام بقرصها من وسطها وأمسك بمؤخرتها وسط اندهاش جميع مستشاريه ومساعديه وقد استطاع أحد مصورى الصحف أن يصور هذه الواقعة وينقلها إلى صحف العالم حيث إستاء الرأى العام العالمى من ذلك العجوز المتصابى بوريس يلتسين.

وفى بداية فترة رئاسته الثانية بدأ الأمر يتفجر، ويبدو واضحاً أمام المتابعين لصحة يلتسين على شاشات التليفزيون والمحطات الإخبارية العالمية، ففى مارس ١٩٩٦ انعقدت قمة شرم الشيخ وحرص بوريس يلتسين على حضور القمة وأصر على إلقاء كلمة إضافية لم يكن معداً لها من قبل وعندما انتهى منها سقط متكئاً على أكتاف مساعديه على مرئى ومسمع من العالم كله الذى يتابع المؤتمر من خلال الأقمار الصناعية وعلى الفور حمله مساعدوه إلى طائرته وانطلقوا به إلى موسكو.. وعلى الفور تم إدخاله المستشفى المركزى بموسكو حيث أكدت تقارير الأطباء أنه يعانى من قصور شديد فى الشرايين التاجية التى تغذى عضلة القلب، وقصوراً فى وظائف الكبد والكلى والرئتين، وتضخماً شديداً فى البروستاتا والتهاب فى الأذن الوسطى يسبب له الغثيان والصداع المستمر وارتفاعاً حاد بضغط الدم..وقد اجتمع حوله كونسولتو من أشهر أطباء العالم فى جراحة القلب جاء ثلاثة منهم خصيصاً من الولايات المتحدة الأمريكية وعلى رأسهم جراح القلب العالمى مايكل دبيكى وهو من أصل

لبنانى وكان يبلغ وقتها من العمر ٨٨ عاماً، كما أرسل المستشار الألمانى - فى ذلك الوقت - هيلموت كول بإثنين من كبار جراحى القلب فى ألمانيا الإضافة إلى اشتراك نخبة كبيرة من أشهر أخصائى القلب فى روسيا، وقد اتفقوا جميعاً على أن حالة الرئيس الصحية حرجة للغاية وأنه يحتاج لجراحة عاجلة لإنقاذ حياته، واستبدال الشرايين التاجية المصابة بالإنسداد بنسب مختلفة بوصلات شريانية ووريدية جديدة، وبالفعل تم إجراء الجراحة بنجاح كبير، واستأنف يلتسين حياته من جديد، ولكنه كان يعود إلى المستشفى من وقت لآخر، ويخرج منها لقضاء النقاهة فى إحدى المصحات، ويبدو أن أزمات القلب كانت تعاوده من حين لآخر مرة أخرى، وأن الجراحة لم تضع حداً لآلام قلب الرئيس يلتسين، ولكن فى كل مرة كانت التقارير الرسمية تتفاوت ما بين الإصابة بنزلات البرد والأنفلونزا وهبوط فى ضغط الدم.

وفى ١٢ يناير ١٩٩٧ أعلن سيرجى ميرونوف كبير أطباء الكرملين أن الرئيس بوريس يلتسين مصاب باكتئاب شديد بسبب نوبات المرض التى كانت تعاوده من حين لآخر رغم إجراء جراحة القلب وبسبب تكرار إصابته بالالتهاب الرئوى الذى أضعف جهازه التنفسى بصورة ملحوظة...، ولا شك أن هذا التصريح الشائك على لسان كبير أطباء الكرملين قد آثار جواً من البلبلة والتشكيك فى قدرة الرئيس يلتسين فى الاستمرار فى الحكم وهذا ما دعا فيكتور تشيرنومردين رئيس وزراء روسيا فى ذلك الوقت لأن يدفع بالشك فى مدى صحة الرئيس وامكانية ممارسة مهامه الرئاسية ويؤكد من خلال اقترابه منه أنه لم يعد مؤهلاً لقيادة البلاد..

وفى ٢ مارس ١٩٩٧ نشرت إحدى الصحف الروسية أن يلتسين يعالج علاجاً روحياً على يد المعالجة الروحية جوانا، والتى عالجت من قبل الرئيس بريچينيف، وذكر أن يلتسين بدأ يستجيب من الناحيةالنفسة للعلاج الروحى وأنه يتعاطى مجموعة من العقاقير الطبية المنشطة والمستخلصة من الحيوانات الثديية عن طريق الحقن فى محاولة للتماسك وإثبات قدرته الصحية.

وفى ١٢ ديسمبر ١٩٩٧.. نقل يلتسين مرة أخرى إلى مستشفى موسكو المركزى إثر شعوره بآلام حادة فى الصدر، وتبين فى المستشفى أنها أزمة قلبية جديدة، وقد قام أطباء الرئيس بالسيطرة الفورية على الأزمة القلبية التى أصابته بالعقاقير والأدوية، وقد أظهرت رسومات القلب والتحاليل المعملية التى أجراها الأطباء أن الرئيس تعرض لتقلص شديد فى الشرايين التاجية نتيجة قصور فى دورتها الدموية، وبمجرد تماثله للشفاء فضل كعادته أن يقضى فترة نقاهة فى المصحة الريفية بارفيجا، وأعلن فالنين يوماشيف رئيس إدارة الرئاسة بالمصحة أن الرئيس مصاب بنزلة برد وكان هذا على غير الواقع والحقيقة، وفى الاتحاد السوفييتى القديم كانت جملة «نزلة برد» عبارة عن مصطلح يعنى قرب الوفاة، فقد أصيب الزعيم السوفييتى بريچينيف بمرض خطير أدى بعد ذلك إلى وفاته، ووقتها قال أطباؤه أنه

مصاب بنزلة برد..، وقالوا أيضاً أن قوسطانطين تشرنينكو مصاب بنزلة برد ثم اختفى بعد ذلك، وكذلك أكدت النشرات الطبية الصادرة عن صحة يورى أندروبوف رئيس جهاز الاستخبارات السوفييتية كي.جي.بي أنه مصاب بنزلة برد ثم مات في غضون أسابيع قليلة بعد صدور هذه النشرة.

وخلال شهر أكتوبر عام ١٩٩٨ قام يلتسين بزيارة إلى جمهورية قازخستان، وأبدى مجهوداً غير عادى فى زيارتها مما إضطره لقطع زيارتها بناء على إصرار الأطباء الذين لاحظوا عليه الإعياء الشديد، خاصة بعد أن بدأ يشكو من آلام بالصدر وضيق شديد بالتنفس أدى إلى مرور يلتسين بحالات إغماء يرجع السبب فيها إلى نقص الأكسجين بالدورة الدموية نتيجة وجود خلل فى وظائف تبادل الغازات بجهازه التنفسي، وصرح طبيبه الشخصي بأن يلتسين يعاني من إلتهاب رئوى وسيتم علاجه بالمضادات الحيوية فى منزله دون الحاجة إلى دخول المستشفى، وفى نفس الوقت قام يلتسين بنقل سلطاته إلى رئيس وزرائه فى ذلك الوقت يفجيني بريماكوف مما يجعلنا نشك أن مرض يلتسين لم يكن متعلقاً بإصابته بالتهاب رئوى ولكن يبدو أن الأمر كان أكثر مما صرح به طبيبه الشخصي.

وفى زيارة أخرى لبوريس يلتسين إلى أوزبكستان كان يبدو وكأنه فاقد الذاكرة ولا يدرك أنه خارج روسيا فى زيارة رسمية لدولة أخرى، وقد تحدث مع مساعديه بشكل عنيف وبغضب شديد أمام أعضاء حكومة الدولة المضيفة عن تأخرهم عن موعد اجتماعهم به، كما لو كان يوبخهم فى قصر الكرملين.. وقتها قالو أنه قد بدأ يفقد الذاكرة وذكرت مصادر طبية أن بوريس يلتسين قد أصيب بمرض الزهايمر الذى يؤدى فى النهاية إلى فقدان المريض لذاكرته تماماً فيصبح غير مدرك لمن حوله حتى أقرب المقربين من أفراد أسرته، وخلال شهر نوفمبر ١٩٩٨ ألغى يلتسين برنامج زيارته لماليزيا لحضور منتدى التعاون الاقتصادى لدول آسيا والمحيط الهادى وسط تكهنات حول ارتباط ذلك القرار بتدهور حالته الصحية، خاصة وأنه أوفد يفجيني بريماكوف على رأس وفد البلاد إلى العاصمة كوالالمبور يومى ١٧،١٦ نوفمبر لحضور جلسات المنتدى..

وفى أول يناير عام ١٩٩٩ العام الأخير فى رئاسته أصيب يلتسين بنزيف وقئ دموى نتيجة إصابته بقرحة نازفة فى المعدة وكالعادة انتقل إلى مستشفى موسكو المركزى وقام أطباؤه بعمل أشعة ملونة على معدته لمعرفة سبب القرحة، ولكن ديمترى باكوشكين المتحدث الرسمى باسم الكرملين أعلن أن الرئيس لم يفوض أحداً فى نقل سلطاته إليه، وأنه تم عمل منظار على المعدة لبوريس يلتسين لسحب عينة من نسيج المعدة لفحصها خلوياً معرفة احتمال التدخل الجراحي من عدمه.. وذكر ديمترى باكوشكين أيضاً أن يلتسين قرر تأجيل زيارته إلى فرنسا يوم ٢٩،٢٨ يناير لمقابلة الرئيس شيراك وعقد مباحثات ثنائية معه إلى أن تم تحديد موعد آخر فى ٢١ من الشهر نفسه ذكر نيكولاى بورديما رئيس الإدارة

الصحية بالكرملين أحالة يلتسين لن تحتاج إلى تدخل جراحى..

هكذا قضى بوريس يلتسين فترة رئاسته الثانية فى التردد على المستشفيات والمصحات ومركز التأهيل.. وأن المرض لم يتركه يوماً واحداً إلا وكان ضيفاً ثقيلاً على حياته وعلى فكره وقراراته.

يلتسين.. الرجل الذى فقد عقله!!

فى مذكراته الشخصية «ضد مزاج الفرد» ضحك يلتسين على الزعيم السوفييتى الشهير ليونيد بريچينيف، وقال عنه أنه فى المرحلة الأخيرة من حياته أنه لم يكن لديه رأى شخصى أو فكرة عن ما يفعله، أو يوقع عليه أو يقوله.. واستشهد يلتسين بحكاية بريچينيف ومترو الأنفاق فى سفيردلوفسك، وقال عن هذه القصة: أنه ذهب إلى ليونيد بريچينيف ليستأذنه فى السماح له بإعداد خطة لإقامة مترو أنفاق فى مقاطعة سفيردلوفسك التى كان يعيش فيها فى ذلك الوقت ٢ مليون و ٢٠٠ ألف نسمة ولكن شعر من الحديث مع بريچينيف بأنه لا يفهم شيئاً ولا يدرك ما بقوله وعندما شعر بريچينيف بأنه لا يستطيع أن يشحذ تركيزه مع يلتسين قال له: ماذا ينبغى أن أكتب؟. فأملاه يلتسين صيغة الموافقة على مشروع مترو الأنفاق..

وكما تدين تدان!! وما أشبه اليوم بالبارحة!!! وكما قال يلتسين مقولته عن بريچينيف، فقد قالت الدنيا كلها مقولتها عن بوريس يلتسين، ولم يترك خصومه فرصة إلا ولوحوا له بضعفه، وشهروا بمرضه وأنه أصبح شخصا آيلاً للسقوط.. وما أكثر ما أكد قادة المعارضة الروسية رغبتهم فى خلع يلتسين المريض، مؤكدين عدم قدرته على إدارة شئون البلاد بالرغم من أنه فى ذلك الوقت كان قد أحال معظم سلطاته إلى رئيس وزراءه يفچينى بريماكوف.. كما أكد زعيم الحزب الشيوعى المعارض جينارى زيوجانوف أن يلتسين لم يعمل منذ عام ١٩٩٥.. والثابت فى مقالات صحيفة «الديلى ميل» البريطانية أن يلتسين أدمن الخمر وأمضى عام ١٩٩٢ فى حالة سكر متواصل وأنه أصيب بورم خبيث فى أحدأعضاء جسمه، وربما يكون ذلك متعلقاً بالمعدة كما عانى من اضطراب بالدورة الدموية، وتلف فى الجهاز العصبى المركزى، وقرر الأطباء أكثر من مرة نقل كميات من الدم إليه.. وذكرت الصحيفة أيضاً أنه لا يستطيع أن ينحنى دون أن يفقد توازنه، ويستند على الأرض وأنه يبدو متبلداً ومتلعثماً فى حديثه ومتعثراً فى خطاه، وشارداً فى فكره ويعيد إلينا صورة ليونيد بريچينيف فى أواخر أيامه..

ويالا الدهشة.. فعندما تكلم يلتسين فى مذكراتها عن الحكام المرضى.. تكلم عن بريچينيف وعندما أرادت «الديلى ميل» أن توصفه فى مرضه وضياعه الذهنى شبهته ببريچينيف نفسه!!!..

وبالفعل لقد ضاع عقل يلتسين في آخر أعوام حكمه.. لحسته الفودكا.. وهزمته الشيخوخة، وتسبب قلبه الضعيف في عدم وصول الدماء الكافية لتغذية مخه.. وإذا وصلت فلا يكون الأكسجين مذاباً فيها بالصورة المناسبة التي تسمح له بالتركيز والإدارك.. وفي مارس عام ١٩٩٨ كانت خيبة الأمل شديدة والشعب الروسي يرى رئيسه يهذي أمام العالم في افتتاح أعمال القمة الثلاثية بموسكو، والتي دعي يلتسين إليها بجانبه كل من الرئيس الفرنسي جاك شيراك، والمستشار الألماني هيلموت كول.. وعندما وقف ليعلن افتتاح القمة وبداية المحادثات قال وسط ذهول الجميع: أعلن افتتاح المؤتمر الصحفي بدلاً من أن يقول: أعلن افتتاح القمة.. وأسرع سكرتيره الخاص وهو يعدو في اتجاهه لجعله يتدارك الموقف بهدوء ويذكره بأنه يفتتح القمة الثلاثية وليس المؤتمر الصحفي.. ولكن يلتسين نظر إليه بإحتقار ومضى يدعو الصحفيين لطرح الأسئلة وجاك شيراك وهيلموت كول يضربان كفاً بكف ولسان حالهما يقول: لاحول ولا قوة إلا بالله!!

وللرئيس بوريس يلتسين تصرفات وقرارات غريبة وخطيرة، فلقد كان يواجه الأزمات بسياسة الصدمات ويتعامل مع معارضيه بقسوة ووحشية.. فها هو يضرب البرلمان بدانات مدافع الدبابات وهو لا يعلم أنه بهذا التصرف الطائش خسر كثيراً من تأييد شعبه، وبدأ يدق المسمار الأخير في نعشه...

ولا شك أن قسوته في تعامله مع المعارضين تعود إلى عقد شخصية ترسبت في ذاته وكيانه منذ الصغر، حين كان أبوه يتعامل معه بالكرباج إذا أخطأ.. وعلينا أن نتصور ما هي نفسية الإنسان الذي نشأ في طفولته على كل هذا القدر من الوحشية في التعامل مع براءة الطفولة ورقتها!!! وإذا كان أبوه يتعامل مع طفله بالكرباج.. فإن أبسط شيء أن يتعامل الابن مع المعارضين من أبناء شعبه بالمدفع والطائرة والدبابة.. يدوسهم بحذائه ويسحقهم بزبانية ويلقيهم في معتقلات الظلام والبؤس، ولا غرابة في ذلك فهذا الرجل أكمل طفولته مشاغباً وشرساً، فهو عندما يلعب.. لا يفكر إلا في القنابل بالسندان والمطرقة.

وعندما يدخل في معركة مع أقرانه تكسر له أنفه.. ويكسر للأخرين ذراعا أو ساقا.. ما هذا التوحش..وما هذه الطفولة؟!

وهناك ملاحظة مهمة أيضاً.. فقد ذكرت جريدة «صنداي إكسبريس» سراً يذاع لأول مرة عن أحداث أكتوبر عام ١٩٩٣ والذي عرف بأكتوبر الأحمر، عندما هاجم الجيش الروسي البرلمان الشيوعي، وهذا السر هو أن يلتسين أصيب بأزمة قلبية أثناء حصار البرلمان، وذهب للعلاج في المصحة الفاخرة التي كان معتاداً أن ينزل بها عند مرضه، والتي أنشئت خصيصاً لعلاج الزعماء السوفييت السابقين.. وهي متخصصة في أمراض القلب.. وقد حمله رجاله سراً إلى الطائرة الهليكوبتر التي نقلته إلى المصحة البعيدة مسافة ٢٠ ميلاً عن موسكو..وهناك اكتشف أطباؤه أن انقباض عضلة القلب ضعيف بصورة ملفتة، وأن هناك قصوراً في وصول الدم إلى مخ يلتسين مما كان يصيبه بحالات من عدم التركيز وفقدان

الوعى، وقد ذكرت من قبل أنه كان قد أخذ قراره بإقتحام مبنى البرلمان فى منتجعه المريض، مع وزير دفاعه وبعض مستشاريه، ولكن هذا المنتجع للأسف كان هو هذه المصحة التى نتكلم عنها الأن... وكيف يكون الحال ورجل يفقد السيطرة على وعيه يقرر فى غفلة عن واقعه أن يضرب برلمان بلاده بالدبابات والقنابل؟!

ومن قرارات يلتسين الغريبة أيضاً أنه قام بتعيين أربعة رؤساء حكومات، ثم أقالهم بدون أسباب واضحة فى زمن قياسى بمعدل مائة يوم لكل منهم، وأغلب الظن أنه لم يكن يتذكر متى قام بتعيين رئيس الحكومة؟! ولا لماذا يقوم بتغيير هؤلاء القادة؟! ولكن الحقيقة الأكيدة فى هذا الأمر أنه أضاف إلى أعدائه أعداءاً جددا انضموا إلى صفوف معارضيه بعد أن كانوا من رجاله فى يوم من الأيام.. وهذا التصرف الغريب يجعلنا نؤكد ما ذكر عن صحة يلتسين بأنه أصيب بإختلال فى الجهاز العصبى المركزى...

وفى سنوات حكمه الأخيرة بدأ مرض الزهايمر يقطع معه شوطاً جديداً من أشواط المرض، وهذا المرض يجعل الإنسان يفقد ذاكرته شيئاً فشيئاً إلى أن تأتى عليه فترات يمكن أن يفقد فيها ذاكرته إلى حد كبير، فلا يستطيع أن يميز بين أفراد أسرته.. ولكن يلتسين لم يصل إلى هذه الدرجة من فقد الذاكرة، ولكن يمكن القول أن كل ما تناولته الصحف عن أخباره بالإضافة إلى المذكرات الشخصية التى كتبها المقربون منه بعد زوال حكمه أكدت أنه أحياناً كان ينسى أنه رئيس دولة.. بل عندما كان يزور دولة صديقة كان ينسى أنه خارج روسيا، ويتصرف تصرفاته العادية كما لو كان فى قصر الكرملين.. وبالطبع فإن أمراً كهذا يصعب معه أن يكون قرار يلتسين سليماً ورشيداً، لأنه فى كثير من الوقت سيفقد إحساسه بأنه الرئيس وسينسى قاعدة المعلومات والبيانات التى يدلى على أساسها بقراره بل إنه قد لا يتذكر مهامه الرئاسية على وجه كامل، وبالتالى فإن الخطأ سيشمل كل قراراته وتعليماته.

ولا شك أيضاً أن التصلب الذى أصاب شرايين قلب يلتسين قد يكون أيضاً أصاب شرايين دماغه... ومرض تصلب الشرايين له أسباب كثيرة ومختلفة، ولكن السمنة والإسراف فى تناول الدهون والنشويات وإدمان الخمور والاعتماد على السكريات فى الطعام، كلها أسباب يمكن أن تؤدى ببساطة إلى تصلب الشرايين وهى جميعاً متوفرة فى شخصيته وطبيعته.. وفى هذا المرض تظهر زوائد داخل تجويف الشريان تتكون من بعض الخلايا الضارة والدهون الغير مستحبة وتميل دائماً للخروج من جدار الشريان وتمتد فى اتجاه مركز مقطعه الدائرى فيزداد جدار الشريان سمكاً ويصبح تجويفه من الداخل ضيقاً إلى حد كبير، ومن الممكن أن تقوم هذه الزوائد بسد الشرايين كاملاً أو ترك الدم ينفذ من التجويف بنسبة ٣-٤٪.. وهذا بالطبع يؤدى إلى ضعف فى قدرة الدم على الاندفاع داخل هذه الإنسدادات المتكررة وبالتالى فإن الدورة الدموية فى مخ يلتسين لم تكن على مايرام وأثرت على تركيزه وقدراته الذهنية.

وقد ذكرت أن يلتسين كان يعانى من خلل فى وظائف الكلى والكبد وارتفاع حاد

ومتكرر في ضغط الدم ونزيف معدى من حين لآخر، ومن الممكن طبياً أن ترتبط كل هذه الأمراض ببعضها وتكون سلسلة مسبباتها من منشأ واحد وأغلب الظن أن يلتسين كان يعانى من ارتفاع في ضغط الوريد الكبدى البابى، وهو ما يعرف باسم PORTAL HYPERT ENSION والمعروف أن ضغط هذا الوريد الطبيعى من ٢ ـ ٥ مليمتر / زئبق ولكن ارتفاعه عن الحد الطبيعى يمكن أن يتسبب في التعرض لنزيف معدى، من آن لآخر، وارتفاع في ضغط الدم كما كان الحال عند يلتسين، وتأخر في وظائف الكلى وحالات من فقدان الوعى وعدم التركيز الناتجة عن خلل في وظائف الكبد، وكل هذا بالطبع كان يؤثر على تصرفات يلتسين وقدرته على اتخاذ قراره بالصورة الصحيحة والسليمة، فكثيراً ما كان يصدر قرارات بعيدة كل البعد عن مقياس العقل ويقوم بتصرفات لا تصدر عن رئيس دولة لها كيانها ووضعها العالمى خاصة بعد أن ورثت الاتحاد السوفييتي القديم، وكان يلتسين كثيراً ما يهاجم سياسة دولة ما ثم سرعان ما يتراجع، ويثنى على هذه الدولة وقادتها.. وكأنه كان يحلم ولم يكن على أرض الواقع، وكأن الذى يتكلم رجل عادى وليس رئيس دولة مهمة مثل روسيا، وهو أيضاً الذى تحدى مجلس الدوما وأصر على تعيين «تشيرننكو» البالغ من العمر ٣٥ عاماً عضواً بمجلس الدوما، وقامت الدنيا ولم تقعد اعتراضاً على اختيار يلتسين وترشيحه لهذا الشخص الصغير في السن والتجربة وعندما هدأت العاصفة وقبل المجلس تعيينه نزولاً على رغبة يلتسين.. يقرر بكل بساطة أن يحل البرلمان!! وفى الأزمة الاقتصادية التى واجهتها روسيا عام ١٩٩٨ والتى أدت إلى ارتفاع معدلات البطالة وإغراق البلاد في حالة من الكساد التجارى.. ومرت أيام على أبناء الشعب الروسى المطحون ولم يجد فيها الواحد منهم قوت يومه.. وعندما تفتق ذهنه عن الحل الجهنمى.. قام بطبع الروبل بدون وجود مخزون استراتيجى في المقابل من الذهب والثروات وكانت النتيجة بالطبع زيادة في الأزمة وارتفاع في معدلات التضخم إلى الحد الذى جعل الكسندر رشوفين نائب رئيس الوزراء للشئون المالية يؤكد بأن يلتسين يدفع البلاد إلى الجحيم، وأنه في روسيا وحدها يوجد ٣٨ مليون مواطن لا يجدون الطعام.

ويؤكد الجنرال ألكسندر كورجاروف حارسه الخاص في اللقاء الذى أجرته معه صحيفة الجارديان البريطانية أن يلتسين أصيب بأمراض نفسية كثيرة طوال رحلته السياسية، ففى عام ١٩٨٧ أصيب بإنهيار عصبى حاد بعد أن خلعه جورباتشوف من الحزب الشيوعى الحاكم، كما يذكر أن يلتسين حاول الانتحار عدة مرات بعد وقوعه في الاكتئاب والشعور بالانهيار التام، وأول محاولاته عندما ألقى بنفسه في نهر «مسكفا» والتى قال عنها أنها كانت محاولة لاغتياله من قبل الشيوعيين.. والمحاولة الثانية كانت بعد سنتين عندما حبس نفسه في قاعة الساونا واضطر كورجاروف لخلع باب قاعة الساونا، لإنقاذه ولكن يلتسين توقف عن محاولات الانتحار بعد إصابته بأزمات القلب المتكررة.. غير أنه قد أصيب بفقدان القدرة على فهم مضمون المعاهدات الدولية التى يوقعها.

وعندما اشتد المرض على بوريس يلتسين وخاصة عند إجرائه لجراحة عاجلة في القلب، كان لابد من سحب الزر النووى منه وتسليمه إلى رئيس وزرائه لأن الرئيس مقدم على إجراء جراحة خطيرة وقد يفقد فيها حياته أو تصيبه مضاعفات الجراحة، ويصبح عاجزاً بالفعل عن أداء مهامه خاصة إذا دخل في غيبوبة بعد إتمام الجراحة.. أما الأمر الذى لم يبدو عادياً ويبدو أنه أجبر عليه فكان فى الوقت الذى سلم فيه رئيس وزرائه فلاديمير بوتين الحقيبقة النووية، وكان ذلك فى الفترة الأخيرة لحكمه، وهذا هو الدليل الأكيد على عدم قدرة يلتسين على إدارة البلاد رغم أنه فى هذه المرة لم يكن مقدماً على إجراء جراحة خطيرة مثل المرة السابقة.

ومن تصرفاته الغريبة أيضاً أنه قام بفصل مدير مستشفى موسكو المركزى بدون إبداء الأسباب عندما كان نزيلاً بها عام ١٩٩٥، وفى عام ١٩٩٩خرج من المستشفى لمدة ٣ ساعات رغم حالة الإعياء الشديدة التى كان يواجهها ليقيل أقرب مساعديه بدون إبداء الأسباب وهو رئيس طاقم الكرملين ڤالنتين يوناشيف وثلاثة من معاونيه ثم عين مكانه نيقولاى بوريوجاريف رئيس مجلس الأمن القومى وعاد بعدها إلى المستشفى مرة أخرى!!

ولا يجبَ أن ننسى أن حالة القلب والرئتين عند يلتسين لم تكن على ما يرام، وهذان العضوان لهما تأثير كبير فى قدرة الإنسان الذهنية والعقلية فالقلب يمد المخ بالدم والرئتان تمده بالأكسجين الضرورى لإنعاش وظائف المخ وتحسين قدراته الفكرية والذهنية.. وبالطبع فقد كان القلب والرئتان فى حالة يرثى لها، وهذا كان له إنعكاسه على قوة تركيز يلتسين وبدا فى نهاية حياته السياسية لا يعرف حقيقة المعاهدات الدولية التى يوقع عليها.. تماماً كلما كان بريچينيف لايستطيع أن يدرك ماذا يقرأ أو يكتب فى أواخر أيامه.. هذا بالإضافة إلى أن آلام القلب الشديدة التى كانت تعاود يلتسين من حين لآخر جعلته يصاب بالإكتئاب وبفقدان الثقة فى نفسه، خاصة بعد إجراء جراحة القلب، والتى لم يشعر بعدها بأى تحسن ملحوظ بل على العكس تكررت آلام القلب كثيراً بعد الجراحة ودخل على أثرها المستشفى أكثر من مرة!! وهذه الآلام كان تدفع يلتسين إلى زجاجة الڤودكا التى لم يستطع التنازل عنها طوال حياته مما كان يدخله فى دوامة أخرى من النسيان والعزوف عن الواقع.

هكذا كان يلتسين حقلاً لأمراض القلب والرئة والكلى والكبد والمعدة والأنف والأذن والمخ.. وكان من اللازم على إنسان يعيش بنصف أعضاء جسده أن يصل فى نهاية المطاف إلى حالة من عدم التركيز وفقدان القدرة على اتخاذ القرارات، ورغم كل ذلك فقد استطاع يلتسين أن يشحذ تفكيره وتركيزه فى أخطر قرارات حياته عندما قرر الاستقالة وعقد صفقة «يلتسين - بوتين» التى فر على أساسها من أنياب المقهورين والمعذبين تحت قبضته وتحول الأسد الجبلى النازح من جبال الأورال إلى قطة سمينة لاحول لها ولا قوة...

تحليل وتساؤل؟!!

بعد الإنتهاء من سرد جزء من السيرة العلاجية لبعض زعماء وقادة الدول الهامة على الخريطة السياسية، والتى تأثرت مجتمعاتهم إلى حد كبير بالقرارات التى اتخذوها خلال فترات المرض والمتاعب الصحية التى مروا بها.. فقد توقفت كثيراً عند بعض النقاط الشائكة التى تتطلب إلقاء الضوء عليها وطرحها على مائدة الرأى أمام القارئ المهتم بالسيرك السياسى وألاعيبه حتى يفطن إلى المنهج الذى تتبعه الحكومات المختلفة فى عالمنا لتتحكم فيما هو فى صالح سياستها فقط دون النظر إلى مصالح الدول الأخرى... وقبل أن آتعرض لهذه النقاط بالتحليل والتساؤل يجب أن أذكر أن مضمون هذا التحليل، وهذه التساؤلات هو من قبيل وجه نظرى الشخصية، والتى استندت فى تحليلها على جملة القراءات والمعلومات التى اطلعت عليها والصادرة فى مصر والعالم، وأن وجهة نظرى قد يشوبها بعض الخطأ، وربما يكون لها من الصواب جانب كبير يحتم على أن أسرد تلك الوجهة وألقيها بين يدى القارئ..

وأول النقاط الهامة التى لفتت نظرى هى أن كل الرؤساء والزعماء الذين تعرضوا لمحنة المرض كان همهم الأول والأخير إخفاء الأخبار التى تتعلق بحالتهم الصحية وقد دفعهم ذلك للتواطؤ مع أطبائهم الخصوصيين لإخفاء الحقيقة وكان يصل الأمر فى بعض الأحيان إلى حد تهديد الأطباء المعالجين للقادة بالقتل إذا ماتسربت معلومات عن صحة الرؤساء من خلالهم. ونتيجة لهذه الرغبة العارمة من الزعماء فى إخفاء ظروفهم الصحية صدرت عشرات بل مئات من النشرات الطبية خلال فترة المرض من دواوين الرئاسة، كانت تحمل أخبارا خاطئة وغير صحيحة عن صحة الرؤساء وهناك كثير من قادة الدول كانوا فى غياهب المرض وكادوا أن يموتوا كل يوم من آلامهم، ومع ذلك فقد كانت النشرات الصحية الصادرة بصورة رسمية تؤكد أن الرئيس المريض فى صحة جيدة، وأنه يمارس الرياضة ويؤدى مهامه الرئاسية دون أى مشاكل، وقد ساعدت أجهزة الإعلام وخاصة فى دول العالم الثالث فى الترويج لهذه النشرات الطبية الكاذبة، وتبنت تقديم البرامج والأخبار التى تشيد بصحة الروساء، وتطمئن المواطنين على رؤسائهم، وتنفى عنهم أخبار المرض بحجة أنها من قبيل التلفيق الإعلامى والصحفى الذى يروجه الأعداء والمعارضون!!

وبالطبع فإن هناك مبررات مدروسة لدى هؤلاء القادة الذين يخفون أخبارهم الصحية عن مواطنيهم، ومن أهم هذه المبررات كما ذكرنا من قبل، تأمين الرئيس من أى محاولة للإنقلاب عليه فى الوقت الذى يعلن فيه أن الرئيس أصبح ضعيفا لا حول له ولاقوة وأنه مشغول فى إنقاذ حياته من المضاعفات القاتلة الناجمة عن سوء حالته الصحية، وبالتالى فإن أمور القيادة وإدارة البلاد تتسرب خطوة بخطوة من يد الحاكم الأصلى لتصبح فى أيدى معاونيه والذين يمكن أن يكونوا طامعين فى الحكم، فينقلبون عليه أو يغفلوا عن قصد عن

صد محاولاتَ الإنقلاب عليه إذا وعدهم الإنقلابيون بغنائهم ومكاسب لاحد لها بعد التخلص من رئيس الدولة.. ويتنامى هذا الإحساس بضرورة تأمين كرسى الرئاسة فى حالة وجود معارضة قوية ومنظمة، وتطمح إلى الإطاحة برئيس النظام الحاكم.. هذا بالإضافة إلى التحديات الخارجية التى تواجه أنظمة الحكم التى يرأسها قادة فى حالة وهن وضعف صحى، خاصة إذا كانوا قد أتوا إلى الحكم بعد قيامهم بثورة شعبية على الاستعمار الأجنبى الذى يظل متربصا لقائد الثورة للإنتقام منه على فعلته ضد المستعمرين، ويكون مرضه أكبر فرصة لتنفيذ مخطط الإنتقام.. وأحيانا تكون الدول التى يقودها زعماء مرضى فى حالة حرب وقد تكون هذه الحرب بدافع الكرامة وتحرير الأرض تمهيدا لبناء المستقبل، فالسلام لايأتى عادة إلا على رماد الحروب.. وبالتالى فإن إذاعة أنباء عن تدهور الحالة الصحية لرئيس الدولة التى تخوض هذه النوعية من الحروب، قد يبث روح الإحباط والضعف فى نفوس جنوده، ويدفع بهم فى غياهب الهزيمة النفسية التى تترتب عليها الهزيمة العسكرية، وفى نفس الوقت الذى ترتفع فيه معنويات الأعداء ويصبحوا أكثر تعلقاً بالنصر بلا بديل آخر..

وبعض زعماء الدول كانوا يخفون أخبارهم الصحية عن أقرب المقربين إليهم، خاصة إذا كانت شعوبهم اعتادت من قبل على إنسحاب الرؤساء المرضى من بلاط الحكم، ولم تعد ترضى ببديل آخر عن هذا التقليد إلى الدرجة التى تطلب فيها المجالس النيابية تقديم تقرير عن صحة الرئيس بصفة دورية لبحث امكانية صلاحيته لتولى رئاسة البلاد من عدمه، وقد حدث ذلك مع الرئيس الفرنسى ميتران الذى ظل مايقرب من إحدى عشرة عاما يخفى على شعبه أنه مصاب بالسرطان بعد تواطئه مع طبيبه الخاص كلود جوبلر، حتى لايقوم بتسريب أنباء مرض ميتران إلى الشعب الفرنسى، والذى بالطبع كان سيطالب بتنحية ميتران عن الحكم.. والغريب فى هذا الأمر أن ميتران نفسه اكتشف منذ الأيام الأولى لانتخابه رئيسا لفرنسا لأول مرة أنه مصاب بالسرطان، ومع ذلك قضى فترتى حكمه كلها زعيما على فراش المرض الذى هدد حياته وأضعف قدرته على قيادة البلاد إلى الحد الذى وصل معه فى نهاية فترة حكمه إلى استقبال رؤساء الدول من فوق فراشه..

وحفنة قليلة من القادة هم الذين صرحوا بأنباء عن تدهور حالتهم الصحية بل سمحوا للصحافة ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة أن تتابعهم وتنقل أخبارهم الصحية، ولكن تبقى دوافعهم لاتخاذ هذه السياسة محل تحليل ودراسة، فالبعض من هؤلاء الزعماء كانت مكاشفته تعود إلى طبيعته الشخصية التى تنتهج هذا الأسلوب مبدءا لها بصفة عامة، والبعض الآخر كان إتباعه لسياسة المكاشفة عائد إلى رغبته فى ترسية ولى عهده والذى يكون فى غالب الأمر أكبر أبنائه ليتولى مقاليد الحكم وسط تأييد شعبى وتعاطف يكتسبه ولى العهد من الظروف المرضية للحاكم الأصلى والذى يريد شعبه أن يلبى رغباته قبل أن يودعه.. وقد رأينا ذلك فى سياسة المكاشفة التى اتخذها العاهل الأردنى الراحل الملك حسين، فقد أدرك أنه فى مرض الموت الذى لانجاة منه غالبا وفق المعايير الطبية والعلمية، وأن حالته الصحية سوف تجبره على البقاء خارج المملكة لفترات كبيرة للعلاج بمستشفى مايو

كلينك بالولايات المتحدة الأمريكية وبالطبع فإن هذه الظروف لم يكن صالحاً معها أن يخفى الملك عن شعبه ظروف حالته الصحية لأن الشعب كان سيسأل بالطبع عن ملكه الغائب بصفة مستمرة عن البلاد، بالإضافة إلى أن الملك قد أسهم - بدون قصد - فى إحاطة إبنه الأمير عبدالله بشعبية بين أبناء الأردن عند اختياره فى ولاية العهد فى أدق مراحل المرض الذى عانى منه العاهل الأردنى وهو على مقربة أيام معدودة من أجله المحتوم،، وليس هذا بغريب إذا عرفنا أن ٩٠٪ من أبناء الشعب الأردنى ولدوا بعد تولى الملك حسين حكم المملكة الأردنية الهاشمية وأنهم يدينون له بالولاء والرمزية، ومن الصعب عليهم أن ينهى ملكهم حكمه للأردن بهذه الصورة الدرامية، ولذلك لبوا له رغبته الأخيرة فى الموافقة على تعيين نجله عبدالله ولياً للعهد دون أدنى معارضه..

وعلاج الملك حسين وغيره من الزعماء والقادة بالمراكز الطبية بالولايات المتحدة الأمريكية يدفعنا للتساؤل عن مدى تدخل سياسة واشنطن فى السياسة العلاجية الخاصة بقادة ورؤساء الدول الذين يتلقون علاجهم على أرض الولايات المتحدة الأمريكية؟! ومن المعروف أن الولايات المتحدة تهتم كثيراً بدراسة الحالة الصحية للرؤساء والملوك من قادة الدول حتى يمكن أن تتعرف على طبيعة الظروف التى ستتعرض لها الدول أو المناطق المحيطة بها فى حالة وفاة رؤساء هذه الدول متأثرين بأمراض خطيرة أو عجزهم عن القيام بالأعباء الرئاسية وبالتالى يمكن الاستعداد لأى متغيرات بدلاً من تقبل المفاجآت التى قد تكون نتائجها أحيانا فى غير صالح الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا ماجعل وكالة المخابرات الأمريكية «سى أى إيه» تقبل على انشاء وحدة صحية للشخصيات الهامة تضم بين أطبائها أحد الأطباء النفسيين المسئولين عن تحليل شخصية رؤساء الدول وتفنيد تصرفاتهم فى ضوء الدوافع الشخصية، وكان من أهم أهداف هذه الوحدة العاهل الأردنى الملك حسين والرئيس السورى حافظ الأسد وفيدل كاسترو وبوريس يلتسين، وقد قام رجال المخابرات الأمريكية بتحويل مسارات دورات المياه فى المساكن التى يقيم بها رؤساء الدول المستهدفين وبالذات فى رحلاتهم الخارجية للبحث من قبل الوحدة الصحية للشخصيات الهامة وذلك بعد تجميع فضلاتهم والقيام بتحليلها والوقوف على وظائف الأعضاء المختلفة فى جسم الإنسان وطبيعتها الفيسولوجية وأنواع الأدوية المستخدمة فى العلاج، كما قامت المخابرات الأمريكية بالتصنت على المكالمات التليفونية لبعض الرؤساء فى مراحل مرضية مختلفة للوقوف على طبيعة المرض وخطورته، وآخر تطورات الحالة الصحية لهؤلاء الرؤساء، وبالطبع فإن إسرائيل الحليف الأول لأمريكا قد نقلت عن المخابرات الأمريكية هذا الفكر وتمكنت الوحدة الصحية المسئولة عن متابعة الحالات الصحية لرؤساء الدول بالموساد الإسرائيلى من الحصول على عينة من بول الرئيس حافظ الأسد أثناء زيارته للأردن، للمشاركة فى تشييع جنازة العاهل الأردنى الملك حسين، وأمكن لأجهزة الموساد تحليل هذه العينة معمليا ومعرفة أن الرئيس الأسد يعانى من مضاعفات مرضية خطيرة، وأن حالته الصحية فى تدهور مستمر بما قد يشكل خطراً على حياته فى أى وقت من الأوقات.. ولكن هل يمكن أن تتدخل السياسة الأمريكية فى السياسة العلاجية لأحد رؤساء الدول بما قد يؤثر سلبياً أوإيجابياً على صحته وحياته؟!

والإجابة على هذا التساؤل تحتاج لأن نوضح المغزى من أهمية التساؤل نفسه، والذى أقصد به الاستفهام عن إمكانية تدخل السياسة الأمريكية فى توفير كافة إمكانات الرعاية الصحية للزعماء الذين يرتبطون مع الإدارة الأمريكية بعلاقات سياسية وصلات قوية على مستوى عال من الحساسية وكذلك هل يمكن لنفس هذه السياسة أن تدفع بصحة الزعماء المعارضين أو الذين يتعارض وجودهم مع مصالح أمريكا إلى الهاوية، حتى يلقوا حتفهم متأثرين بأمراضهم الخطيرة؟..

وحتى يصبح الأمر جلياً علينا أن نعود قليلاً إلى ماقدمته الولايات المتحدة من خدمات صحية، ورعاية طبية للعاهل الأردنى الراحل الملك حسين بن طلال، والذى كانت تربطه بالإرادة الأمريكية صلات وثيقة وعميقة إلى الحد الذى جعل الرئيس الأمريكى بيل كلينتون يأمر أطباءه الشخصيين بالتواجد فى خدمة العاهل الأردنى ومتابعة حالته الصحية لحظة بلحظة، على أن يرفعوا بها التقارير الدورية للرئيس الأمريكى، كما أن بيل كلينتون كان يفضل أن يعرف الأخبار الطارئة على صحة الملك حسين فى أى وقت من الليل والنهار، وحين توفى الملك حسين لم يتأخر كلينتون لحظة عن المشاركة فى تشييع جثمان الملك على رأس وفد أمريكى فوق العادة يضم الرئيس الأمريكى وزوجته هيلارى كلينتون وأربعة من رؤساء الولايات المتحدة السابقين.. ويأتى هذا كنوع من الاهتمام الأمريكى بالدور الذى كان يلعبه الملك حسين فى منطقة الشرق الأوسط خاصة فى عملية السلام وخوف الإدارة الأمريكية من الأحداث التى يمكن أن تتعرض لها الأردن فى حالة وفاة الملك حسين، وعدم انتقال السلطة بهدوء إلى خليفته، أو تمكن ولى العهد السابق الأمير الحسن بن طلال من عرش المملكة وهو الشخصية التى لاتلقى قبولاً فى الأجواء الأمريكية..

أما عن التأثير السلبى للسياسة الأمريكية فى تطور الحالة المرضية لبعض القادة والزعماء فعلينا أيضا أن نرجع قليلاً إلى بعض الأسرار التى أذاعتها وكالة المخابرات الأمريكية بعد سنوات من حدوثها، والتى كان من بينها قرار الرئيس الأمريكى چون كينيدى بإنشاء وحدة بالمخابرات الأمريكية لاغتيال شخصيات هامة يتعارض وجودها مع المصالح السياسية لأمريكا، ومن بين هذه الشخصيات بالطبع بعض رؤساء الدول وقادة الثورات الشعبية ومنهم على سبيل المثال ڤيدل كاسترو، الذى حاولت المخابرات الأمريكية اغتياله عشرات المرات ولكن بلا جدوى إلى الحد الذى جعلها تتفق مع عصابات المافيا لمحاولة القضاء على نظام كاسترو الذى كان يمثل لأمريكا شوكة فى الحلق،، وبالطبع فإن التدخل فى السياسة العلاجية لرؤساء الدول يمكن أن يكون أحد الطرق التى تتبعها وحدة الاغتيالات بالمخابرات الأمريكية لتنفيذ مخططاتها المختلفة.. هذا إذا سلمنا بصحة الأخبار التى تم تداولها فى الفترة الأخيرة عن إنشاء هذه الوحدة..

وقد رأينا أيضا كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية فتحت أبوابها لعلاج شاه إيران الأسبق محمد رضا بهلوى، فى الوقت الذى كان يمثل فيه بهلوى معانى كثيرة للإدارة الأمريكية، وعندما شعرت الولايات المتحدة بأن مجرد تواجد الشاه على أرضها بعد قيام

الثورة الإسلامية فى إيران، سوف يسبب خسائر كثيرة للولايات المتحدة فى مصالحها بمختلف أنحاء العالم، رفضت أمريكا إعطاء تأشيرة دخول للشاه وهو يموت فى أواخر رحلة المرض لتلقى العلاج على أرض أمريكا!!

ومن القصص والأحداث الجديرة بالتعليق، حكاية الطبيب الأمريكى الشهير مايكل دبيكى المتخصص فى جراحة القلب والصدر، وهو بالمناسبة من أصل لبنانى، وقد قام برئاسة الفريق الطبى الجراحى الذى أجرى عملية استئصال الطحال لشاه إيران فى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى، ووقتها أثيرت ضجة شديدة حول هذا الطبيب لأنه لم يترك خرطوماً فى مكان العملية لتسريب الإفرازات الضارة بعد إنتهاء الجراحة خاصة وأنه قد أحدث جرحا بالبنكرياس تسبب عنه نزف دموى أدى إلى حدوث تجمع دموى فى مكان الجراحة، وكان لابد من الخرطوم فى مكان الجرح لتفريغ هذا التجمع الدموى، ولكن عدم وجوده أدى إلى تعفن تلك الإفرازات الضارة، وتكون الصديد على التجمع الدموى الراكد مما تسبب فى إصابة الشاة ببؤرة صديديه وتسمم بكتيرى وجرثومى فى الدم أدى بعد أيام من ارتفاع درجة الحرارة، وانخفاض ضغط الدم إلى وفاة الشاه خاصة وأن جهازه المناعى كان شبه معطل بسبب إصابته بسرطان الغدد الليمفاوية..

وقتها برر مايكل دبيكى للصحافة المصرية والعالمية فعلته وأكد أنه لم يخطئ مع أن الأطباء المصريين من أعضاء الفريق الجراحى لم يرضوا على تصرف دبيكى الذى تعلل بأن المدرسة الأمريكية فى الجراحة لاتتبع هذا الأسلوب فى وضع الخراطيم لتسريب الإفرازات والتجمعات الدموية بعد الجراحة، وهذا بالطبع أمر غير حقيقى، ويتنافى مع أبسط قواعد التدخلات الجراحية وسوف تصيبنا الدهشة عندما نعلم أن مايكل دبيكى قام بنفسه بوضع الخراطيم - التى رفض وضعها لشاه إيران - للرئيس الروسى بوريس يلتسين عندما أشرف على جراحة استبدال الشرايين التاجية لعضلة القلب والتى قام بإجرائها فى روسيا!!

وبعد شهور من وفاة شاه إيران، تعرض الرئيس الأمريكى رونالد ريجان لمحاولة اغتيال فاشلة وأجرى له الأطباء جراحة عاجلة لاستخراج الطلق النارى من قفصه الصدرى وبعد إتمام العملية قام الجراحون بوضع خراطيم لتسريب الإفرازات الضارة فى مكان العملية... وهؤلاء الجراحون من نفس المدرسة الأمريكية التى نفى عنها مايكل دبيكى من قبل مثل هذا الإجراء.. كما أن الفترة الزمنية بين الجراحة التى أجريت للشاه والتى أجريت لريجان كانت محدودة جداً وهى فترة لايمكن أن تتغير فيها أصول المدارس الطبية وقواعدها..

وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال هام؟

لماذا رأس مايكل دبيكى جراح القلب والصدر الشهير الفريق الجراحى الذى أجرى عملية استئصال الطحال لشاه إيران محمد رضا بهلوى وهو أصلا غير متخصص فى هذه النوعية من العمليات الجراحية؟!

مهما كان الرد.. ومهما كانت مشاركة دبيكى فى الجراحة تدخل تحت طى الإشراف

فقط، أو القيام بإجراء الجراحة.. فإن الثابت فى كل مقالات الصحافة المصرية والعالمية الصادرة فى ذلك الوقت أنه صاحب قرار عدم وضع الخرطوم «الدرنقة الجراحية» رغم اعتراض الجميع على هذا..!! ولكن أمانة الرأى والموضوعية تدفعنا لعدم الجزم بتورط مايكل دبيكى فى أخطاء طبية مقصودة لأن هذا كان سيدفعه إلى الدخول فى متاهات عدم الثقة فى أمانته الطبية، وهذا لم يحدث مطلقا خاصة بعد استعانة كثير من الشخصيات العالمية الهامة بدبيكى لإجراء جراحات خطيرة بالقلب.. وكان الأجدر بهم الابتعاد عن الاستعانة به إذا كان هناك شك فى مصداقيته.. بالإضافة إلى أن الرئيس السادات قام بتكريمه بعد إجراء الجراحة لشاه إيران.. ولكن هذا لايمنع من وضع عشرات من علامات الاستفهام حول مايكل دبيكى..!!

والغريب أن معظم رؤساء الدول وخاصة دول العالم الثالث يلجأون إلى طرق البوابة الأمريكية لتلقى العلاج من الأمراض التى يعانون منها، وفى الغالب يمكن علاج هذه الأمراض فى بلادهم فى ظل رعاية طبية وتمريضية خاصة.. وإذا عرفنا أن معظم الأمراض التى تعرض لها رؤساء الدول ذات تقنية عادية فى علاجها بمعنى أن الولايات المتحدة لاتحتكر سر علاجها لأقتنعنا بأنه كان من الأحرى والأجدر برؤساء الدول المرضى أن يتلقوا علاجهم فى أوطانهم طالما أن الأمر لايستدعى السفر للخارج، ولكن نعود ونبرر قرار سفر الرؤساء للعلاج بالخارج بأنه كان بناء على رأى أطبائهم الشخصيين الذين كانوا يهابون تحمل المسئولية كاملة، خاصة إذا كان المرض يتعلق بحياة الرئيس، حتى لو كان علاجه تقليدى، ومتوفر فى المستشفيات الوطنية، ولكن هناك بعض القادة رفضوا العلاج خارج بلادهم ولكنهم استعانوا فى النهاية بأطباء أمريكيين وأوروبيين للأشراف على علاجهم أو لإجراء الجراحات الخطيرة دون أن يضطروا للسفر إلى دول أمريكا وأوربا..

وماقيل عن تدخل السياسة الأمريكية فى أحداث المرض الخاصة بالزعماء كثيرا جدا.. فقد نشرت بعض الصحف أخبارا ـ مشكوكا فى صحتها ـ كان مضمونها أن الولايات المتحدة أعدت بديلاً للملك حسين يشبهه تماماً للعودة إلى الأردن لتنصيب أبنه ولياً للعهد، وإقصاء شقيقه الأمير الحسن عن ولاية العهد فى نفس الوقت الذى أكدت فيه هذه المصادر أن الملك حسين كان قد مات فعلا وأن الشخص الذى تصرف فى الأيام الأخيرة على أنه الملك حسين.. لم يكن سوى بديل له أعدته وكالة المخابرات الأمريكية اعتمادا على أنه لايمكن الشك فى هذا البديل لأن الملك حسين تعرض فى شهوره الأخيرة لبرامج مكثفة من العلاج الكيميائى والإشعاعى الذى تسبب فى تغيير كثير من ملامحه وصفاته الجسمانية.. ولكن يبقى هذا الخبر موضع شك مبنى على الإثارة الصحفية.. والأيام والتاريخ هى التى ستقول لنا كل الحقائق فى يوم من الأيام ودون أن نسعى إليها..

وهناك مصادفة غريبة لاحظتها أثناء رحلتى مع هذا الكتاب.. فالتاريخ أعاد نفسه مرة أخرى بعد أن قرر الرئيس الراحل محمد أنور السادات استضافة شاه إيران للعلاج والإقامة الدائمة فى مصر وما أشبه اليوم بالبارحة، فعندما قام السلطان عبدالحميد سلطان الدولة

العثمانية بعزل الخديوى اسماعيل بعد المحاولات المستميته من الخديوى للتأثير على السلطان العثمانى لخلع اسماعيل قبل أن يتحول إلى رمز وطنى يقود الحركة الوطنية فى مصر إلى الدرجة التى يمكن أن تفسد خطة الانجليز الدقيقة لاحتلال مصر والسيطرة على قناة السويس.. وجد الخديوى اسماعيل نفسه تائها وطريداً خاصة بعد أن حرمه السلطان عبدالحميد من الإقامة فى أى بلد يخضع للسيادة العثمانية.. وقتها جاءت التقارير الطبية تقول إن الحالة الصحية للخديوى اسماعيل بلغت حد الخطر وأنه مصاب بإلتهاب رئوى حاد وإستسقاء فى البطن وسرطان معوى فى نفس الوقت الذى لم يجد فيه هذا الطائر الشريد أى عش ليلقى فيه السكن والراحة النفسية، فلما علم ملك إيطاليا «أومبرتو» بقرار السلطان عبدالحميد بعث إلى اسماعيل يبدى استعداده لقبوله ضيفا على إيطاليا للإقامة والعلاج وتخصيص قصر فخم يقيم فيه يقع فى أرقى ضواحى مدينة نابولى وقبل اسماعيل العرض من هذا العاهل شاكراً له وفاءه لذكرى أبيه الملك فيكتور عمانوئيل الذى كان تربطه بالخديوى مودة صميمة..

ومثلما فعل أومبرتو مع اسماعيل...

فعل السادات مع بهلوى..!!

والمثير للدهشة أنه بالرغم مما وصل إليه الشاه محمد رضا بهلوى من جاه وسلطان جعله متشبسا بالحكم، كأنه من الخالدين، فإنه لم يفكر يوما فى نقل رفات والده رضا بهلوى من مسجد الرفاعى بالقاهرة إلى إيران حيث موطنه الأصلى.. بل إن الشاه نفسه لم يوصى بدفنه فى إيران رغم أن آخر شئ أخذه معه قبل مغادرة طهران لآخر مرة حفنة من تراب إيران.. فهل كان الشاه يشعر بنوع من الغربة والضياع وعدم الزمان وهو يحكم إيران؟ وهل كان يعلم أن نهاية حكمه ستشهد طرده من بلاط الحكم شريداً مقهوراً يبحث عن مأوى وملجأ يلملم فيه جسده المريض..؟

ومن الملاحظات الجديرة بإلقاء الضوء عليها تلك البداية الخاصة ببعض الزعماء الذين تناولناهم فى هذا الكتاب، فمعظمهم قد وصل إلى بلاط الحكم على أرض مفروشة بالشوك والقهر والفقر.. ولذلك ثاروا وغضبوا وانتفضوا على أنظمة الفساد والاحتلال والاستعمار فى بلادهم.. واتذكر هنا مقولة شكسبير فى مسرحية «سيدان من فيرنا» «Two Gentlemen of Verna» «الرجل الجوعان، رجل غضبان»، فقد كان والد بوريس يلتسين فلاح بالأجرة فى أراضى الغير، ثم أصبح عاملا من عمال البناء، وكانت أمه تساعد جيرانها فى أعمال المنزل مقابل نصف رغيف من الخبز، أو أى نوع من أنواع الطعام، ومع ذلك فقد كانت عزيمة يلتسين فى بداياته أقوى من الفولاذ، واستطاع أن يتخطى مراحل الضياع فى حياته بموتيفة الإصرار والتصميم، وقفز إلى المستحيل فوق جواد الأحلام الذى ظل يمتطيه إلى أن أصبح رئيسا لدولة عظمى فى عالمنا المعاصر.. والرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران كان أبوه يعمل كمسريا ومع ذلك فقد تمكن فرانسوا ميتران من مناطحة شارل ديجول فى أبواب التاريخ الفرنسى، وأن يقود فرنسا لمدة أربعة عشرة عاما بعد أن صعد إلى السلطة على جثة

الهوان والأسر والفقر والألم.. ولايخفى علينا أيضا أن ويليام ريجان والد الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان أضطر لأن يعمل مندوبا فى محلات الأحذية.. ولكن ابنه حكم العالم لمدة ثمانية سنوات من مكتب بيضاوى يدير منه السياسة العالمية بالريموت كونترول...، إنها معجزات البذور حينما يصبح لها جذور تنبت أعوادا وفروعا..

ولكن للأسف فإن حفنة لابأس بها من الرؤساء وصلوا إلى السلطة مؤيدين بأحلام الجماهير وطموحاتهم فى غد أفضل ورغبتهم فى تصعيد رجل منهم يدفع عنهم القهر والفقر والمرض ويعبر بهم إلى الرخاء والنماء.. ولكن عندما وصلوا للسلطة نسوا أحلام الجماهير وتذكروا أحلامهم فقط.. وتنكروا لآلام بطونهم التى كانت خاوية وصارت بعد وصولهم للسلطة مليئة بالكافيار والاستاكوزا، وبصقوا على طموحات المواطنين وهللوا لمطامعهم الذاتية.. وأهملوا ملايين البطون التى تخر ألما من الجوع وتذكروا بطنا واحدة فقط.. هى بطن الحاكم بأمره!!

وبوريس يلتسين الذى ناطح العالم كله من أجل الدفاع عن مبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق المطحونين والمكدودين هو أول من وأد الحرية والديمقراطية فى روسيا، وطعنها فى مقتل واخترق القانون واعتدى على الدستور وضرب نواب الشعب بالدبابات والمدافع، وترصدهم بالقناصة، وبعد ذلك أتهم بالفساد والرشوة وظل يبحث عن حل ينقذه من مقصلة القانون.. لكن من ينقذه من مقصلة التاريخ؟

وفيدل كاسترو الذى آذاق شعبه العلقم على مدار أربعين عاما تحت شعار الحكم «الاشتراكية أو الموت» لايصدق أن الشيوعية قد ماتت ولازال قابعا فى قصور الحكم المنيفة، بالرغم من أن شعبيته فى كوبا تهاوت نحو الصفر.. فهو يطبق مبادئ الحزب الاشتراكى على شعبه، لكنه يطبق الرأسمالية على نفسه.. إنه الرجل الذى أوجد «الشيوعمالية» ذلك النظام العالمى الجديد.. وأطلق عليه تخديرا لعقول شعبه «تحديث النظام الشيوعى»..!!

إذن فالمبادئ التى يحارب من أجلها الزعماء يمكن أن تتغير أو تتبدل عندما يصلون إلى كرسى الحكم، ومهما يبرر المدافعون عن هؤلاء الرؤساء أسباب تغيرهم بقولهم أن السياسة تفرض أحيانا على الرئيس ما لايكون مقتنعا به بصفة شخصية، فإن الجحود الإنسانى لايمكن أن تقره شريعة أو يقبله عقل خاصة إذا كان صادرا من الرعاة الذين يتحملون مسئولية الرعية أمام الله وأمام الوطن والتاريخ، فلاشك أيها القارئ أن أحلام الثوريين يمكن أن تتبدل وتصبح سرابا بدلا من أن تصبح واقعا يحقق آمال الجماهير..

ونقطة أخرى فى صدر تعليقى على أحداث الكتاب تتعلق بالرئيس الأمريكى الأسبق فرانكلين روزفلت وكيف أنه استطاع أن يصبح رئيسا تاريخيا للولايات المتحدة الأمريكية وهو رجل عاجز لاتحمله ساقيه، ولايقوى على الحراك دون أن يُحمل على «نقالة» أو كرسى متحرك أويستند على عكازين!! فهل كان لعاهة فرانكلين دورا فى اكتسابه شعبية هائلة للوصول إلى البيت الأبيض، بل وحصوله على ثقة أبناء الشعب الأمريكى فى أربعة انتخابات رئاسية متوالية على غير العادة..؟

وفى رأيى الشخصى، أن لعاهة فرانكلين روزفلت دورا كبيرا فى اكسابه تلك الشعبية الطاغية التى حظى بها وغير المسبوقة فى تاريخ الأمم والشعوب فى العصر الحديث، وهذا لاينفى المقوماتِ الشخصية لفرانكلين روزفلت ولايدفعنا إلى الشك فى عبقريته وقدرته على قيادة دوله عظمى فى زمن كان العالم يغلى فيه فوق بركان الحرب العالمية الثانية.. فقد كان روزفلت يؤمن بمقولة إبراهام لنكولين «Actions speak louder than words» «الأعمال أعلى صوتا من الأقوال» لذلك كانت أعماله أكثر من كلامه وكانت إنجازاته أكثر مما حلم به لأمريكا.. ولكن مما لاشك فيه أن عاهة روزفلت قد أتاحت له قدراً كبيراً من التعاطف الجماهيرى، أو على الأقل فإن الجماهير الأمريكية أرادت أن تسمع مايقوله هذا الرجل العاجز الطامح فى الوصول إلى البيت الأبيض، لقد كان مرضه سببا فى نجاحه إن لم يكن كل أسباب نجاحه واكتسابه لشعبيته الطاغية، وفى تقديرى أن فرانكلين روزفلت لو لم توافيه المنية فى أسابيعه الأولى فى فترة الحكم الرابعة لأصبح رئيسا للولايات المتحدة مدى الحياة..

والدليل على أن أمراض الزعماء تكسبهم أحيانا جزءا كبيرا من الشعبية هو ماحدث مع الرئيس الفرنسى ميتران حينما أعلن رسميا عن إصابته بالسرطان قبل عامين تقريبا من انتهاء فترة رئاسته الثانية لفرنسا، ورغم أنه أخفى عن شعبه حقيقة إصابته بالمرض منذ الأيام الأولى لوجوده فى قصر الإليزيه إلا أن أكثر من ٧٠٪ من أبناء الشعب الفرنسى لم يمانعوا فى أن يستكمل ميتران فترة رئاسته الثانية، وأظهرت استطلاعات الرأى أن شعبية ميتران ارتفعت بعد إعلان مرضه وتوقع وفاته فى أى وقت، تماما كما كانت شعبيته فى كفاحه الأول ضد الاستعمار الألمانى جنبا إلى جنب مع شارل ديجول..

وتساؤل جديد يفرض نفسه على هذه الصفحات..

مادور مساعدى الرؤساء والعاملين فى بلاط الرئاسة فى إفشاء أسرار الرؤساء بعد زوال ملكهم؟

الحقيقة أن دورهم كبير للغاية.. فالمذكرات التى يعدها ويؤلفها مساعدو الرؤساء المطلعين على أدق الأسرار الرئاسية تجلب لهم الملايين من الدولارات، وتعتبر هذه المذكرات بمثابة الصفقة الرابحة التى يستفيدون منها بعد انتهاء عملهم بالدواوين الرئاسية، وهذا ماحققه الدكتور كلود جوبلر الطبيب الخاص للرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران بعد أن أصدر كتابه «السر الكبير» والذى حقق مبيعات هائلة فى أول يوم من إصداره تقدر بأربعين ألف نسخة قبل أن يوقف تداوله من الأسواق، وهذا الأمر يحتاج إلى وقفة لأن أسرار بلاط الحكم تصبح فى مهب الريح، ويتم تداولها بمعرفة كل من هب ودب لمجرد أنه عمل يوما فى بلاط السلطة، أو كان يوما من رجال الحاكم.. وبعض الآراء لاتوافق على منع هؤلاء المسئولين من كتابة مذكراتهم بعد تقاعدهم، لأن ذلك يعتبر حجرا على الرأى وتعديا على الديمقراطية وانتقاما من حرية التعبير، وأنا أجد نفسى مؤيدا لهذه الآراء وفى نفس الوقت أشجع إصدار قوانين تنظم إصدار المؤلفات الخاصة بفترات الحكم بحيث نحمى التاريخ من مغبة استغلال بعض العاملين فى دواوين الرئاسة لمذكراتهم فى تلفيق أو تزوير الأحداث.. ولذلك فمن

الأفضل أن تشكل لجنة مسئولة عن دراسة المؤلف الذى يصدر عن زعيم بعينه ويكون لهذه اللجنة أعضاء من أسرة الرئيس موضع الكتاب وكذلك مسئولين من أجهزة الأمن القومى والمؤرخين وأجهزة الرئاسة وأساتذة العلوم السياسية لفحص مايمكن كشفه للرأى العام على أيدى الكتاب من العاملين في دواوين الرئاسة في مختلف دول العالم ومايمكن كشفه من خلال الأجهزة الرسمية والمدققين والمحللين حفاظا على صحة المعلومة وعدم العبث بمقدرات وحضارات الشعوب بشرط أن لايحجب شيئا عن النشر..

وأجدنى هنا أوجه رسالة إلى كل رؤساء وزعماء وقادة الدول.. إحرصوا على انتقاء مساعدين أوفياء..

ولايجب أن ننسى في خضم حديثنا التنشأة القاسية لبعض الحكام في فترات الطفولة والصبا والتى أثرت تأثيراً مباشراً أو غير مباشر على تكوينهم الشخصى وسلوكهم فى إدارة قضايا بلادهم بعد ذلك، والمثل واضح فى حالة الرئيس الروسي الأسبق بوريس يلتسين الذى كان أبوه يعاقبه ضربا بالسوط، ولك أن تتخيل أيها القارئ كيف يمكن أن تتشكل نفسية طفل برئ يعاقب على خطأه ضربا بالسوط؟!! والإجابة ظهرت بعد سنوات طويلة حينما أصبح يلتسين رئيسا لروسيا فتعامل مع معارضيه بمنتهى القسوة والتوحش وبعيدا عن الديمقراطية والاشتراكية وحرية الرأى، والتى حارب من أجلها سنوات شبابه، وكاد أن يلقى حتفه من أجل هذه المبادئ..

إن أمور الزعماء وسيرتهم تحتاج لمئات المجلدات للتمكن من سرد تفاصيل حكمهم بالصورة الكاملة.. ومع الكلمات الأخيرة فى هذا الكتاب أتخيل معنى الزعامة والمسئولية.. وكم من حكام عصفت بهم أمراضهم العضوية أو النفسية فعصفوا بشعوبهم..!! وكم من حكام ردتهم لحظات الاقتراب من الموت إلى صوابهم ورشدهم المفقود.. وأيا كانت الرؤية فإن المرض قاسم مشترك فى صنع قرارات الزعماء وقادة الدول.. ومؤثر أساسى على السياسة الداخلية والخارجية.. وأجدنى أقول فى النهاية لكل من سيسأل عن رعيته يوم الحساب مقولة الشاعر الانجليزى موردنت «إن ساعة واحدة حافلة بالأمجاد تساوى عصرا برمته عاطلا عن المجد»..

فلايجب على الحكام إذا أصابهم الضعف أو المرض وأعاقهم عن تدبير أمور القيادة أن يعطلوا شعوبهم عصورا عن المجد.. لأنهم فى ذلك الوقت قد يصيروا عميانا وتصير شعوبهم فى طريق الظلام والعمى ويقول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فى سفر متى العهد الجديد من الكتاب المقدس بالاصحاح ١٥ والآية ١٤ «اتركوهم هم عميان.. قادة عميان، وإذا كان الأعمى يقود الأعمى سقطا معا فى الحفرة»..

ومعذرة فإنى أريد أن أكمل ولكن تلك آخر قطرة حبر فى قلمى..

القاهرة - ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٠

المراجع والمصادر

(١) المراجع العربية:

- «لمصرَ لا لعبد الناصر» — محمد حسنين هيكل
- «حوارات للتاريخ» — إبراهيم نافع
- «السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط» — كمال الهلباوي
- «محمد علي وأولاده» — جمال بدوي
- «رجال حول الرسول» — خالد محمد خالد
- «زيارة جديدة للتاريخ» — محمد حسنين هيكل
- «إيران فوق بركان» — محمد حسنين هيكل
- الأرشيف الصحفي — دار أخبار اليوم
- الأرشيف الصحفي والميكروفيلم — جريدة الأهرام
- الأرشيف الصحفي — صحيفة الفجر الجديد الكويتية
- كتب السنة النبوية والأحاديث الشريفة والقرآن الكريم

(٢) المراجع الأجنبية:

- الصحة والسلطة — د. يفجيني تشازوف
- «روزفلت .. كما عرفته» — فرانسيس بيركنز
- «الحياة الجنسية لرؤساء الولايات المتحدة الأمريكية» — بيجل كاوثودن
- «السر الكبير» — د. كلود جوبلر
- «الشرف الضائع لميتران» — جون آلييه
- «الموت الحميم» — د. مارى دى هانزال
- «حياتي المبكرة» — رونالد ريجان
- «ميتران وإسرائيل واليهود» — إيف ازيرول / إيف دايراى -
- «ضد مزاج الفرد — بوريس يلتسين
- «شباب فرنسى» — صحيفة التايمز البريطانية
- الأرشيف الصحفى — صحيفة نيويورك تايمز
- الأرشيف الصحفى — صحيفة لوموند الفرنسية
- الأرشيف الصحفى — مجلة ساترداى إيفنيج
- الأرشيف الصحفى — مجلة بوست الأمريكية
- الأرشيف الصحفي — مجلة ديتكتيف الفرنسية
- الأرشيف الصحفي — مجلة بارليانت سكاى الروسية
- الأرشيف الصحفي — الجارديان البريطانية
- الأرشيف الصحفي — مجلة صانداى تلجراف البريطانية
- الأرشيف الصحفي — مجلة لوفيجادو الفرنسية
- الأرشيف الصحفي — صحيفة ميامي هيرالد الأمريكية
- الأرشيف الصحفي — صحيفة التفو الأمريكية
- الأرشيف الصحفي — مجلة باري ماتش الفرنسية
- الأرشيف الصحفي — مجلة الديل ميل البريطانية

-HURSt'S THE HEART, Text Book of Casdiolcgy, Ninth Edition, 1999.
-Braunwald, A text Book Of Cardiovascular Medicine, Fifth Editien, 1997.
-Text Book Of Oncology, By International Union Against Cancer ., Edited By D K. Hossfeld
-Davidson's, Psychoanalysis And Practice Of Medicine, Seventeenth Edition, 1992.
-Kaplin, Psychoawalysis, Text Book & Kaplin Psycho Pharmacology Hand Book.

الفهرس



زعماء على فراش الموت

أسرار لم تنشر من قبل ؟!

وفى مارس عام ١٩٩٨ كانت خيبة الأمل شديدة والشعب الروسى يرى رئيسه يهذى امام العالم فى إفتتاح اعمال القمة الثلاثية بموسكو والتى دعى يلتيسين إليها بجانبه كل من الرئيس الفرنسى چاك شيراك والمستشار الألمانى هيلموت كول .. وعندما وقف ليعلن إفتتاح القمة وبداية المحادثات قال وسط ذهول الجميع :

اعلن إفتتاح المؤتمر الصحفى بدلاً من ان يقول : اعلن إفتتاح القمة .. واسرع سكرتيره الخاص وهو يعدو فى إتجاهه ليجعله يتدارك الموقف بهدوء ويذكره بأنه يفتتح القمة الثلاثية وليس المؤتمر الصحفى .. ولكن يلتسين نظر إليه بإحتقار ومضى يدعو الصحفيين لطرح الأسئلة وچاك شيراك و هيلموت كول يضربان كفاً بكف ولسان حالهما يقول :

لا حول ولا قوة إلا بالله ؟!

الناشر
طه عبد الجواد



- د . باسم عادل عبد الصادق.
- من مواليد مدينة طنطا ـ محافظة الغربية.
- طبيب متخصص فى أمراض القلب بالمعهد القومى للقلب بالقاهرة .
- المستشار الإعلامى بالمركز المصرى للدراسات والبحوث الإعلامية .
- قام بتأليف مجموعة قصصية بعنوان « إثنى عشر وجه للقمر » .
- له ديوان أشعار تحت الإصدار بعنوان « عندما تولد الشمس » .
- قام بتأليف مسرحية بعنوان « أرض المشمش »
- له العديد من الأعمال الدرامية تحت التنفيذ باتحاد الإذاعة والتليفزيون .
- قام بإعداد العديد من البرامج التليفزيونية بالمحطات الفضائية العربية .
- قام بكتابة المقالات السياسية والعلمية بالصحف والمجلات القومية .
- أعد دراسة عن التحديات التى تواجه الاعلام المصرى فى الألفية الثالثة والتى إهتمت بها وسائل الإعلام المختلفة